

الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن

جُذُورُ الْقُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

قِرَاءَةُ نَقْدِيَّةٍ لِتَارِيخِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ



دار العلم، بيروت



Bibliotheca Alexandrina



0050012

جُذُورُ الْقُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
قراءة نقدية لتاريخ الدعوة الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطليعة للطباعة والنشر
ص. ب. ١٨١٣ - ١١
بيروت - لبنان
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٨

الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن

جذورُ القوَّةِ الإسلاميَّةِ

قراءةٌ نقديةٌ لتاريخ الدعوة الإسلاميَّةِ

دارُ الطليعةِ للطباعةِ والنشرِ
بيروت

غير أني قائل ما أتاني
من ظنوني مكذب للعيان
أخذ نفسي بتأليف شيء
واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى إذا ما
رمته، رمت معمي المكان
فكأنني تابع حسن شيء
من أمامي ليس بالمستبان.

« أبو نواس »

مدخل

بجانب العقائد الدينية، وبالتوازي معها، نبتت الخرافة، ونمت شيئاً فشيئاً، ثم إختلطت بها وصبغت بالصبغة الأسطورية، حتى ليظن المطلع عليها بأن الخرافة هي أصل من أصول الفكرة الدينية نفسها، تبدأ بها وتعيش بها وتنتهي بها إلى قلوب الناس، ثم يظن مرة أخرى بأن الجذور التاريخية والاجتماعية والعادات والطقوس القديمة تعكس نفسها على كل فكرة جديدة، بل وتمتزج بها إمتزاجاً بيناً أو خفياً، ثم ليظن مرة ثالثة بأن محاولة فهم العالم فهماً كلياً، ومواجهة الطبيعة بلا أسلحة فعالة، تعكس الضعف والطفولة الإنسانية، وللتعالي على هذا الضعف والخوف والمجهول - كضرورة للحياة - إخترع الإنسان الأسطورة مستخدماً سلاحه القوي الوحيد وهو الخيال، مفسراً كل شيء، حالاً لكل المعضلات الكونية التي تحيط به بكلمة أو جملة أو طقس جماعي أو قصة ترتبط بأرضه ثم تعلقو الى سماء المجهول لتتحول الى واقع حي يمارس يومياً أو شهرياً أو سنوياً، وبفعل تقادمها تأخذ في الثبات ثم تتغلغل في النفوس وتتغذى بها الجماعة، وتغذيها نفس الجماعة مضيئة إليها من إمكانياتها وتبعاً للظروف الجديدة التي قد تمر بها.

ولم تنجُ عقيدتنا الإسلامية من هذه الصبغة، فما إنْ تقرأ كتاباً في التاريخ الإسلامي حتى تفاجأ بكم هائل من الخرافات. وما إنْ تقرأ

كتاباً في السيرة حتى تصدمك كمية الزوائد الأسطورية والإضافات غير المعقولة لتاريخنا، وكأن الإسلام لن يصمد إلا بتلك الإضافات أو بتلك الزوائد

وإنك لتجد في عقول (العامة) وفي عقول بعض (الخاصة) ذلك الإيمان الراسخ بالخرافات والإعتقاد فيها، بل وتمثيلها تمثيلاً حياً في بناء «المقامات» وتقبل الحيطان، والتغني بالمعجزات مما لا يستطيع معها عقل مفكر إلا أن يتساءل.

وتأثرت كتب المفكرين حديثاً أو قديماً بهذه الصبغة الأسطورية، حتى تُجهد وأنت تبحث عن جزء من الحقيقة وسط ذلك الركام الهائل غير الموضوعي.

وهؤلاء الذين نجوا بشكل أو بآخر من أحابيل الخرافة محاولين تقديم الموضوعي في تاريخنا، لم ينجوا بشكل كلي منها، ولا سيما أن معضلة أخرى تضاف إلى هذه القضية، وهي أن التاريخ الإسلامي لم يبق منه مكتوباً سوى القرآن، ثم جمعت الأحاديث النبوية في فترة متأخرة، وانتشرت الروايات والقصص فدخلتها الأهواء السياسية، فأضافت للنبي مالم يقله وللصحابه مالم يتفوهوا به، وإختترت بعض الأحداث إختراعاً، وإنتحلت القصص إنتحالاً سواء لأغراض دينية أو سياسية أو قومية.^(١)

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد إنضاف إليه كل ذلك التشويه منذ بدء الدعوة المحمدية، فما بال ذلك الباحث في تاريخ ما قبل

(١) يقول د. طه حسين عن العرب (هم مسلمون لم يظهروا على العالم إلا بالإسلام مهم محتاجون إلى أن يعتزوا به ويرضوه ويجدوا في إتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان وهم في الوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع مهم مضطرون إلى أن يراعوا هذه العصبية ويلاقوا بينها وبين منافعهم ودينهم.) في الأدب الجاهلي. ص ١١٨.

الدعوة، وهو يواجه أحداثاً كثيرة ربما أضيفت لنفس الإعتبارات والأهواء، بالإضافة إلى ذلك فإن حركة التسجيل كانت محدودة للغاية، فاعتمد الكل على روايات الرواة، وحكايات القصاصين ينبشون فيها محاولين إستخراج الثمين من الغث، فإن لم يرضخ الباحث - في النهاية - للكسل والطمأنينة، فإنه سيضع في ذهنه الشك وهو يبحث وسيضع الإحتمالات وهو يفكر، وسيصل إلى الإستنتاجات التي يمكن أن تؤدي إليها. ورغم ذلك تبقى تلك الإستنتاجات قاصرة - لحد ما - وأياً كانت وجهتها، لأنها مبنية على الإستقراء أكثر من اعتمادها على حقائق ثابتة موثوق في ثبوتها، أو كما يقول ريشنباخ «ولاتفيدنا النظرية العلمية - أية نظرية علمية - من المعلومات عن الحقائق التجريبية أكثر مما تفيدنا في الظاهر، فالحقائق مترابطة مع بعضها البعض على نحو معين، وليس بوسعها أن تقيم الدليل للإعتقاد بأن الكيانات التي تفترضها من أجل هذه النظرية موجودة بالفعل إلا من حيث أنها أكثر ترجيحاً، فلغة العلم هي لغة الترجيح الإستقرائي، فإذا لم تُعرف الحقيقة بشأن ماسيحدث أو بشأن ماهو موجود بالملاحظة فسوف نستعيز عنه بأفضل ترجيحائنا التي هي أداة الفصل حيث لا تتوافر الحقيقة، وتبرير الإستقراء هو أنه أفضل أداة للفصل معروفة لدينا».^(١)

فإن قرأت أي كتاب قديم أو حديث عن تاريخ العرب ما قبل الإسلام، فستجد الرواة قد إتفقوا أو كادوا يتفقون على أن جذور العرب تنبع إما من القحطانيين في اليمن أو العدنانيين في الحجاز، وعلى أن القحطانية عربية عاربة والعدنانية مستعربة وإكتسبت

(١) ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د فؤاد زكريا

العربية إكتساباً بعد أن مُحيت لغتها الأولى، وظلت هذه التقسيمة سائدة من مئات السنين وكأنها حقيقة موضوعية لاتقبل الجدل أو النقد، إلى أن شكك فيها طه حسين وهو يقول:

«وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً.... فالرواة يحدثوننا أن الشعر تنقل في قبائل عدنان وكان في ربيعة ثم إنتقل إلى قيس ثم إلى تميم، فظل فيها إلى مابعد الإسلام.... ونحن لانستطيع أن نقبل هذا النوع من الكلام إلا بإسمين، لأننا لانعرف ما ربيعة وما قيس وما تميم معرفة علمية صحيحة، أي لأننا ننكر أو نشك على أقل تقدير شكاً قوياً في قيمة هذه الأسماء التي تسمى بها القبائل، وفي قيمة الأنساب التي تصل بين الشعراء وبين أسماء هذه القبائل، ونعتقد أو نرجح أن هذا كله أقرب إلى الأساطير منه إلى العلم اليقين.... فالبرهان القاطع قائم على أن إختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان يعترف القدماء أنفسهم بذلك، ويثبتته البحث الحديث....»^(١).

«... وكل مانعرفه هو أن هذه القبائل كانت تسمى قحطانية وتنسب نفسها إلى قحطان، على أنها كانت تتردد في ذلك أحياناً فتتنسب إلى عدنان، ولكن من الذي يستطيع أن يؤكد لنا أن هذه القبائل كانت قحطانية حقاً أو عدنانية حقاً دون أن يأتي بالبرهان على

(١) طه حسين. في الادب الجاهلي. ص ٨٢-٩٤.

صدق هذه الدعوى^{١٩}.. أو نستطيع أن تصدق زاعماً يزعم لنا الآن مثلاً أن الشعب البريطاني إنما هو شعب إسرائيلي هاجر إلى البلاد البريطانية^{٢٠}! ومقيمة هذه الأحاديث التي يتكلفها القصاص وأصحاب الأغراض والأهواء للذة والمنفعة^{٢١}...».

وتستطيع أن تفتح كتب السيرة وكتب التاريخ الإسلامي قديمها وحديثها، فلن ترى الاختلاف إلا في طريقة الصياغة أو في الشكل، وتبدو معظم المجهودات في هذا المجال منصبة على تجميع المعلومات غثها وثينها دون نظرة نقدية فاحصة، وتحكمها في النهاية إعتبارات عصبية أو دينية^(١) أو سياسية أكثر مما تحكمها إعتبارات التفكير العلمي الناقد.

ومن هنا بالضبط نواجه عدة إشكالات ونحن نكتب كتابنا هذا.. **الإشكالية الأولى** في غربة كل ذلك الركام من الأحداث غير المنطقية، وربط المنطقي منها ربطاً متتابعاً وعلى نحو متسق وشامل وموضوعي، والخوف هنا من السقوط في مستنقع الإنتقائية بما تحمله من نظرة مسبقة للأحداث ومن عدم الإلمام الكلي بالصغيرة والكبيرة. فمن يستطيع مثلاً أن يثبت لنا أن موقفاً ما قد حدث أو أنه لم يحدث على الإطلاق؟ وربما نعتمد في إنتقائنا على حادثة رُويت وهي لم تحدث، فنصل إلى نتيجة مبنية على فراغ. ولتجنب هذا الأمر قدر المستطاع - فنحن لانستطيع تجنبه تماماً - سنعتمد على

(١) (رُوي أن عمر بن الخطاب بلغه أنه ظهر في أيدي الناس كتب فاستنكرها وكرهها وقال. إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فاحبها إلى الله أعد لها وأقومها فلا يبقين أحد كتاباً إلا أتاني به فأرى فيه رأيي، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه إختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار.) أنظر ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الحاهلي ص ١٦٨ - ١٦٩

الخطوط الرئيسية في الموضوع دون أن تغض النظر عن إرتباطها بما قبلها أو بما بعدها من أحداث أقرب للمنطق، ويبقى في النهاية ذلك النص المكتوب الثابت وهو القرآن باعتباره ناصية الحكم - ولو بشكل عام - عندما تتداخل الزوايا أو تتوه

الإشكالية الثانية القصور الحاد في المسيرة التاريخية، فعندما نبدأ بحثنا عن نقطة ما في الموضوع ونجري وراء الأحداث لإستكشافها، نجد خانة فارغة، أو فجوة أو إنقطاعاً شاذاً، أو بعض الروايات التي لايعتمد عليها، فنقف حائرين أو متسائلين ماذا يمكن أن نفعل؟! فعلى سبيل المثال تروي كتب السيرة النبوية أن محمداً كان يناضل أهل مكة ويجادلهم ويعيبيهم بالحجة ويسخرون منه وسلك في سبيل ذلك كل مسلك ليكونوا في صفه، لكن إستجابتهم كانت فردية الطابع فلم يتبعه سوى أربعين في فترة تجاوزت الثلاث سنين^(١)، ولم يزد هذا العدد كثيراً في السنوات التسع أو العشرة التالية ليصل حوالي المائة قبل الهجرة مباشرة^(٢). تم يُقال بأن الرسول إلتقى بنفر من أهل يثرب، وعلى الرغم من أن هذا النفر لم يؤمن إلا أنه حين عاد إلى يثرب، نشر بين أهلها خبر دعوة محمد، ثم قابل النبي وقد أخرج من الخزرج وشرح لهم تعاليم دعوته، حتى إذا ما وافى موسم الحج التالي حضر وفد من أهل يثرب يضم إثنا عشر شخصاً فبايعوه على الإسلام، ثم بعث النبي مع هذا الوفد مصعب بن عمير ليفقههم في الدين، ثم عاد مصعب في العام التالي إلى مكة ومعه وفد من ثلاثة وسبعين رجلاً وإمرأتين، وبويع الرسول بيعة العقبة الثانية.

(١) انظر، د. جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص ٢٠٦.

(٢) انظر، هادي العلوي، نصوص منسية من التراث مجلة «دراسات عربية» مايو ١٩٨٦.

هكذا تروي الراويات بلا خلاف، فبينما أجهدت مكة محمداً وهي موطنه، فلم تتبعه سوى قلة قليلة، يأتيه مرة واحدة عدد كبير نسبياً في وطن آخر لم يجهد معهم ولم يحاورهم أو يجادلهم أو يبذل معهم مجهوداً كبيراً وخاصة والأمر يتعلق بمسألة العقيدة والدين، وهو أمر ليس من البساطة ليتركه أصحابه بعد لقاء أو لقائين. وهنا نواجه المشكلة، فترك أهل يثرب لدينهم ودخولهم بهذه السرعة وبهذا العدد في دين محمد أمر مثير للتساؤل والحيرة، هذه الحيرة وذلك التساؤل الذي لاتجيب عنه كتب التاريخ إجابة شافية والإجابة الجاهزة دائماً أن الله قد فتح قلوبهم وعقولهم فاعتقدوا في محمد ودينه، وكأنهم لم يكونوا بشراً كبقية بشر ذلك الزمان. وهذه الإجابة لاتكفيها. أما أن قصة البيعة فهي غير مشكوك فيها بحكم التطورات التي إستتبعتها وبحكم إشارة القرآن لمناصرة يثرب لمحمد في مواضع كثيرة، وأما حجم الداخلين في الدين الجديد وبهذه السرعة إعتماداً على السماع من محمد أو مصعب بن عمير في لقاء بسوق عكاظ أو في المدينة، فمسألة تثير الشكوك، لأن أمراً كهذا يفترض بالضرورة أن تكون هناك أسباب قوية وأحداث سابقة على لقاء البيعتين، أو يفترض حدوثها بشكل مختلف مما قد يجعلنا نسأل عن معنى المناصرة وكيفيتها وما علاقتها بالاعتقاد في دين محمد^{١٩}. إلا أننا لانجد في كل ماقرأناه شيئاً عن ذلك، وهذا هو مانسميه الفجوة الفارغة أو الإنقطاع الذي تحدثنا عنه

ونستطيع أن نسوق مثلاً آخر يتعلق بهذه النقطة في بعض جوانبها، فقد يُفهم بسهولة دخول أبي سفيان الإسلام آخر لحظة قبل فتح مكة كتعبير عن هزيمة نهائية لايمك لها رداً ولا صداً، وقد يُفهم بسهولة دخول علي بن أبي طالب الإسلام، فهو في الحقيقة قد تربى

عليه منذ العاشرة من عمره، أما دخول عثمان بن عفان، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان، وقد كانوا من أصدقاء أبي بكر وخاصته وتجاراً في مكة، نقول بأن دخولهم الجماعي في الإسلام يحتاج لتوضيح أكثر، حيث لم تقل كتب التاريخ إلا عن الإقتناع وأن الله قد فتح قلوبهم للدين الجديد، أما ظروف إقتناعهم فلا نعرف إلا حكايا هامشية لا تكفيها، فالإقتناع وحده والإعتقاد بصدق محمد غير كاف من تجار المفروض في طبيعتهم المفاوضة والمساومة والأخذ والرد وحساب الربح والخسارة. قد يُقال بأنهم الفئة الأكثر إستنارة في مكة لأن التجارة تعني الإتصال بالعالم، ولأن التجارة تعني مصدر الحياة الأساسي لناسها، وبها إرتبط الحج والدين والعقائد الوثنية، وبالتالي الوعي الأكبر بدورها في الإنعكاس على سلطة الأفكار الدينية والسياسية والإجتماعية. وقد يُقال بأنهم الفئة الأكثر جرأة بحكم تميزها الطبقي والفئوي، وبحكم ثرائها كسبب كاف للحماية من ردة فعل سادة مكة. وقد يُقال بأنهم الفئة الأكثر ثورية بحكم أحلامها في السيطرة على مقدرات الأمر، وخاصة أنها كانت فئة (متوسطة) بمعنى أنها لم تكن جزءاً من التركيبة الأرستقراطية القرشية من شيوخ وسادة مكة، وبحكم مزاحمتها والمنافسة غير المتكافئة المضروبة عليها من هذه الأرستقراطية، ولذا كان عليها أن تبحث عن بديل، فوجدت في صديق قوي الشخصية قوي البيان تحقيقاً لحلمها، فتلقفت دعوته وناصرته. وبالطبع فإن هذه الإستنتاجات تخضع لباب الترجيح أكثر من خضوعها لأحداث واضحة جلية، وخاصة وقد تشوه التاريخ الخاص لكل منهم على حدة بحكم ما أدخل عليه من إضافات وقد لا تخلو من هوى أو منفعة، فلا نستطيع أن نظفر ببغية أو حادثة إلا وينتابنا الشك في أمر حدوثها من عدمه.

وما سقناه هنا ليس إلا متلين من أمثلة كثيرة تؤكد هذه الإشكالية.

الإشكالية الثالثة في عدم دقة التواريخ وترتيب أحداثها، بل وإهمالها أو تناقضها في أغلب الأحوال فلترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً متتابعاً فائدة قصوى في إستقراء مسيرة القوة الإسلامية وإثباتاً لتتابعها المنطقي، فالروايات قد تتناقض وقد تتفق عن زمن ما، مما يجعلنا نقف حائرين أمام هذا الخلط ونحن نحاول تحليل أمراً من الأمور، فالبعض يقول مثلاً بأن النبي صفى بني النضير في يثرب قبل بني قينقاع، والبعض يقول العكس. والبعض يقول بأن صحيفة المعاهدة بين محمد وأهل يثرب بكل عسائرها، جاءت بعد الهجرة مباشرة، والبعض الآخر يقول بأنها حدثت بعد إنتصار بدر، وهذا لا يستطيع أحد أن يملك له رداً بسبب إعتقاد التدوين على الذاكرة وربما الأهواء.

وندعي أن الترتيب الزمني في تعاقبه هم جداً في عملية فرز حوادث التاريخ، وفي غربلة الغث من الثمين، بل وفي إلقاء بعض الروايات في سلة المهملات إن تناقضت مع الصيرورة الموضوعية في تناميها وإستمرارها. وبقدر مانستطيع فإن تلك الصيرورة هي التي ستحكم ترتيبنا في الحكم على حدث بوضعه في إطار لحظته التاريخية بعد لحظة سابقة يجب أن تكون، ولحظة تالية كنتيجة له وبناءً عليه وأياً كان الأمر فإننا لن ننجو بشكل كامل من إعمال العقل لنقص الوثائق وتناقض الروايات مما قد يحمل معه من مخاطر الشطط أو التعميمات أو الاطلاقات والتي تحتاج إلى لجام يلجمها وراذع يردعها.

الإشكالية الرابعة محاولة تنقية التاريخ الإسلامي من شوائب الخرافات والأساطير وهوى التقديس المضر بعملية التأريخ وخاصة

في بحثنا، والجري وراء الموضوعي في مسيرة القوة الإسلامية ودورها الأساسي في إنجاح المشروع المحمدي، أو بمعنى آخر عقلنة بعض التاريخ الإسلامي من هذه الزاوية. وليس معنى هذا أنه كتاب في السيرة أو في التاريخ، وإنما هو التركيز على دور القوة بمعناها الشامل وباعتبارها محصلة ظروف موضوعية متلاحمة، وفي صيرورة تلك المحصلة يتداخل التاريخ بالسيرة بالنصوص وبإعمال سلاح النقد الموضوعي. ونحن نبحت في تلك القوة إكتشفنا إلى أي مدى إحلت العمل العسكري الدور الرائد فيها فوجهها وصعد بها واحتواها وبدأ سيداً لها من كل الوجوه

والمشكلة هنا أن تلك المحاولة قد تهدم آراء، إستكان إليها البعض وسكن، وقد تثير نفوس الذين رضوا بالأوهام وتحكمهم (غريزة الخرافة) - إن جاز التعبير - والذين لا يستطيعون قبول الإستنتاجات والشكوك، لأنهم لا يفهمونها ولم يتعودوا عليها فما بالهم إن تعدى الأمر روايات آمنوا بها منذ القدم وعاشت في «ضماثرهم»، بل ومثلت جزءاً أساسياً من تركيبتهم الدينية^{١٩}. وقد تثير جدل البعض الثالث، لأننا - كما قلنا - ونظراً لكثرة الخانات الفارغة، سنضطر أن نستقرئ الأحداث استقراءً، ونجري وراء الترجيحات الأقوى جرياً، وربما نتوقف - مضطرين - عند حد إستخدام مبضع الشك في حدث ما من الأحداث غير قادرين على تخطيه بسبب الفجوات التي لا يمكن عبورها إلا بالقفز عليها. وهذا البعض الثالث ربما لا يهتأ كعادة هؤلاء الناس الذين يبحثون عن حل نهائي وشامل لكل المعضلات. لكن كل هذا لن يمنعنا من أن نخوض في ذلك البحر المضطرب، فنتير من إستكان أو إطمأن لوهم يلوكة ليل نهار، أو أن نثير جدلاً ربما يصل بنا إلى نتائج مرضية للبعض الأخير.

لكننا هنا لاندعي أننا سنحل كل المسائل أو المشاكل، ولكننا

ندعي أننا سنوجه طاقة ضوء نحو بعض الأركان المظلمة فيما يخص موضوعنا، أو أنها محاولة لإستكتشاف الموضوعي من غير الموضوعي في مسيرة القوة الإسلامية.

والقوة التي سنتعرض لها ليست القوة العسكرية وحدها - رغم أهميتها القصوى - وإنما مايمكن أن تشمله من عناصر عسكرية ومعنوية وتاريخية وجغرافية وبشرية. الخ.

فكل الدعوات الكبرى في التاريخ، كانت ولا زالت تغذيها وتحميها وتنشرها، بل وتنقلها من محليتها إلى عالميتها. ولا نظن أنه بدون القوة، ماقدر لأحدها أن يعيش إلا في حدوده الضيقة فالدعوة المسيحية - في بدايتها - كانت مطاردة ضعيفة، وعرفت ضحايا كثيرين أو ما يسمى بعصر الشهداء نتيجة الحرب المعلنة عليها من الأباطرة الرومان، حتى إعتنقتها الإمبراطورية والتي كانت في حاجة لإتساع رقعتها وأطرافها، وما كان لها أن تغزو العالم بعدة أعلام وعدة آلهة يتزودون بالأساطير اليونانية والرومانية، فكانت المسيحية حينئذ أنسب (أيديولوجية) حملتها سيوف الرومان، فتوسعت الإمبراطورية ومعها توسعت الديانة الجديدة، (ففي الطقس المسيحي وقناعاته المرادفة، نحن أمام ثقافة حية مسلحة خير تسليح بأدب واسع، وجذورها تضرب عميقاً في الأزمنة القديمة، فضلاً عن ذلك، بقدر ماكانت المسيحية «تعويضاً» لمزيج مشوش من الحركات الدينية التي إتسم بها العالم الإغريقي الروماني في بداية عصرنا، فأعطت دلالة وظيفية جديدة للخطوط القديمة الداخلة في نسق الثقافة الجديدة)⁽¹⁾.

(1) James C.O. : CHRISTIAN MYTH, and RITUAL P.vi. Translated into Arabic by Sobhi Hedidi. DAR IL HEWAR SYRIA

ونستطيع أن نقول أيضاً بأن إنتشار المسيحية فيما بعد سواء في أفريقيا وآسيا وأمريكا حملته بنادق الإستعمار الأوربي وبضائعه وحضارته ومبشره، ليحل محل الوثنية السائدة ويختلط بها. ورغم دعوة السيد المسيح بالسلم وبفصل الدين عن الدولة «أعط مالقيصر لقيصر وما لله لله» إلا أن تلك الدعوة تلاشت تحت سيوف الغزو الروماني، وبنادق الإستعمار حاملة إسم السيد المسيح نفسه على أسنة حرابها، فبدون القوة العسكرية والمادية والبشرية لا يمكن المحافظة على فكرة ما، وإذا كان هذا القانون صحيحاً في العصر القديم فهو أيضاً صحيح في العصر الحديث.

وهذا لايعني أننا ننفي مالفكار من تأثير في حياة الناس، وخاصة تلك التي قد تجد هوى مع مصالحها وحاجاتها، فقد يكون الدين الإسلامي أو المسيحي - في ذلك العصر - متمشياً مع طبائع بعض الناس وحاجاتهم، فاستجابوا له ودافعوا عنه، ولكن طبائع الناس وأفكارهم تختلف طبقاً لمواقعهم داخل التقسيمة الإجتماعية السائدة، فأفكار العبد تختلف عن أفكار السيد، وأفكار الفلاحين تختلف عن أفكار الملاك، وأهواء الفقراء غير أهواء الحكام، والفكرة البدوية قد لا تتمشى مع المجتمع الزراعي، والقيم الفلاحية قد لا تجد لها أرضاً في مجتمع الآلة، وبالطبع فإن تلك الأشكال والتقسيمات ليست تقسيمات ميكانيكية وإنما بسطناها لتقريب المعنى. ولكي نتحقق فكرة ما، فإنها تحتاج لقوة السلاح وقوة الحجة، فلا الحجة وحدها كافية ولا القوة وحدها كافية، والحجة في مفهومنا هي الملازمة لحاجات الناس «وطبائعهم»، وقد يُعترض بأن حكماً وأباطرة إستمروا قروناً رغم أنف «الحجة» تلك، وضد حاجات الناس، بل إنهم غيروا تلك الحاجات بما يوافق أهواءهم هم، ومصالحهم هم، وإستخدموا في ذلك أساليب القوة الموجودة في أيديهم، فكتبوا حجة

كان يجب أن تظهر من سنين، وقتلوا حججاً لم تظهر أبداً وماتت بموت أصحابها. ونوافق على هذا، فلكل جديد قوته، ولكل قديم قوته، وتتطاحن القوتان لفترات زمنية قد تطول وقد تقصر حتي يخلي القديم مكانه للجديد، ويتحول الجديد الى قديم في مواجهة جديد جديد. وهكذا تجري عجلة التاريخ.

ولكي ينتصر الجديد يبحث عن قوته في السلاح وفي الظروف التاريخية المناسبة، بل وفي اللحظة الفعالة من تلك الظروف، وفي قوته بكونه جديداً وأكثر صلاحاً من القديم في مواجهة الزمن.

وهنا نسأل: هل إمتلك الدعوة الإسلامية وسائل قوتها بوصفها دعوة جديدة؟، وإلى أي مدى نجحت في استخدام القوى المتوفرة تحت يديها لتغزو أجزاء واسعة من العالم القديم؟ ونجيب على ذلك قائلين نعم. إمتلك الإسلام القوة وفهم مغزاها ودورها واستثمرها لأقصى حد ممكن، ونجح في تعريب أمم كثيرة، واختلطت الحضارات القديمة بالدين الجديد، فأعطت ما يسمى بعصر الحضارة العربية الإسلامية والتي سيطرت على رقعة واسعة من العالم على مدى عدة قرون.

نحن لن نعيد التاريخ إلى الوراء، فما قد جرى قد جرى، ولا يمكن لنا أو لغيرنا أن يفكر حتى في ذلك، ولكن مايمكن أن نفعله هو أن نتبع هذا التاريخ ونجري وراءه بحثاً عن بغيتنا.

وفي تتبعنا لهذا التاريخ قد نتغاضى عن أحداث كثيرة لن تفيدنا في بحثنا رغم أهميتها، ولن نتبع الترتيب الزمني - رغم أهميته - وإنما قد نأخذ حادثة قديمة مع أخرى حديثة بحثاً عن تأصيل لفكرة ما، أو لنفي فكرة أخرى.

ونظن بأن من يبحث في أي موضوع من مواضيع الدين الإسلامي سواء في الفقه أو في الشريعة أو في السيرة أو في أي

فرع من فروع العلوم الدينية إلا ويصيبه مس كثير من التاريخ، رغم أن ذلك العهد لم يكن عهد تسجيل وأثار بقدر ما كان عهد تغيير وحركة، فلم يبق إلا القليل، ومُحي الكثير لعوامل متعددة ذكرنا بعضها سالفاً^(١).

والتاريخ أيضاً يربط الزمن بخيط واحد فلا يتفرق، فنجد الجذور ونصل الفروع، ونرتبط بها ارتباطاً كلياً، فنرى الجزئية في إطار من الشمول العام غير منفصلة عن الكيانات التي ترتبط بها وتمدها بمعناها.

وهنا سنركز أكثر على الفترة المحمدية باعتبارها أهم فترة في التاريخ الإسلامي وسبباً للانتصار الحادث فيما بعد، أو باعتبارها الخط الفاصل بين عصرين وعالمين، وإن أشرنا لبعض حوادث التاريخ بعد محمد، إنما سنشير إليها في تماسها بما قبلها وفي إطار الفكرة الرئيسية للكتاب، ولذا سنمر عليها دون أن نبثها تفصيلاً، فذلك يحتاج كتاباً أو كتاباً أخرى ربما يقدر لنا أن نكتب أحدها فيما بعد. بل إن اهتمامنا بتلك الفترة راجع لاعتبارنا أن أحداثاً تالية لها كانت امتداداً واستمراراً لنفس خطها العام، وفوق كل ذلك أنها الفترة الوحيدة التي لم يتم تناولها بالتحليل الموضوعي إلا في بعض الكتابات القليلة والتي كانت تتغاضى عن الانقطاع البين والنقص

(١) ذلك أن العرب كما هو معلوم كان لهم دواوين رسمية تحفظ سجلاتهم كديوان الحراج وديوان الرسائل وغيرها من الدواوين وتحفظ فيها الوثائق الرسمية ولكن التراث كله فقد في الكوارث التي مرت على العالم الإسلامي وفي الحروب الصليبية وغزوات المغول.. وبمصوص الوثائق في المصادر تعتبر لحد ما وثائق وذلك لفقدان الأصول وعدم وجود بديل عنها وهي مشتتة في بطون المصادر والرجوع إليها يتطلب الرجوع لعدد كبير من المراجع للإطلاع عليها والاستفادة منها «أنظر الوثائق السياسية والإدارية» محمد ماهر حمادة ص ١٠ - ١١.

الواضح في الأحداث، فلا تتجراً على الاستنتاج والاستقراء
والترجيح، ربما خوفاً من تلك الغابة من الموانع المفروضة على من
يلجأ الى الولوغ في أشواكها، فظل خوفها هذا نقطة ضعف كبرى
في كل مساهماتها في هذا الميدان.

وهذا الاستقراء والترجيح لن يعني أننا سنطلق العنان
لتصوراتنا، أو أننا سنبدأ بتصوير مسبق للأحداث فنضفي عليها ما
لا يحق لنا أن نضيفه، ونخلق أشياء في الوهم ما يحق لنا أن نخلقها،
ولكننا نعتقد أنه بدون سلاح النقد سنتجمد عند كتب السيرة
القديمة، فلا نضيف ولا نعمل العقول، وما الفائدة، إذن، من كتاب
جديد يقول القديم، والكل يعرف التاريخ ويلوك السيرة وربما يحفظها
عن ظهر قلب^{١٩}

وربما - دون قصد منا - لاننجو من تأثير إنفتاح الاستقراء بلا
لجام أحياناً، لأن كلمة «ربما» كثيراً ماتضعنا على طريق الاحتمالات
اللانهاية عندما يختفي أو ينعدم طريق التوقع.
فهل ننجح أن نكون قريبين من طريق الحقيقة؟.. ربما.
لكن ذلك لن يمنعنا من المغامرة.

(١) نظرة في التاريخ

مايهما في التاريخ هو منطقة الحجاز قبل منطقتي الهلال الخصيب وجنوب الجزيرة في اليمن، التابعتين إما للسيطرة البيزنطية أو الفارسية. أي تلك المنطقة الصحراوية الجغرافيا، المتناثرة السكان، المعزولة القرى والبلدان والواحات. ثم يزداد اهتمامنا أكثر بمكة بوصفها المركز السيادي لتلك المنطقة الفاحلة، وبوصفها بداية وأصل التاريخ الإسلامي من الدعوة حتى الفتح، وبوصفها كانت المؤهل لولادة وقيادة جديدة تحمل طابعاً مختلفاً عما كان قبلها، وتكون نتيجة لما يتمخض في رحمها من تناقضات.

وبالفتح الإسلامي تنتهي مرحلة وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع الفاصل لحل العضلات والتناقضات القديمة، آتية بشكل جديد من التناقضات

تم نهتم أكثر بتلك المرحلة من التاريخ السابقة مباشرة لظهور الدعوة الإسلامية، باعتبارها مرتبطة، ارتباطاً عضوياً بها، وباعتبار تلك اللحظة الفعالة والتي قد تحكم كل الزمن التاريخي للأحداث الهائلة التي مرت بها شبه جزيرة العرب

ونظرتنا لن تكون سردياً كسر الرواة ولا حكياً كحكايا القصاصين، لأن الروايات التي وصلتنا لم تسلم من الهوى والزوائد، وللأسف لم يترك لنا التاريخ نصوصاً مكتوبة بأي لغة سواء عن

التاريخ السابق مباشرة للإسلام أو حتى عن علاقة ما بسيرة الرسول سوى بعض الروايات المتأخرة العهد^(١)، «حتى القراطيس والألواح التي دُونَ كُتَاب الوحي عليها آيات الله، لم يبق منها شيء.. ونسخة القرآن التي كانت لدى حفصة بنت عمر بن الخطاب، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار، فلم يبق مذهب شيء كذلك. لم يبق أيضاً أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم، ومنها نسخ كُتبت في أيام الرسول، وأما ما يقال عن وجود نسخة أو نسخ مكتوبة بخط الإمام علي أو نسخة عثمان، فكلام يحتاج لدليل مقنع.... وأقدم ما وصل إلينا عن أيام الرسول مكتوب بالعربية التي نزل بها الوحي ويعود عهده إلى أيام العباسيين...»^(٢).

وبالطبع فإننا لن نذكر كل صغيرة وكبيرة في هذا التاريخ ولكننا سنضع خطوطاً، أو قل أننا سننبش فيما يهم موضوعنا بغض النظر عما قد يقوله البعض بأن رجل التاريخ يجب أن يكون مصوراً، واصفاً صادقاً، فهذا الكتاب ليس كتاباً في التاريخ بقدر ما هو استقراء مسافي هذا التاريخ من عناصر أمدت الدعوة الإسلامية بأصل نجاحها فالكل قد قرأوا عن تاريخ مكة وتنظيماتها وحياتها بالتفصيل الممل، والكل قد قرأوا عن حياة النبي وصحابته بما دُون في كتب

(١) روي عن عمر بن الخطاب قوله: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فهاج الإسلام فتشاغل عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزو قارس، ولنت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأن عرب الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يتلوا إلى ديوان معروف ولا كتاب مكتوب، وألقوا ذلك، وقد هلك العرب من هلك بالمدن والقتل فحفظوا أقل من ذلك وذهب عنهم الكثير» وما يقال هنا عن الشعر يقال عن التاريخ وأحداثه انظر السيوطي، «المزهر في علوم اللغة»

(٢) د. حواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص ١٥ - ١٦

السيرة، ولكن القليلين هم الذين أعملوا سلاح النقد في كل ذلك الركام الموروث.

هم مثلاً يقولون بأن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، هو الذي نقل مكة من حياتها البدائية الى حياتها المنظمة بعد أن تمكن من طرد قبيلة خزاعة صاحبة السيطرة إذ ذاك على مكة، فجمع قومه من الشعاب والجبال والمسالك وأسكنهم في مكة، أي أنه جمع قريشاً ووحد بطونها وعشائرها، ثم أنشأ مجلس «الملأ» و «دار الندوة» ونظم الحجابة والرفادة والسقاية والعمارة وشؤون الحرب، مما مكن مكة من السيطرة الدينية والتجارية على كل بلاد الجزيرة العربية.

وقد يكون نسب قصي مختللاً وقد يكون صحيحاً، فلا أحد يستطيع أن يجزم بأمر كهذا جزماً لأنه إنتقل إلينا مروياً عبر كتب التاريخ المتأخرة العهد. وقد يكون قصي هذا رجلاً داهية قوي الشخصية، عبقرى الإمكانيات في عصره، لكن الغريب أن يتم ذلك كله مرة واحدة وكأن الأمر قرار إتخذه ونفذه، فأقصى خزاعة من السيادة، وجمع كنانة من كل مكان وأسكنها بمكة، وصنع كل التنظيمات التي وجدت بمكة صنعاً، والتي كانت ضرورية لانتعاش حياتها الاقتصادية والدينية، مما يجعل الأمر مبالغاً فيه ويتنافى وطبيعة الأشياء.

حقاً، قد يكون دور قصي «نقطة تحول في حياة مكة»، لكن حياة مكة نفسها لا بد وأن تكون قد تطورت ونُظمت طبقاً لتغير دورها التاريخي رويداً رويداً، وشيئاً فشيئاً، بعد اكتشاف أنها كانت ملتقى أسهل الطرق لتجارة الشمال مع الجنوب، فأضاف هذا الإكتشاف لها أهميتها التي تنامت مع الأيام، ومعها تنامى وتغير نظام حياتها، فبعد

أن كانت الكعبة ملاذ عرب مكة، بدائية الإنشاء محلية الطابع،^(١) لابد وأنها احتاجت وقتاً طويلاً لتأخذ تلك المكانة التي أخذتها قبل الاسلام مباشرة، ولابد وأن الأنظمة التي سادت في مكة تلك السيادة، لم تستتبع رغبة فرد فصنعها بنفسه، وإنما احتاجت أيضاً رداً من الزمن لتكون ماكانت عليه. ومع تنامي تجارتها مع الشمال والجنوب، تغيرت وتبدلت الموازين والنظم، وإنضافت آلهة جديدة لم تكن موجودة بالكعبة، ودخلت آلهة القبائل البعيدة عن مكة الى مكة، وتغيرت سيادات أشخاص وقبائل، ونبتت قيادات جديدة، وتناقضت المصالح أكثر من ذي قبل، ولا بد وأن صراعاً طويلاً قد مر قبل أن تدوم السيادة لقريش.

وإذا كانت مكة تقع في منطقة قاحلة جرداء، فقيرة بلا زراعة أو صناعة فإن ذلك جعل حياتها في البداية بدائية الطابع تعتمد على الرعي وبعض الأمطار التي قد تتساقط، وبالتالي كانت ديانتها بدائية أيضاً وبسيطة بحكم بساطة الحياة نفسها، وربما عكس ما قيل بأن ديانة التوحيد (ملة ابراهيم) كانت موجودة حتى جاءت خزاعة فأنشأت عبادة الأصنام، لأن توحيد عدة آلهة في إله واحد أو صنم واحد، أو بالاعتقاد المجرد في هذا الإله، لاينتج الا عندما تكون حياة الناس قد تطورت بالقدر الكافي، فاخترت عزلة القبائل والعشائر في مراعيها أو حول المياه، فاندمجت وتجمعت واختلطت وتقاربت، ومعها تندمج وتتجمع وتقرب، بل وتتوحد عباداتها وآلهتها.

ولم تتطور الحياة الدينية لمكة إلا بعد أن دخلت عالم التجارة وأصبحت ممراً مهما لقوافل الشمال إلى الجنوب وقوافل الجنوب إلى

(١) (ربنا إني أسكت من دريتي مواد عيردي زرع، هاجل أفئدة من الناس تهوي إليهم) إبراهيم ٣٧.

الشمال، وليس قبل ذلك، وهذا لابد وأنه قد حدث بعد أن سيطرت الإمبراطورية البيزنطية على الحبشة وأطراف من أفريقيا، فمرت بقوافلها عبر تلك الطرق البرية القريبة من البحر الأحمر وفي مركزها مكة. وعندما اكتشفت مكة هذا الدور، دخلت اللعبة واستطاعت أن تستثمر تلك الميزة أقصى استثمار، فخرجت بقوافلها التجارية إلى الشمال والجنوب أيضاً، وأمنتها الدولة البيزنطية وأمنوا هم قوافل الأخيرة أيضاً، فانتعشت الحياة الاقتصادية وأنشئت أسواق جديدة، وراحت القبائل المنعزلة في واحاتها أو حول أبارها تدخل تلك الأسواق باحثة عن تبادل أو مقايضة، ولم لا تدخل هي أيضاً عالم التجارة، أو تستفيد بمهاجمة تلك القوافل المارة قريباً من أراضيها، أو من معاهدة حماية تؤمن لها رسوم مرور عبر طرقها؟^(١) وجذب العرب الى الأسواق فرضعت التماثيل وآلهة القبائل في الكعبة، ولما أصبحت كل الآلهة حول الكعبة، فلم لا يحج اليها العرب في موسم التجارة الكبير؟، وسادت حرية دينية إرتبطت بالمصلحة التجارية، فقبل بأنه قبل الفتح مباشرة كان بالكعبة وحدها أكثر من ثلثمائة وستين صنماً وتمثالاً بالإضافة الى الصور بما فيها تماثيل وصور المسيح والعذراء والملائكة والأنبياء لهؤلاء النصارى الذين كانوا يأتون للتجارة والتسوق أو هؤلاء الذين عاشوا في مكة أو قريباً منها^(١).

وصبغت التجارة شبه الجزيرة العربية كلها بصبغة واحدة، فقربت المسافات وطورت وسائل الاتصال والحركة وعقدت الأحلاف،

(١) أنظر حواد علي. تاريخ العرب في الإسلام ص ٥٨ (لقد كانت وثنية قريش وثنية متطورة تقبل كل تطور مادام التطور في حدود الوثنية وإطارها فعبادة مكة في هذا العهد عبادة شعفاء ووسطاء مقربين تتمثل في تماثيل وأصنام وصور وأوثان)

وتنازعت القبائل فيما قد تراه حقاً من حقوقها أو بحثاً عن مورد رزق،
ومع كل ذلك ازدادت التناقضات حدة

الأحلاف القبلية على أطراف الهلال الخصيب كانت تتفكك
بفعل الحروب الدائمة، وبفعل الصراع بين الفرس والروم متمثلاً في
دولتي المناذرة والغساسنة، وكانت الصراعات المستمرة في جنوب
الجزيرة مابين اليهودية والنصرانية ومابين الأحباش وأهل اليمن
عاملاً كبيراً في عدم استقرار تلك المنطقة، مما أتاح لمكة مركز
الصدارة على بلاد العرب كلها في القرن السادس الميلادي، نظراً
لبعدها عن دوامة تلك الصراعات.

واستطاعت التجارة أن تؤمن حياة إقتصادية مستقرة لمكة وما
حولها من البلاد، ولأن التجارة تحتاج شكلاً من أشكال الاستقرار
لمنح الأمان للقوافل، والبيع والشراء بحرية وحل مشكلة الحروب
القبلية الدائمة، إخترع العرب الأشهر الحرم كهدنة طويلة يلتقون
فيها أنفاسهم، فيمارسوا البيع والشراء بحرية، وليمارسوا الطقوس
الدينية أيضاً، فأصبح للحج دور كبير في تجميع القبائل في مكة.
وكان أهم الأسواق سوق «عكاظ» الواقع بين الطائف ومكة وينصب
في أول ذي القعدة حتى العشرين منه. ثم يتوجه العرب الى سوق
«ذى المجنة» حتى نهاية ذي القعدة، ثم سوق «ذى المجان» من أول
ذي الحجة الى الثامن منه، ثم يذهب الناس الى مكة لأداء فريضة
الحج.

واستتبعت إنتعاش الحياة التجارية والدينية في مكة إنتعاش
الحياة الإجتماعية والثقافية، فأصبحت أهم مدينة «سياحية» حينئذ،
فامتلات بدور اللهو ومنازل «ذوات الرايات» وأجبرت الجوّاري على
البغاء، وأتاها الكل من كل لون ولهجة ولسان. وهناك أيضاً كانت تُعقد
اللقاءات وتُحل المشاكل المستعصية بين القبائل، وتقدّم الاتاوات

المفروضة على البعض طبقاً لتوازن القوى وقوانينها، فأصبحت مكة أيضاً داراً للقضاء وداراً «للدبلوماسية» القبلية - أن جاز التعبير - . وما إن تهدأ الحالة، وترجع القبائل الى مستقراتها البعيدة والقريبة لتواجه نفس الظروف الصعبة من قحط وجوع وضيق في الرزق، فتعود دورة الحروب القبلية من جديد، وما إن تبدأ، فلا تنتهي، وتدور الدورة على المهزوم أو المنتصر. ويضاف الى الصراع على الموارد المحدودة عوامل كثيرة كالثأر والفخر والمنافسة والغلبة والأنفة، أو كما يقول ابن خلدون عنهم «هم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة، والأنفة ويُبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم»^(١). وغدا «الاعتداء» يكتسب شرعيته من حالة الإقتتال المستمرة والدائمة.

والحروب القبلية تلك يمكن أن نسميها مناوشات متقطعة بلغة العصر الحديث فلم تكن المعارك تنتهي أبداً بسحق طرف سحقا نهائياً للطرف الآخر، بل تبدأ بهجوم مفاجيء فتفرجموع القبيلة المهزومة ليجمع الفازون غنائمهم ويرحلون، ليعود الفارون إلى مواقعهم مرة ثانية بينون من جديد ويجهزون للانتقام، ومعظم المعارك التي سمعنا عنها تحمل نفس النمط، حتى تلك الغزوات الأولى التي تمت بعد الإسلام صبغت بنفس صبغة الحروب القبلية تلك في شكلها، كمعركة بدر وأُحُد وغيرهما. أي هجوم بلا احتلال سوى احتلال وقتي للمواقع ثم الرحيل. ولعل كثرة الحصون في قرى الحجاز كانت تعبر أصدق تعبير عن حالة الحرب تلك.

لكن تلك الحروب كانت تختلف كثيراً عن حروب الدول المركزية ذات الجيوش الضخمة، والتي تحتل فيها المواقع لفترة زمنية طويلة

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٥١

أو قصيرة، طويلة بأن يسكن المحتلون الأراضي ويسخرون أهلها لمصلحتهم وقصيرة حتى يتم التأمين الكامل لحدود تلك الدولة من الهجمات الخارجية، أو بأن يهزم هذا الجيش على يد القوات الداخلية للبلد المحتل

ولم تتغير طبيعة تلك الحروب القبلية الا بعد انتصار الاسلام وظهور بؤادر دولة إسلامية أخذة في التكون بجيشها ومؤسساتها، فالنقبة القبلية لم تكن «جيشا» بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة، وانما هو (جيش) يجمع ساعة الحرب من متطوعين أو من أفراد القبيلة، وكانت القيادة والإمارة تختار من شجعان القبيلة وسادتها، وفي مكة مثلاً إرتبط بهذه النظم الحربية عدة شعارات أهمها «القبّة» وكانوا يضربونها عند الخروج للقتال ويجمعون فيها حاجة الجيش من الأسلحة والعتاد^(١).

بينما يتحول المحاربون في الدول المركزية إلى عسكريين متخصصين يأخذون أجورهم من بيوت المال ووظيفتهم الأساسية هي الحرب.

وبالطبع فان تلك الحرب القبلية لم تكن بسبب الغلظة والأنفة العربية، وإنما فرضتها الحياة في الصحراء فرضاً. فرضتها حياة الجذب والقطط والصراع على مواطن الرزق والمياه، وفرضتها الرغبة في السيادة والمنافسة من أجل السلطة، ثم ولأنها كانت شيئاً متكرراً في حياة العرب، تلاها الإنتقام كرد فعل، واستتبعها الفعل كرد للإنتقام. فيُروى مثلاً أن قبيلتي «كلب» و «السكون» تنازعتا على سيادة سوق دومة الجندل في شمال نجد والحجاز، مما أدى بعد حروب طويلة الى تبادل السيطرة على السوق بين شيوخ القبيلتين

(١) د. ابراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ح ١. ص ٧٧

المتنافستين، ويكون للغالب الحق في اخراج القبيلة المغلوبة منه والتحكم في البيع والشراء وجباية العتور.

وقيل الكثير عن حروب طويلة كحرب البسوس أو داحس والغبراء، وقد رُوي عن الأخيرة أنها استمرت أربعين سنة، ورُوي أن سببها كان سباقاً بين فرسين هما داحس والغبراء، لقيس بن زهير بن جذيمة سيد بني عبس، وحذيفة رئيس بني بدر وفرسائه الخطار والخنفاء.^(١) وسواء كانت تلك الروايات حقيقية أو مختلفة، إلا أنها كانت تعكس الحالة التي كانت تعيشها القبائل العربية من صراع دموي طويل لا يهدأ إلا ويشتع، ولا يشتعل إلا ويهدأ، وهكذا كانت تدور المعارك في حلقة مفرغة ومعها تتوه الحدود بين المعتدي والمعتدى عليه، ويتنامى الفخر بالأنساب وبالبطولة والفروسية وتلك القيم التي ترتبط عادة بمثل هذا النوع من الحروب.

ورغم أن الشهور الحرم قد اخترعت لئتمالك العرب أنفاسهم، إلا أنها قد انتهكت، وبسبب ذلك الانتهاك قامت حروب مضادة مثل تلك التي سميت بحرب «الفجار» وصارت بين قريش وكنانة وقيس عيلان، وروي أن سببها كان التنافس على حماية القوافل التجارية المعروفة باللطيمة (قوافل العطور) وكان النعمان بن المنذر ملك الحيرة يرسلها الى سوق عكاظ في كل عام في جوار رجل شريف من أشرف العرب يحميها حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها بضائع أو ما يحتاج اليه. وروي أن النبي قد اشترك في هذه الحرب وهو ابن أربع عشرة سنة وكان يناول عمومته من بني هاشم النبل.^(٢)

واخترقت قريش نفسها تلك الهدنة كثيراً فغيرت من مواقع

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ. ج ١. ص ٥٧٧.

(٢) نفس المرجع. ج ١. ص ٥٩٣.

الأشهر الحرم من السنة بما يُعرف (بالنسيء)^(١) لأن الظروف كانت كثيراً ماتحتم على قبيلة من القبائل أن تتحاييل على التحالفات والتقاليد بحثاً عن فرصة أو مغنم، أو ردعاً لمخالف، بل ان الرسول نفسه حارب في الأشهر الحرم رداً على عدوان أو كسباً لقوة في لحظة تاريخية لاتدوم^(٢)

وفرضت حياة العزلة والقتال الدائم على الروح القبلية عدم التجانس والتعاون والعداء المستعر، وقد عبر القرآن عن ذلك في سورة آل عمران ١٠٣ ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾. فإذا أضفنا الى الطبيعة القاسية والأوبئة الفتاكة والحياة الصعبة وقلة المياه وموارد الرزق، الحروب القبلية، يمكن أن نتخيل الى أي حد كانت عناصر الهدم داخل شبه الجزيرة وخاصة الحجاز قوية.

ومن هنا لم يكن لأهل الحجاز والبيوادي مخرج سوى الإتصال ببلاد الأنهار في اليمن وفي الهلال الخصيب، أو أبعد من ذلك في بلاد فارس والهند والحبشة ومصر، ذلك الاتصال الذي جلب جزءاً من خيرات تلك البلاد، فأمد قبائل الصحراء العربية بعناصر البناء في مواجهة عناصر الهدم السابقة، والتي بدونها يمكن أن نتخيل فناء تلك القبائل حول مراعيها أو في صراعها المستمر مع بعضها البعض أو مع الطبيعة الفتاكة حولها، ولذا كان للتجارة ذلك الدور الحيوي في الإبقاء على مسيرة التاريخ العربي حية رغم عوامل الهدم تلك، وبهذه التجارة إنتعشت مكة واحتلت دورها المركزي في الحجاز وبلاد

(١) (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كبروا يحلوه عاماً ويحرموه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم.. الآية
(٢) (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل فيه قتال كبير وصدد عن سبيل الله وكفره والمسجد الحرام وإخراجه أهله أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) البقرة ٢١٧.

العرب، وبمكة انتعشت التجارة والحياة الدينية وتداخلت السلطة السياسية مع الاقتصادية والدينية، ومع الزمن شكلت وحدة عضوية كان من الصعب فصلها. وسيادة مكة تلك لم تكن سيادة دولة على أنحاء تلك الدولة ولاسيادة دولة على غيرها من الدول، ولكنها كانت مركزاً سيادياً من الناحية الاقتصادية والعقائدية، فصارت جنيئاً لهذه العاصمة الدينية فيما بعد، وبسبب ذلك بدأ الصراع فيها وانتهى عندها لتبدأ صياغة «قومية» إسلامية جديدة، نقلت الجزيرة من حالتها القبائلية الى حالة الدولة المركزية.

برزت مكة، اذن، على بلاد العرب بالتجارة، ومع الأيام برز دور بني أمية في مكة نفسها، بالسيطرة على التجارة والثروة، ثم آل اليهم اللواء وقيادة الركب في القتال، أي بمعنى آخر التحكم في أهم عنصرين حَكَمَاً ويحكمان الناس على مر العصور، وهما المال والقوة. وارتبط تركيز السلطة في مكة بتكون أرستقراطية قرشية غاية في الغنى والمنعة، مع التحكم شبة التام في الحياة التجارية لمكة ولعرب الحجاز، وكلما ازدادت غنى، إزدادت التناقضات حدة وسط أغلبية فقيرة تعتمد في حياتها على ما تلقيه اليها الأرستقراطية المكية من فتات.

ونستطيع أن نرى ببساطة الى أي حد وصل غنى تلك الأقلية وفقر تلك الأغلبية، بأخذ قافلة مكة (التي سببت موقعة بدر) كنموذج، فقد اتفقت الروايات على أنه كان بهذه القافلة مايزاني خمسين ألف دينار (ذهباً) حملها حوالي ألفين وخمسمائة بعير، وكان يحرسها مايقارب الثلاثمائة رجل يضاف اليهم عدد آخر ينضم عند الحاجة. وهذا الرقم المذكور يعتبر ضخماً جداً بمقاييس ذلك العصر لا بالنسبة لمكة وحدها وانما بالنسبة لكل بلاد العرب. وفي تحليل هذه القافلة ذكر أن فرع (أبي أحيحة) من عائلة سعيد بن العاص الأموي ساهم

بثلاثين ألف دينار، أي مايوآزي ٦٠ بالمئة من هذه القافلة، وذكر أن بقية بني أمية ساهموا بعشرة آلاف دينار، أي مايوآزي ٢٠ بالمئة، وأن بقية أهل مكة ساهموا بالعشرة آلاف الأخيرة، أي مايوآزي ٢٠ بالمئة أيضاً فان قلنا بأن هذه القافلة لم تكن الا انعكاسا للتقسيمة الاجتماعية داخل مكة، بمعنى أن عائلة واحدة هي (بنو أحيحة) كانت تمتلك حوالي ٦٠ بالمئة من ثروة مكة، وأن بقية البيت الأموي يملك ٢٠ بالمئة من ثروة مكة، أي أن البيت الأموي كان يمتلك مايقرب من ٨٠ بالمئة من هذه الثروة، وبقية أهل مكة يملكون مايقارب العشرين بالمئة الأخيرة، بما في هذا التقسيم من إجمال قد يغفل تفاصيل التناقضات من غنى فاحش لأقلية وفقر رهيب للأغلبية، فان قلنا ذلك فسنكون أقرب للحقيقة أو في قلبها تماماً. وقد حدثنا القرآن نفسه عن هؤلاء الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية إملاق وحاجة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ الأنعام ١٥١ فلك أن تتصور حينئذ بشاعة الفقر الذي يجبر أباً على قتل أولاده أو واد بناته.

كانت التقسيمة الطبقيّة في مكة ترتبط، إذن، بارسنقراطية مالية بالغة الثراء، يليها أثرياء متوسطو الثراء، إرتبطوا أيضاً بالتجارة، وتجار صغار لم يكونوا أثرياء، وانما عاشوا على هامش الحياة التجارية، فتاجروا بأموالهم وبأموال غيرهم أو بالاستدانة، ومارسوا مهناً أخرى دينية إستفادت من الكعبة كبني هاشم، وارتبطت مكانتهم ومنزلتهم بالحياة الدينية من خدمة الحجيج وخلافه، أكثر من ارتباطها بالثروة كبني أمية، ثم أغلبية كبيرة من الفقراء المحرومين والعبيد والرعاة تلقفوا عيشهم وسط ذلك الجو التجاري والديني وعلى هامشه بممارسة حرفة أو العمل كحراس للقوافل أو البيع والشراء أو في الحوانيت والورشات، أو في بعض المهن ذات الطابع المؤقت والتي قد ترتبط بموسم الحج. الخ.

ومن هنا أخذت التناقضات في مكة عدة مستويات..

أولاً. مستوى عاماً.

فيما يسمى بلغة العصر الحديث «التناقضات الطبقية» ما بين أقلية غنية متعجرفة، وأغلبية محرومة مهانة ينهش قلبها الحقد والحسد كرد فعل طبيعي عن حالة الحرمان التي تعانيها

ثانياً: مستويات خاصة:

١ - منها طبيعة التناقضات القبلية والعائلية والتي ارتبطت بالتناقض العام وتلاحمت معه. فالحياة في مكة كانت قائمة على العصبية القبلية، فقد قسمت الى شعاب، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة تحكمها الأسر، وبين الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ، مثل النزاع على الرئاسة في مكة بين بني هاشم وبني أمية، وقد انعكس هذا النزاع فيما بعد الاسلام في انفجار الصراع على الخلافة، وقد روي أن جعفر قال: «سألت عما عنده في أمر علي وعثمان فقال هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسد محمداً وحاربه..»^(١)

ولم تكن في مكة حكومة مركزية ولا ملك ولا تاج ولا عرش ولا رئيس واحد ولا جيش ولا سجن ولا حاكم مدني أو عسكري.. فاحتلت العادة والعرف دور القانون في حياة الناس، وخلق هذا الوضع نوعاً من الحرية الجزئية في مواجهة سطوة الأقلية الثرية، فاحتفى الفقراء بأسرهم وقبائلهم وتاريخهم وأنسابهم، ولعل حماية بني هاشم للنبي ومؤازرته رغم عدم أتباعه كان يحمل طابعاً قبلياً رغم تعرضهم

(١) انظر حواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص ٦٩.

للحصار الاقتصادي داخل شعبهم في مكة، كما تتفق أغلب الروايات. ٢ - ومنها تناقضات الصراع على السيادة سواء الدينية أو الاقتصادية والاجتماعية، وكان هذا الصراع بين القبائل القوية ذات التاريخ القديم أو ما بين أعضاء الأسرة الواحدة، أو دخول جيل جديد متحمس تلك الساحة فلم يرضَ بالسيادة القديمة التي شاخت، وكان هذا الجيل من هؤلاء الشباب المتحمسين الذين دخلوا عالم التجارة وكونوا ثروة لاتطول ثروة الارستقراطية القرشية، فحلّموا بمطاولتها أو الوقوف بجانبها، ودخلوا في عالم من المنافسة غير المتكافئة بين غيلان يسيطرون على كل شيء وبين صغار مفروض عليهم أن يظلوا تابعين الى الأبد، وكان هذا الجيل أكثر وعياً، فتلاحم مع الخارج وجاب البلدان وتعلم، فصار لايقرب بالسيادة للاقلية التي رضت بوضعها ورضي وضعها بها. ولعل انخراط كثيرين من هذا الجيل في الإسلام كان انعكاساً لوضعيتهم (المتوسطة) داخل التقسيمة الاجتماعية في مكة.

٣ - ومنها التناقضات الدينية التي كانت تعتمل ما بين الوثنية والحنيفية واليهودية والنصرانية، ولكنها لم تبرز على السطح بفعل الحرية الدينية التي أتاحتها الكعبة بحثاً عن إرضاء القبائل العربية سواء الوثنية أو غيرها، بما لها من انعكاس على استقرار الحياة الاقتصادية لأهل مكة، فلم تهاجم مكة - رغم وثنيته - النصارى بل وضعت صور العذراء والمسيح والملائكة وتمائيلهم في جملة التماثيل داخل الكعبة.^(١) وكان اليهود يعلمون أولادهم أصول عقائدهم في

(١) يقول جواد علي في «تاريخ العرب»، «... حتى صار البيت متحفاً أو مخزناً تُكَدَّس فيه التماثيل بما فيها الصور المستوردة من الشام ومن أصل نصراني يمثل القديسين والانباء والملائكة فتحوّلت في مكة إلى أوثان معسودة إختص كل واحد منها أو كل =

مدارس خاصة بهم، والأحناف الذين لم يدخلوا يهودية أو نصرانية ولم يقبلوا الأوثان، فاعتزلوا قومهم وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وحياة الجاهليين الصاخبة. ولذا كانت الحياة الدينية داخل بلاد العرب خصبة بما يموج في كل منها من أفكار وأفكار مضادة وجدل دائم وألهة كثيرة، فتهود بعض العرب وتنصر البعض الآخر، واعتزل البعض الثالث، ورضي البعض الرابع بما عرفه من ألوهة، لكن الحياة الوثنية كانت هي الغالبة على الفكر الديني لمعظم القبائل العربية في بلاد الحجاز. أما ذلك الجدل الدائر فكان يُستوعبُ دائماً في إطار النظم السائدة ولم يصل أبداً لحالة ما يسمى بالصراع الديني الا فيما بعد بتصميم محمد على الانتصار، لأن ذلك الجدل القديم لم يمس المصالح الأساسية لنظام مكة ومن تبعها من القبائل، بل إن دعوة محمد نفسها لم تعامل بجدية من سادة قريش الا عندما قويت وتكونت لها أسنان قادرة على أن تعض في ذلك النظام نفسه.

يقول طه حسين مشيراً الى الحياة الدينية عند العرب: «وكان اليهود قد تعرّبوا حقاً، وكان كثير من العرب قد تهوّدوا، وليس من شك عندي في أن الاختلاط بين اليهود وبين الأوس والخزرج قد أعدّ هاتين القبيلتين للدين الجديد وتأييد صاحبه».. ويقول أيضاً: «تغلّغت النصرانية إذن، كما تغلّغت اليهودية في بلاد العرب، وأكبر الظن أن الاسلام لو لم يظهر لانتهى الأمر بالعرب إلى اعتناق إحدى هاتين الديانتين، ولكن الأمة العربية كان لها مزاجها الخاص

= مجموع قبيلة إذا جاءوا إلى مكة توجهوا لتحيتها ورؤياها وقد كان تمثال المسيح ومريم في العمود الذي يلي الباب. وقيل إن كل الصور أزيلت في فتح مكة ماعداً صورتي المسيح ومريم بقيتا حتى حريق الكعبة أيام الزبير

الذى لم يستقم لهذين الدينين، واستتبع ديناً جديداً أقل مايوصف بأنه ملائم لملاءمة تامة لطبيعة الأمة العربية». (١)

ونعتقد بأن المزاج الخاص والطبيعة العربية - في رأينا - ليس العامل الأول، بقدر مالعوامل السياسية والعسكرية والتاريخية والاقتصادية من دور، فلقد انتصر محمد قبل أن يفيق العرب بقوة إمكانياته السياسية والفكرية، وداهم مكة وداهم القبائل قبل أن تمتلك وسائل قوتها، وقد أثار محمد في نفوس العرب أحلاماً قومية ماكان لعدة أديان وعدة آلهة أن تثيرها، وحرك كوامن انتماء أرحب بكثير من الإنتماء القبلي المتخلف، وسنعالج هذا الأمر تفصيلاً فيما بعد. ونرى أيضاً مع طه حسين أهمية تواجد عقيدتي التوحيد على أرض العرب لفترة طويلة مما مهد الأرضية لتقبل الإسلام باعتباره إستمراراً لهذين الدينين، والخلاف بين الإسلام وبينهما لم يكن جذرياً وإنما كان فيما فرضته ظروف الصراع الجديدة «والطبيعة» العربية - إن صحَّ القول - ورغم ما في كلمة «الطبيعة» من غموض يحتاج إلى إيضاح. وربما كان طه حسين يقصد بها طابع الظروف القبلية والصحراوية التي انعكست على تركيبة البشر حينذاك وتصرفاتهم وعلاقاتهم.

وأتاح تلك الحياة الدينية المتعددة الوجوه إمكانية نشر ثقافات توحيدية، وتكوين جماعات رافضة للوثنية، مع ذلك الوعي الذي أكسبته الرحلات التجارية للذاهبين من مكة والقادمين إليها والإختلاط بالشعوب الأخرى ومعرفة لغاتها وعاداتها، أضفى على مكة طابعاً حضارياً متميزاً رغم حدة التناقضات التي تنخر فيها، ولذا

(١) في الأدب الجاهلي. ص ١٤٧ - ١٤٨.

قد يفهم بسهولة لماذا نبعت دعوة محمد من مكة ولم تنبع من وسط قبيلة أخرى من القبائل المتناثرة في الحجاز

وليس معنى هذا أن الحياة الثقافية في الحجاز كانت حياة كتابة وتسجيل، وإنما كانت الصفة الغالبة على الثقافة هي الشفهية، والمكتوب كان محدوداً، ولم تترك أي آثار أو نقوش مكتوبة قد وصلتنا حتى الآن، ونعتقد أن تلك الكتابات والنقوش القليلة التي ربما كانت موجودة قد مُحيت وأزيلت تماماً لتبقي للإسلام السيطرة التامة على الأفكار. وقد رُوي عن عمر بن الخطاب مثلاً أنه كان يمنع المسلمين من نسخ كتب أهل الكتاب، فيشتد على مسلم لأنه نسخ كتاب «دانيال»، ويستجلب رجلاً آخر من الكوفة بلغه أنه يطلب كتب «دانيال»، فاشتد عليه وضربه، وذلك عملاً بموقف حدث له مع النبي، بعد أن مرَّ برجل يقرأ كتاباً، فاستمعه فاستحسنه فقال له: أكتب لي من هذا الكتاب، واشترى أديماً فهباه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه، ثم أتى النبي فجعل يقرأ عليه وجعل وجه الرسول يتلون، فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال: تكلتك أمك يا ابن الخطاب، أما ترى وجه رسول الله منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب؟! فقال النبي عن ذلك: إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر الحديث لي اختصاراً، فلا يهلككم المتهاونون (أي الواقعون في الأمر بغير روية).^(١)

ومع سيادة مكة، سادت لغة قريش وعرفت القبائل العربية

(١) انظر التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب إسماعيل بن حسن ص ٢٠، ١٩. (ويُروى أيضاً عن عمر بن الخطاب أنه ضرب رجلاً من الكوفة يُدعى «صبيغ» بالجريد حتى أدمى رأسه، وحمله على الإبل وطاف به في العشائر والقبائل وبودي عليه، لمجرد أنه جاء يسأل عن أشياء في القرآن قيل الممتشابه فيه، وقيل أنه أقبل على علم الكلام!!)

بحكم اتصالها بمكة وتبادل حاجاتها ومنافعها، أو كما يقول طه حسين: «نحن إن فكرنا، عرفنا أن سيادة اللغات إنما تتصل عادة بالسيادة السياسية والإقتصادية. لغة قريش إذن هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والإقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش».^(١)

٤ - ومنها تناقضات العلاقة ما بين أصحاب الثروة والسلطة وما بين المتغيرات الطارئة والجديدة على حياة شبه الجزيرة. ولنفهم هذا الأمر جيداً علينا أن نضرب مثلاً بسيطاً. إذا كان هناك جيش ما من الجيوش القديمة، أسلحته السيوف والحراب والخيول، فلا بد وأن تكون العلاقات داخل هذا الجيش منظمه بالقدر الذي يعطيه الفعالية في الحرب سواء بالنسبة للقيادة وتوزيع الجند والأسلحة، وخطط المعارك وتكتيكها وأهدافها، وطرق القتال، أما إذا دخلت الجيش أسلحة جديدة كالمدافع والدبابات والطائرات والصواريخ، فإن كل شيء يتغير تغيراً جذرياً وعلى جميع المستويات التنظيمية، وعلى مستوى آلية الحروب وتختفي القوة البدنية بشكل ما لتحل محلها القوة العقلية والعلمية، وتختفي الخيول لتحل محلها العربات أو الطائرات، وبدلاً من مراعيها وورشات الحدادة وصناعة الأسلحة البدائية، تبني المصانع الضخمة وتستخدم العقول الإلكترونية، وتظهر الأكاديميات العسكرية والمدارس ويتعلم الجند الرياضيات والفيزياء... الخ.

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ١٠٨، ١٠٧.

فإن كانت قوى الجيش تتغير، فلا بد وأن تتغير العلاقات داخل هذا الجيش، أو بمعنى أصح ما يطلق عليه الإقتصاديون (التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج)، فقوى الإنتاج في تطورها تتطلب علاقات جديدة كضرورة لاستمرار هذا التطور، فإن ظلت هذه العلاقات على حالها القديم رغم وصول قوى الإنتاج لمرحلة تستوجب التغيير فإن صراعاً قوياً قد ينشأ داخل المجتمع لتغيير هذه العلاقات سواء بشكل تدريجي أو عن طريق الثورات.

وهكذا وصلت الأوضاع في مكة للدرجة التي يمكن أن يقال بأن سادة مكة كانوا يركبون بغلاً في قيادة معركة حربية حديثة، أو كذلك الفلاح الذي يجر (تراكتوراً) أو محراثاً آلياً ببقرته إن جاز التعبير. كيف لا نفهم هذا الأمر، علينا أن ندرس باختصار الظروف المحيطة بأرض الحجاز.

كانت أجزاء كبيرة من العالم القديم قد حسمت فيها مسألة الدولة المركزية، سواء عبر صراعاتها الداخلية أو عبر الغزو الخارجي أو عبر الإثنين، وفي شمال جزيرة العرب تكونت دولتان تابعتان للروم والفرس، الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة، وانعكس الصراع بين الإمبراطوريتين على الحروب المتواصلة بين الدولتين، وفي جنوب شبه الجزيرة، تكونت دولة في اليمن تهودت حيناً وتنصرت حيناً آخر حتى خضعت للسيطرة البيزنطية عبر احتلال الأحباش لليمن. وظلت الصحراوات العربية مابين الشمال والجنوب بكرة، لم يستطع أحد أن يغزوها أو يحتويها. ففي التاريخ القديم يروى أن الإسكندر الأكبر حاول السيطرة عليها فلم يفلح أسطوله، فظل رابضاً والتف حول السواحل الغربية. ثم حاول القيصر أوغسطس السيطرة عليها أيضاً للاتصال باليمن والمحيط الهندي، أي السيطرة على طرق التجارة البحرية بجانب الطرق

البحرية، ولم يفلح هو الآخر. وحاول أبرهة، فمات جيشه من وباء إنتشر خلال مسيرته نحو مكة، وكانت تجربته من التجارب المرة في ذكريات محاولي الغزو.

وروى أيضاً أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى المعروف بالبطريق، كتب له قيصر عهداً وختمه بالذهب، لملك مكة - وقيل أنه تنصر - وقال لأهل مكة (يا قوم، إن قيصر قد علمتم وأمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه وقد ملكني عليكم، وأنا ابن عمكم وأحدكم، فأخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم أذهب إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه)^(١)، وحكي أنه قُتل بعد رفضهم لمشروعه.

وبالطبع فإن فشل كل تلك المحاولات ليس بسبب شجاعة أهل الحجاز، وإنما كان سبب فشلها هو ظروف الجزيرة القاحلة والصحراء الواسعة المتناثرة السكون، ونضوب موارد الثروة وصعوبة السيطرة الدائمة على قبائل منعزلة ووحدات متفرقة، مما يشكل مغامرة بلا مكسب حقيقي. ثم إن وجود بديل عن طرق القوافل البرية بالطرق البحرية سواء في البحر الأحمر أو الخليج، جعل كل هذه المحاولات لاتأخذ طابعاً جدياً للسيطرة على بلاد الحجاز، فاكثفوا بالسيطرة على الشمال والجنوب وعقدوا بعض المعاهدات ذات المنفعة المتبادلة في تأمين قوافل الطرفين. وبفرض نجاح محاولات الدولة البيزنطية في السيطرة على مكة وغرب شبه جزيرة العرب، لكان من الممكن تغلغل النصرانية بشكل أكبر عما كانت عليه، أو ربما تنصّر العرب بشكل كامل.

(١) العقاد العبقريات الإسلامية. ص ١٣٠

هذه هي الصورة المحيطة بجزيرة العرب، أما الصورة داخل مكة كما ذكرنا من قبل كانت قد وصلت الى مرحلة التناقض الذي يستدعي الحل. فالثروة قد تضخمت لدرجة هائلة في أيدي عدة أفراد استفادوا لأقصى درجة مما وصلت إليه الحالة في مكة، واستطاعوا أن يمتدوا بثروتهم خارجها فاشتروا المزارع في الطائف، وتاجروا في العبيد واشتغلوا بالربا، وكانت ثروتهم الهائلة تعني بالبديهة رغبة أكبر في الإستثمار خارج حدود القوافل التجارية، فتصطدم دائماً بحائظ ظروف الجزيرة العربية القاحلة. الثروة تبحث دائماً عن مصادر لتنميتها، وأموال بهذا الحجم الذي ذكر، لا بد وأنها كانت تبحث عن مخرج بدلاً من أن تكنز لقوافل تالية غير مأمونة تماماً، وأرض الحجاز محدودة المياه محدودة المزارع، عدا بعض الواحات في يثرب والطائف وحول آبار المياه. سيطروا على الطائف، أما المدينة فقد سيطر عليها اليهود والأوس والخزرج.

المشكلة هنا أن هذا المال المتضخم بفعل تريخ التجارة الطويل لم تُعدْ دورته بشكل أساسي إلا في التجارة، وذلك بسبب قصور وسائل الإنتاج الأخرى كالزراعة والصناعة.. فهل كل هذه الثروة كانت تخزن وتكنز حتى تحين مواعيد رحلتي الشتاء والصيف؟! وهل كانت أساليب الإستثمار الأخرى في أرض الحجاز كافية لاستيعاب جزء كاف من هذه الثروة؟! ونظن أن أساليب الإستثمار الأخرى لم تكن كافية لاستيعاب كل هذه الأموال وبالتالي كانت تكنز، وقد أشار القرآن الى ذلك بشكل عام ﴿..والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ التوبة ٣٤.

يدخل عائق آخر في استثمار تلك الأموال في أماكن بعيدة عن مكة، وهو الحالة القبلية السائدة، والعزلة المفروضة على البلدان بما تشكله من وحدات مستقلة بقيائنها وعشائرها ووسائل حياتها.

وبفرض أن هذا العائق كان محدوداً، بمعنى وجود طرق واسعة وكثيرة تقلل من حالة العزلة، وبمعنى وجود تاريخ توحيدى بسبب نهر ممتد أو غزو أو حروب سيطرة، فإن أموالاً كتلك التي تجمعت كان ولا بد لها أن تجد وسائل استثمار فعالة ومجدية^(١). لكن هذا لم يحدث، وظلت القبائل تنظر الى تلك الثروة المتدفقة الى مكة بعين الحسد والحقد مرة وبشبهة مرة أخرى وهنا يبدو التناقض جلياً. فمكة كانت في حاجة للقبائل، والقبائل كانت في حاجة الى مكة. كانت مكة في حاجة إليهم في مجيئهم إليها وكانت تضمن ذلك بحكم التاريخ. وكانت في حاجة إليهم بأن تجد عندهم مخرجاً لحالة ركود أموالهم المقدسة، ولكن ذلك كان يحتاج بناء طرق وحفر آبار والسيطرة على الصراعات القبلية الدائمة، بل وخوض حروب طويلة من أجل قهر القبائل وضمها تحت جناحها، واستخدام القوى البشرية المعطلة بفعل بدائية وسائل الإنتاج، وتطوير تلك الوسائل. لكن ذلك لم يحدث، لأن أرسقراطية مكة ألت إليها الثروة عبر التجارة والوراثة، وكانت حياة الاستقرار النسبي من نظم وحراسة وأحلاف تؤمن لحد كبير سلامتها، فلم يكن أرسقراطيو مكة مغامرين بل كانوا محافظين رجعيين، فتجمدوا عند التجارة واكتناز الذهب

(١) (إن الوجود المحض للثروة النقدية، بل وحتى انتزاعها لسوء من مركز الهيمنة ليس كافياً لكي ينتج عن هذا التحلل رأسمال، فلو كان كذلك لكانت روما القديمة وببرطة قد ختمتا تاريخهما بالعمل الحر ورأسمال، ولكاننا قد دخلنا تاريخاً جديداً) «انظر الاشكال الاقتصادية مقابل الرأسمالية ماركس النص الإنجليزي ص ١١٠.» (ملكي) تكون الثروة رأسمالاً فإنها تحتاج دائماً أن تكون قوة العمل سلعة وهذا لم يحدث نظراً لأن المورد الرئيسي للثروة في مكة كان التجارة أي التعامل مع الخارج حيث لم تكن البنى الإنتاجية التحتية في مكة كافية لاستخدام قوة العمل أو أدوات إستخداماً مؤثراً). (انظر أيضاً كتاب في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج أحمد صادق سعد - ص ٩٨).

والفضة، وشراء بعض الاستراحات خارج مكة، ولم يعتمد نكُون تلك الثروة على شراء قوة العمل وتطوير أدواتها، بل اعتمد على نمو تجاري لم يرتبط ببيئة إنتاجية داخل مكة. وإن كان الحج قد أضاف لمكة ثروة (عربية) إلا أنه ارتبط ارتباطاً كلياً بعملية التجارة المعتمدة في نموها على الرحلات الى خارج أرض الحجاز.

وكانت القبائل في حاجة الى مكة بحثاً عن استقرار لحياتها وموارد رزقها الوقتية الضئيلة، وبحثاً عن تنمية تلك الموارد بما يؤمن لها بعض الاستقرار المعيشي، لكن ذلك كان يحتاج ناساً غير سادة مكة، وقد كانت وضعيتها تطرح «لغة قومية»، لكن ساداتها تقوقعوا داخل خزائنهم.

وكان شعب مكة نفسه يحتاج استثمار تلك الثروة بشكل عادل فيؤمن نفسه من غائلة أيام الصحراء، وبالطبع فإن ذلك الاستثمار سيتيح فرص عمل جديدة وثابتة لهؤلاء الذين لا يجدون العمل إلا وقتياً..

وكما قلنا، فإن التجارة قد صبغت الحجاز صبغة واحدة، فقربت الأفكار، وأصبح الاختلاط سبباً في تقريب اللهجات وتوحيد اللغة والثقافة والدين والعادات. لكن الحالة القبلية ظلت على حالها، لا تتغير ولا أمل في تغييرها

كان أمام سادة مكة إذن، أن يحكموا الجزيرة العربية كلها ويغيروا حالتها القبلية إلى حالة «قومية» كانت جذورها قد أخذت في التشكل بفعل توحيد الدين حول الكعبة، وبفعل التجارة، لكنهم ظلوا على وضعيتهم الغارقة في المصلحة القبلية وضيق الأفق فلم يستثمروا أموالهم في السياسة أو المغامرة بحرب طويلة هم ليسوا في حاجة إليها بشكل ملح، لأن توحيد القبائل تحت سلطة واحدة لا يمكن تخيله إلا بمعارك دموية متواصلة، وهذا ما حدث فيما بعد

بدخول محمد حلبة الصراع. وانضاف الى تصعيب الأمر في ذلك الحين تلك العزلة الأبدية التي خلقتها الصحراء بين القرى العربية في الحجاز^(١). ويشير أدونيس إلى هذا الأمر قائلاً: « وكان مجتمع الجزيرة يتكون من ثلاث طبقات، أرستقراطية تجارية هي الحاكمة، وهي قريش البواطن، وطبقة وسطى هي قريش الظواهر، وطبقة دنيا (بروليتارية رثة) هي البدو والغرباء أو الموالى، وكانت كل طبقة تعيش في شبه عزلة واستقلال عن الأخرى، لذلك لم تطالب الطبقة الدنيا بالمساواة على مستوى المجتمع ككل وإنما انحصرت هذه المطالبة في إطار القبيلة وحدها، وهكذا عرفت القبيلة نوعاً من الملكية الجماعية للمراعي ومجاري المياه وللقطعان أحياناً...»^(٢). وكما قلنا سابقاً فإن الاعتماد على مصادر لا ترتبط ببنى إنتاجية داخل مكة وإنما على التجارة مع الخارج، شوه العلاقات الطبقية ولم يتح للفقراء أن يدخلوا حلبة الصراع الطبقي، وذلك لأنهم كانوا أيضاً على هامش العملية الإقتصادية ولم يكونوا إلا تابعين لها وليسوا خالفين لوجودها بقوة عملهم.

ولذا كان على التغيير أن يأتي من اتجاه آخر، ليس له أية مصلحة في الإبقاء على تلك الحالة المتدنية، وله مصلحة أكيدة في

(١) أنظر تاريخ العالم الإسلامي، إبراهيم العدوي ص ٤٣ (وكان قوام هذا الصراع، بين الروح الفردية التي فطرت عليها النظم القبلية وبين المحاولات التي قامت بها مجموعة من القبائل لبناء أحلاف تصلح بواة لمجتمعات سياسية كبرى. فالهدف من النظام القبلي لم يكن إقامة حلف كبير أو تشييد مجتمع ثابت وإنما ظل هذا النظام يعمل على تثبيت نفوذ أسرة كبيرة أو إعلاء شأن عشيرة أو قبيلة ورفعها إلى مكان الصدارة على أقاربها، إذ بقيت القبيلة هي الوحدة السياسية العليا وشيخها هو الرئيس الأعلى.)

(٢) أدونيس. الثابت والمتحول تأصيل الأصول، ج ٢ ط ٣ ص ١٣.

التغيير، وكانت رياح التاريخ تهب في اتجاه الدعوة المحمدية، والتي كانت ظروف شبه الجزيرة آنذاك قد نضجت بالشكل الكافي لهدم الحالة القبلية وبناء «الدولة».

سيطرت مكة على الثروة والأفكار، لكنها كانت ناقصة القوة «فالمؤسسات» القبلية لم تكن قادرة على استيعاب المتغيرات الجديدة، ولاستيعابها كان لابد من القوة للسيطرة على العزلة والطرق والآبار، وإرضاخ التبجح العائلي الغارق في التخلف، وجاءت الدعوة المحمدية بعيداً عن المؤسسة القبلية، حاملة القوة المتنامية شيئاً فشيئاً لتتخطى حدود عزلتها الى خارج حدود شبه الجزيرة العربية.

٥ - ومنها تناقضات الأفكار السائدة مع التركيبة الاجتماعية التي كانت تحكم مكة، فمن الفقراء ارتفعت صيحات الرغبة في العدل والتغيير، لكن القيم الحاكمة كانت مع الفخر بالأنساب والأحساب والجاه والسلطان، فماذا يجدي الفقير أن يفخر بقبيلته ذات المجد التليد وهو لا يجد قوت أطفاله؟، ولذا جاءت الدعوة المحمدية ثورية الشكل وخاصة عندما تبعها بعض العبيد والمستضعفين.

فإذا نظرنا إلى التناقضات السابق ذكرها، فإننا لانستطيع أن ننظر الى كل تناقض على حدة، فمستوياتها تتداخل تداخلاً بيئياً وتتوحد أحياناً بحيث لايمكن فصلها عن بعضها بسهولة وربما يقودنا الكلام عن تلك التناقضات الى تناقض ذي مستوى خاص، وهو التناقض بين مكة وبين بلاد الحجاز الأخرى، وهو مرتبط بمكانتها أكثر من ارتباطه بحالة الصراع القبلي القائم والدائم بين البلاد وبين العشائر بعضها البعض. ويشد انتباهنا بشكل خاص طبيعة ذلك التناقض القائم بين مكة ويثرب، نظراً لأهمية الأخيرة القصوى في مسيرة القوة الإسلامية.

رُوي الكثير عن يثرب، لكن أكثر ما كُتب، صوّر حالتها بعد

الإسلام نظراً لأهمية الصراعات التي انفجرت داخل الدولة الإسلامية فيما بعد، وما رُوي عنها في الجاهلية معظمه يدخل في باب الأساطير أكثر من دخوله في باب علم التاريخ، وهذه طبيعة الناس عندما يجدون معلوماتهم ناقصة عن أمر ما من الأمور، فإنهم يلجأون غالباً إلى خيالهم، ليحل لهم كل نقص وليملا لهم كل فراغ. وهنا يجد الباحث صعوبة قصوى في استقراء الأحداث نظراً لاختلاط الخيال بالتاريخ المعتمد أساساً على ذاكرة الرواة وقص القصاصيين، فكثيراً مانجد أصولاً لمدن كثيرة تؤول وتتسلسل، حتى تصل الى سام بن يافث بن نوح. فنضطر أن نسأل. كيف استطاعوا أن يصلوا إلى نوح بهذه البساطة والإستهانة^{١٩}. فلا نملك إلا أن نضحك على قدرة الخيال البشري. ويأتي الحديث أيضاً متشابهاً عن نشأة مدن الحجاز من هجرات مستمرة من جنوب الجزيرة في بلاد اليمن. ومن المعروف أن الهجرات غالباً ماتحدثت من المراكز البدائية إلى المراكز الحضارية، ومن الفقر إلى الغنى ومن أماكن الموارد المحدودة إلى أماكن الموارد الغنية، كمعظم تلك الهجرات السامية القديمة من الصحراء إلى بلاد الأنهار في العراق والشام ومصر، أو كالهجرات الحديثة من القرى إلى المدن. لكننا هنا نقرأ بأن نشأة مكة أو يثرب أو غيرهما من قرى نجد والحجاز قد تمت كلها تحت يد قبائل هاجرت من مراكز غنية وحضارية لمراكز مجدبة. قد يكون - بل من المؤكد - أن بعض الهجرات قد تمت سواء من الشمال أو الجنوب الخصب إلى بعض الواحات داخل الحجاز بفعل تمردات أو تورات أو هروباً من قهر ما قد يكون وقع على مجموعة من السكان، فلاذت بالفرار باحتة عن أمنها هنا وهناك، أو هجرات تمت بفعل أوضاع اجتماعية لم يجد المهاجرون فيها مواطنىء قدم أمنة داخل بلادهم. لكن تلك الواحات داخل الصحراء المجدبة لم تكن خالية من السكان،

ونظن بأن الهجرات الكبرى كانت تتم في الإتجاه العكسي، أي من الصحراء إلى اليمن وبلاد الشام، تلك الهجرات التي أخذت عدة أشكال سلمية أو حربية، بحثاً عن موارد رزق جديدة. ولعل قيام دولتي المناذرة والغساسنة ليس إلا تعبيراً عن حماية أطراف الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية، من غارات القبائل العربية في الصحراء.

ولكي لانخرج عن موضوعنا نعود إلى يترب مكتفين ببعض ما رُوي عنها. فرعم أن يثرب كانت من أخصب المدن العربية في الحجاز (خصبة. سبخة الأرض. بها نخل كثير ومياه وزروع وضياع تسقى من الآبار)^(١)، إلا أنها لم تحتل نفس المكانة التاريخية التي إحتلتها مكة قبل الإسلام. فقد كانت نصف مكة مساحةً وشديدة الحرارة لإحاطة الجبال بها، وقيل أيضاً إنه كان عليها في الجاهلية وعلى «تهامة» أيضاً، عامل من قبل (مرزبان الزارة) يجبي خراجها، وكانت قريظة والنضير اليهود ملوكاً حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج الذين كانوا يؤدون خراجاً إلى اليهود، وكانت تشتهر بتمورها وحب اللبان والعمود^(٢). وكان لليهود فيها وضع متميز بما يملكون من أموال وثروات وضياع في يثرب حتى أسفلها، وقد أمنوا الصراع لفترة عبر أحلاف أقاموها مع كل من القبائل داخلها لكنهم ككل أقلية عاشوا في عزلتهم باحثين عن الأمن والاستقرار. كانت لهم دعوتهم ومدارسهم وأفكارهم التي عرفها العرب الذين عايشوهم، واحتفظوا بتوازن دائم بين الصراع الطويل المنهك للأوس والخزرج، بل لعل ذلك الصراع كان سبباً قوياً في استمرار وجودهم حتى

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموي. ج ٥. ص ٨٢ - ٨٨.

(٢) نفسه. باب (مدينة).

انتصار الإسلام، بل ودخول بعض أفراد القبائل في اليهودية. لكن غالبية الأوس والخزرج لم تدن باليهودية وربما يرجع ذلك الى سببين:

الأول: هو طبيعة العقيدة اليهودية نفسها والتي ترتبط بتاريخ بني إسرائيل كقوم أكثر من ارتباطها بكل البتر، فهي عقيدة خاصة بهم أكثر من كونها ديناً عاماً يدعى إليه، فأمدت علاقاتهم بمن حولهم بروح من العزلة، فلم يتقبلهم الناس ولم يتقبلوا تاريخهم وعقائدهم بسهولة، لكن هذا لا يمنع تهود بعض العرب سواء في اليمن أو في الحجاز.

الثاني: هو تاريخ العداء القديم بين قبيلتي الأوس والخزرج من جانب، وبين اليهود من جانب آخر، للسيطرة على السيادة داخل (يثرب) كما تحكي الروايات وكتب التاريخ

ونظراً للمكانة الاقتصادية التي احتلتها المدينة في بلاد الحجاز بعد مكة، بسبب قربها من مكة ومرور القوافل التجارية عليها، وبسبب بنيتها الزراعية، فإن حالة من الحسد انزعت داخل نفوس أهلها بسبب سيطرة مكة على الحياة الاقتصادية والدينية في بلاد العرب. فالقوافل التجارية للشمال كانت تمر بالمدينة، لكن أسهل طرق تجارة الشمال مع الجنوب كانت تلتقي كلها في مكة^(١). والكعبة كانت في مكة. والآلهة كانت في مكة والحج كان في مكة. فلم تضطلع

(١) يقول احمد أمين في «مجر الإسلام» ص ١٣ (كانت الجزيرة العربية معبراً للتجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا والشرق الأوسط وكان يمر بها طريقان للتجارة يربطان المحيط الهندي بالشام، يبدأ أحدهما من حضرموت ويمر بالبحرين ثم يصل إلى صور بالشام. والطريق الثاني يبدأ من حضرموت ثم اليمن ويسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر حتى مكة ثم الشام)

المدينة بدورها الفعال إلا بعد أن دُمِّرت الأصنام وعُبد الإله الواحد .
 المدينة كانت واحة زراعية خصبة جعلت حياة أهلها أكثر
 إستقراراً من حياة البدو والأعراب، وربما جعل ذلك الثبات
 والإستقرار حول الأرض والمياه أهلها أقل مغامرة، فلم تضطلع بذلك
 الدور في جوب العالم والإختلاط به كما حدث بالنسبة لمكة، ولم
 يكتشف أهل يثرب هذا الأمر إلا بعد أن سادت مكة سيادة إقتصادية
 وروحية على كل بلاد شبه الجزيرة. ولم يترك الصراع الدائم بين
 الأوس والخزرج أو بينهما وبين اليهود فرصة تاريخية كبرى، يمكن
 أن يلتقطوها، بينما أتاحت مكة الأكثر تنظيماً والأقل قتالاً وصراعاً
 وأكثر أحلافاً والأمتن تعامداً، والأكثر غنى والأخصب تاريخاً،
 لأهلها أن يتبوأوا مركز الصدارة وسط القبائل العربية .

ثم نضطر هنا أن نتجاوز فجوة واضحة حول طبيعة العلاقة بين
 مكة ويثرب. ماهي أشكال الصراع الخافية والظاهرة بين المدينتين؟
 وما شكل الأحلاف؟ وما هي المصالح التي تجمعهما أو
 تفرقهما؟ الخ. لم نجد إجابات قاطعة لهذه الأسئلة، وإنما قد نجد
 إشارات عن بعض أحلاف ومعاهدات بين الأوس وقريش أو بين
 الخزرج وقريش لتأمين القوافل وعدم التعرض لها^(١). أو بعض
 أحلاف الجوار بين ناس من المدينة وناس من مكة أو بين رجل من
 هنا أو من هناك وكلها ذات طابع فردي كنوع من الإجارة أو الولاء أو
 حماية القوافل أو استضافتها وما الى ذلك.

ويلفت انتباهنا أن غالبية الأنصار الأول كانوا من قبيلة

(١) انظر تاريخ العرب في الإسلام. إبراهيم العدوي. ص ٦٢ حيث يقول (والتقى الرسول
 بنفر من قبيلة الأوس كانوا قد وعدوا إلى مكة لعقد تحالف مع قريش ضد الخزرج).

الخرزج، ذلك الوفد الذي خرج إلى سوق عكاظ من بني عبد الأشهل الخزرجي فقابلوا الرسول وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك». (١) وفي العام التالي حضر وفد من أهل يثرب يضم إثنا عشر شخصاً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وفي العام التالي للحج جاء وفد من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين غالبيتهم كانوا من الخزرج (قيل إن عددهم كان اثنين وستين خزرجياً). وكان العباس بن عبد المطلب قد حضر مع النبي العقبة الثانية واستهل الحديث - برغم أنه لم يكن قد أسلم - ليأخذ المواثيق من أهل يثرب لإبن أخيه، فقال: «يامعشر الخزرج، إنَّ محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الإنحياز إليكم والحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده». ثم قال الرسول «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فتدخل أحد رجال يثرب طالباً المزيد من المواثيق لأن قبولهم لحمايته ونصرته يعني قطع علاقة قبائل يثرب باليهود وقال: «بيننا وبين اليهود حبال وإننا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فرد الرسول «الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم... أخرجوا إلي منكم إثنا عشر

(١) المرجع السابق. ص ٦٣

نقياً ليكونوا على قومكم بما فيهم» (١).

وسألهم العباس: صفوا لي الحرب، كيف تقاتلون عدوكم؟، فأجاب عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري «نحن والله أهل حرب، غُذينا بها ومُرنا عليها، وورثناها عن آبائنا كابراً فكابراً. نرمي بالنبل حتى تفتنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تنكسر، ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا» فرد العباس متلهلاً: أنتم أصحاب حرب إذن، فهل فيكم دروع؟. قالوا نعم لدينا دروع شاملة» (٢).

ورغم هذا خرج العباس في موقعة بدر مجبراً على قتال ابن أخيه، وتم أسره فرغب في مغادرة الأسر بلا فدية قائلاً إنه مسلم يُخفي إسلامه، لكن النبي لم يقبل قوله وأمره أن يفدي معه ابن أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، لأن العباس كان غنياً، ومما يؤكد عدم إسلامه رد القرآن عليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾

وفيبيعة العَقبَة الثانية قال أهل يثرب لمحمد إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. ولذا فإن النبي قد تخوف قبل معركة بدر مباشرة ألا يكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم (٣) لكنهم كانوا قد خرجوا للقافلة التجارية وما كانوا

(١) المرجع السابق. ص/٦٤.

(٢) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول. ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٣) انظر ابن كثير، السيرة النبوية ص ٣٩٢ ح ٢.

يستطيعون التراجع بعد أن اشتركوا في سرايا قطع الطرق ومهاجمة القوافل التجارية مع المهاجرين، فارتبط مصيرهم بمصير الآخرين.

جاء العباس، إذن، خفية وقيل ليلاً، مع ابن أخيه ليأخذ المواليق من أهل يثرب، وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية.

ونعود فنقول: لماذا تميزت العقبة الأولى والثانية بتبعية أهل الخزرج أكثر من الأوس؟^(١) وهنا نرجح - حيث لانملك غير ذلك - أن مكة كانت تلعب على الصراع التقليدي داخل يثرب، فتؤيد طرفاً وتتخالف معه ضد طرف آخر، ثم تعود لتفعل العكس طبقاً لتغير موازين القوى آنذاك. وربما كانت كفة الأوس أكثر رجحاناً عند سادة مكة من أعدائهم الخزرج، وقد رُوي أن الأوس قد حضروا إلى مكة بحثاً عن أحلاف جديدة مع سادتها، وربما أثار ذلك الطرف الآخر ليلتقف دعوة محمد كحلف مناوئ للأوس وقريش. ولأن كثيراً من الأحلاف كانت تأخذ طابعاً فردياً، فربما استطاع الأوس أن يقووا علاقاتهم مع قريش باحتواء الحماية للقوافل المارة عليهم، وقد اتضح ذلك الأمر أكثر بعد الهجرة، عندما خرج أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان بن ضبيعة الأوسي، إلى مكة مباعداً للرسول ومعه خمسين رجلاً من الأوس. وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان وفي غزوة أخذ خرج ضد محمد، ونادى قومه فلم يستجيبوا له، لأن الأمركان قد أفلت من أيديهم هم باتباع محمد في كل غزواته، وقيل أنه قاتلهم قتلاً شديداً ثم أرضخهم بالحجارة فاستسلموا له^(٢) فإن صحت هذه الرواية فإنها تعني أيضاً بأن الأوس اشتركوا في حربهم ضد النبي مع

(١) نفس المرجع ح ٣ ص ١٨ وما بعدها .

قريش. والبيعة كما قرأنا لم تأخذ شكلاً دينياً صافياً، كما يجب البعض أن يبالغ، بقدر ما أخذت شكلاً من أشكال تلك الأحلاف التي كانت سائدة حينذاك، ولعل اشتراك العباس عم النبي رغم وتنيته في البيعة، أضفى عليها طابعاً قُبلياً رغم تجاوز الدعوة الإسلامية لتلك الحالة، فما كان يمكن للقوة أن تتخطى عصرها تخطياً كاملاً أو مطلقاً وخاصة في تلك الأيام الأولى، وعليه يمكن أن نفهم لِم استعان محمد بعمه في مواتيقة مع الخزرج.

والقول بوجود عدد من الأوس في البيعتين، يمكن تحليله باحتمال أن تلك الأقلية الأوسية ربما دسّت دساً لاستكشاف طبيعة الحلف المضاد، وقد حدثنا القرآن والتاريخ عن المنافقين الذين ملأوا المدينة بعد هجرة محمد إليها، وربما أضيف الأوس في المرويات بعد نجاح الإسلام النهائي كمحاولة للقول بأنهم كانوا أيضاً من السباقين للإسلام. وربما كانت تلك الأقلية الأوسية من هؤلاء الذين رفضوا الصراع القبلي الدائر بين القبيلتين والذي راح ضحيته عدد كبير من الفريقين، فرأوا في محمد فرصة لتجميع أهل يترب على كلمة واحدة، وفي هذه الحالة يمكن اعتبارهم إستثناء من حالة عامة. وربما هنا تعني أن الأمر تحيط به الإحتمالات ولا يمكن الجزم فيها.

يُروى عن جابر بن عبد الله أن النبي كان يعرض نفسه على الناس بالموقف بعرفة فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل. فأتاه رجل من همدان، فقال: ممن أنت؟ قال الرجل: من همدان. قال: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يخفر قومه، فأتى الرسول، فقال: أتيتهم فأخبرهم ثم أتيتك من عام قافل. قال: نعم. فانطلق وجاء

وفد الأنصار في رجب^(١) وعليه يمكن اعتبار أن أمر الأنصار بدأ بإجارة محمد من قريش حتى يبلغ ما يريد، أما مسألة الدعوة والدين فلم تكن إلا نوعاً من العرض يعرضه محمد على القبائل على الإيمان بدعوته كحد أقصى فإن رفضت طلب الحد الأدنى وهو نصرته وإجارته وحمايته من قريش ليبلغ ما يريد من أمره فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمين موالي (حلفاء) اليهود^(٢) قالوا: نعم. وقيل إنهم كانوا ستة أو ثمانية^(٣)، فعادوا إلى قومهم ليخبروهم بأمر محمد، وأرسل النبي معهم مصعب بن عمير، فصلى بهم لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض^(٤).

وكما أنبيعة العقبة الثانية كانت نقطة تحول في تاريخ القوة الإسلامية، كانت أيضاً نقطة تحول في تاريخ يترب نفسها. لأنه قَرَّبها من حلمها القديم بمضارعة مكانة مكة ذلك الحلم الذي كان دافعاً من الدوافع «التحتية» التي أفرزتها حالة الجذب داخل شبه الجزيرة العربية ككل. ولقد انعكس ذلك على الصراع على السلطة بين المهاجرين والأنصار بعد موت النبي، فيما سُمِّي «باجتماع» سقيفة بني ساعدة، ومؤثر ذلك ما قاله سعد بن عباد زعيم الخزرج في هذه المناسبة: «يامعشر الأنصار، إن لكم لسابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب إنَّ محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوتان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، وما كانوا يقدرُونَ على أن يمنعوا الرسول ولا

(١) رواية أهل السُّنن الأربعة من طرق. وقال الترمذي حسن صحيح أنظر سيرة إِبْن كثير

ج ٢ ص ١٧١

(٢) أنطرفس المرجع ج ٢ ص ١٧٧

(٣) نفسه

يُعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمواً به، فلما أراد ربكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به ورسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، وحتى أثخن الله لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب...» فرد أبو بكر قائلاً (نحن الأمراء وأنتم الوزراء.) فقال الحباب بن المنذر: «يامعشر الأنصار، إملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فينكم ولن يجترىء على خلافتكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، وأنتم أهل العز والثروة وأولو العدة والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ماتصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ويقتضى عليكم أمركم، أبى هؤلاء إلا ماسمعتهم، فمنا أمير ومنهم أمير»، فرد عمر بن الخطاب قائلاً «...ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدلّ بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة؟». فقال الحباب: لاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ماسألتهموه، فاجلسهم عن البلاد، وتولوا عليهم هذه الامور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإن بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين...».

وانعكست أيضاً حالة ذلك الصراع الخفي بين مكة والمدينة قبل الإسلام، على طبيعته في ظل دولة عمر وعثمان والدولة الأموية عندما وصل الحد إلى كثرة الهجاء بين شعراء مكة وشعراء المدينة^(١)، وذلك رغم أن طه حسين يقول «إن إستحالة الجهاد إلى

(١) يقول طه حسين في كتاب الادب الجاهلي ص ١٢٢ - ١٢٣ (.. وفقه هذه الرواية يسير =

جهاد سياسي بعد أن كان جهاداً دينياً قد استحدثت عداوة بين مكة والمدينة أو بين قريش والأنصار» لم تكن موجودة من قبل، «فالسيرة تحدثنا بأن صلات المودة كانت قوية بين قريش وبين الأوس والخزرج قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة، وكان ذلك معقولاً وطبيعياً، فقد كان الأوس والخزرج على طريق قريش إلى الشام، ولم يكن لهذه المدينة التجارية التي تسمى مكة من أن تؤم طرقها التجارية وتوثق صلات المودة مع الذين يستطيعون أن يعرضوا هذا الطريق للخطر...»^(١).

وبالطبع فإن مايقوله طه حسين منطقي، لكن ذلك لايعني بالضرورة أن تمة اتفاق كلي مطلق بين مكة والمدينة، وأن أشكالا أخرى من الصراعات تحت السطح لم تكن موجودة. وإلا لِمَ حاول الأوس تغيير أو تعزيز حلفهم مع قريش أثناء البعثة، وكان ذلك سبباً للدعاية للإسلام بين أهل يثرب؟ فهل كانت المعاهدات القديمة غير كافية؟ أم أن الحالة الإقتصادية داخل يثرب دفعت بعض القبائل للدعوة لتجديدها؟ أم أن للصراع بين الأوس والخزرج علاقة بذلك؟ وقبل كل شيء ما الذي يجعل الخزرج ينصرون محمداً وقد خذلتهم كل القبائل العربية، ومحمد لم يكن منهم ولا بينهم، وهم يعرفون أنهم بذلك يهدمون معاهدات بينهم وبين قريش إن كانت هناك

= لمن يلاحظ ماقدمناه من أن الأنصار كاسوا موتورين وأن عصيتهم لاتطمئن إلى انصراف الأمر عنهم، فكانوا يتعرون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش، وما كان لهم من السلاء قبل موت النبي وما أفادوا بأيديهم وألسنتهم من محد... وكان عمر قريشاً نكره عصيته أن تُردى قريشاً وتكر ما أصابها من هزيمة وما تشيع عنها من منكر، وكان فوق هذا كله أميراً حازماً يريد أن يضبط أمور الرعية وأن يؤسس ملك المسلمين على شيء غير العصبية وقد وفق بعض التوفيق ولكنه لم يطفّر بكل ما يريد (١٠).

(١) نفس المرجع ص ١٢٠.

معاهدات؟! إلا إذا كانت هناك أسباب أخرى لم تذكرها كتب السيرة والتاريخ؟! تم إن المضار الأول من معاهدة العقبة الثانية هومكة وليست يثرب، لأن تجارة الأولى هي التي تمر على المدينة ولا تستطيع قريش أن تؤثر في حياة يثرب تأثيراً قوياً، بقدر ما يمكن أن يحدث النقيض!.

وقد دخل محمد يثرب وقد أنهكها صراع طويل بين الأوس والخزرج، كان قد انتهى بوقعة (بعث) والتي قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل، وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها قالت .

- كان يوم بعث يوم قدمه الله لرسوله، فقد قدم الرسول إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقتل سراتهم.^(١)

فبدلاً من أن يناوئه ملأ أو طامع في سلطة، إحتمت به الخزرج فأيدته وتأيدت به، وانتظرتة الأوس فبحثت عن فرصتها فيه، فلم تعلن عداها وأعلنت تأييدها بحثاً عن حماية به . وفي تفكك يثرب لم تجتمع عليه كلمة أو موقف. فقد كانت اللحظة التاريخية لحظة إنهاك تام والتقاط أنفاس. فما إن التقط أهل يثرب أنفاسهم إلا وكان محمد قد قوي بما فيه الكفاية، فرأوا أنفسهم يهرعون خلفه.

أما أمر القبائل العربية الأخرى فكان أكثر سهولة فتلك القبائل لم تضر ضرراً مباشراً بالدعوة المحمدية، ولم يكن يهمها محمد ولا دينه الجديد، فالمتناقضون الحقيقيون كانوا في مكة، والمضاربون الأساسيون كانوا أيضاً في مكة، أما القبائل الأخرى فلم تنظر إلى الإسلام أو تعاديه إلا وهي تدافع عن نفسها في مواجهة

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢. ص ١٧٥.

قوة صاعقة تحمل في طياتها روحاً جديدة، ففوجئت القبائل برؤوسها تتهاوى، وبسيوفٍ تعمل في صدورهم، فلم تملك إلا أن تذعن - ولو إلى حين - لسطوة القوة الجديدة والتي هبت ريحها فعصفت بنظامها القديم، وما كان لها أن تنهض ثانية إلا وهي تحمل نفس الطابع الجديد ونفس الأسلحة في مواجهة العالم الخارجي وإخضاعاً له

(٢)

التنظيم المحمدي الجديد

ثقافة محمد

رغم صعود مكة إلى مركز الصدارة في الجزيرة العربية، ورغم دور التجارة في نقل الأفكار وتداولها، وتقريب المسافات وتوحيد الثقافات، ورغم تلك الحالة من البحث عن الإستقرار بإصطناع بعض الأنظمة والقوانين والتحالفات، إلا أن الحياة كانت بدائية، والقوانين كانت بدائية، والنظم كانت بدائية، مقارنة بتلك المجتمعات التي بلغت شأناً متطوراً في المدنية والحضارة، كتلك الدول ذات التاريخ الحضاري الطويل كمصر والشام أو بيزنطة ورغم تأثر العرب بتلك الحضارات بشكل أو بآخر عبر التجارة والتنقل إلا أنه كان محدوداً للغاية، ويقول في ذلك أحمد أمين:

«كانت تتسرب هذه المدنيات من مجرى ضيق، وقد ينال التحريف ما ينقلون من غيرهم، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منظماً كما نأخذ نحن عن المدنية الغربية، لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك منها العوائق الطبيعية بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية إذا تقاربت العقليتان، ومنها إنتشار الأمية بين العرب إذ ذاك، حتى ندر أن تجد فيهم القارئ أو الكاتب، إنما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون جُكماً أو قصصاً أو أمثالاً أو حوادث

تاريخية مما يخف حمله على الناقل، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه أن يهضمه..»^(١)

وقد اتضح هذا الأمر أكثر بعد إنتصار الإسلام وتخطيه حدود الجزيرة العربية فوجد الظروف غير الظروف والحياة غير الحياة في البلاد المفتوحة، فاختلطت التشريعات الإسلامية بالنظم والمدنيات التي قامت في هذه البلدان، وانفتح الباب واسعاً أمام الإجتهااد.^(٢) أو كما يقول المستشرق الألماني جولتسير:

«إن فقهاء دمشق وبغداد لا يمكنهم بقوانينهم البدائية التي حملوها معهم من الجزيرة العربية، سد حاجات مجتمعات بلغت شأواً بعيداً في المدنية والحضارة كالمجتمع السوري أو العراقي، ولهذا سارعوا إلى ابتداء نظام قانوني لمواجهة حاجات هذه المجتمعات الجديدة مستخدمين في ذلك الوسائل الرومانية»^(٣). وقد رُوي أن الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في مكة لم يتجاوزوا السبعة عشر شخصاً حتى بدء الدعوة رغم أن بمكة أعظم قبائل العرب وأكثرها حضارة، حتى التجار الأثرياء لا يصلحون أداة لنقل الفكر والثقافة الرومانية أو غيرها، وإن كانوا يصلحون لنقل بعض المظاهر المادية لحضارتها، ويؤكد هذا النظر أن العرب ظلوا على حالهم من التأخر الإجتماعي رغم صلاتهم التجارية خارج جزيرة العرب.^(٤)

وسواء كان الرقم (السبعة عشر قارئاً) دقيقاً أم لا، إلا أنه

(١) انظر كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين وتطبيق الشريعة الإسلامية.. لصوفي أبوطالب ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية صوفي أبوطالب
(3) Goldziher · In Byzantienische, Zeitschrift, P317-325

(٤) تطبيق الشريعة. صوفي أبوطالب. ص ٢٥٣

يعكس - على كل حال - أمّية سكان الجزيرة كصفة غالبية، مما يؤدي رغم كل مظاهر البهرجة الفارغة إلى توقف العلاقات والعادات والنظم والأفكار عند مستواها البدائي، وقد أشار القرآن إلى حالة العرب في الجاهلية قائلاً ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة ٢، وقد شرح البعض صفة الأمّية التي جاءت في آيات كثيرة على هؤلاء القوم الذين ليس لهم كتاب توحيد كالوثنيين والمجوس، وقد قال النبي (نحن أمة أمّية لا تكتب). ويقودنا ذلك إلى سؤال قد لانجد له إجابة قاطعة نظراً لاختلاف المرويات حوله، والسؤال هو: هل كان محمد أمّياً؟ بمعنى هل كان لا يقرأ ولا يكتب؟.

يقول القرآن ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل...﴾ الأعراف ١٥٧، ويقول القرآن ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطّلون﴾ العنكبوت ٤٨. ويفسر البعض كلمة (الأمي) نسبة إلى أمة العرب التي ليس لها كتاب. وعندما يقول ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ يعني أن ذلك قبل مجيء القرآن، ورغم ذلك شككت قريش في ذلك على لسان القرآن نفسه ﴿وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ وهذا يعني أن قريشاً كانت تشك في معرفة محمد للكتابة والقراءة، وقد ذكرت كتب التفسير إسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ النحل ١٠٣، وقيل عنه أنه كان يباعاً في حانوت بمكة وكان الرسول

يجالسه ويأنس إليه ويحادثه.^(١) فكيف برجل أعجمي ولغته غير عربية أن يُعَلِّم قرآنًا عربياً مبيناً؟!، فيرد أهل مكة بأنه لا يمنع أن يكون هذا الرجل مجيداً للعربية ككل الموالى والرقيق الذين سقطوا في الأسر وبيعوا وأُتِيَ بهم إلى مكة، أو أن الرسول نفسه كان يعرف اليونانية أو السريانية بحكم مخالطته للعجم والنصارى الذين كانوا يعيشون في مكة أو يأتون إليها، حتى أن أحد المستشرقين الإيطاليين قد بالغ في الأمر حين قال بأنه كان للرسول معرفة واسعة بالقانون الروماني البيزنطي(!!!).^(٢) وهذا الأمر لا يحتاج لرد كثير، ذلك أن النظم والقوانين التي جاء بها الإسلام كانت عربية الطابع وارتبطت بفترة تاريخية طويلة منذ بدأ محمد دعوته حتى وفاته، ولم تأت مرة واحدة، أي أنها كانت إستجابة لمرحلة طويلة من الظروف التي مرت بالمسلمين داخل الجزيرة، وأما التطور الذى حدث فيما بعد فارتبط بالاجتهادات التي تمت أثناء الفتوح الواسعة والسريعة خارج بلاد العرب، وربما تكون تلك الاجتهادات آنذاك قد أخذت من النظم والقوانين البيزنطية بحكم التعايش وسط تلك المدينيات، بل وسهولة النظم المعمول بها منذ وقت طويل داخل تلك البلدان، وبحكم تطور الكتابة ونمو حركة الترجمة فيما بعد. أما ما جاء في القرآن مخالفاً لنظم وعادات القبائل العربية فإنما جاء رداً على تلك النظم القبلية وضرباً لها، وإن كان قد إستمد روح الإنجيل والتوراة باعتبارهما كتابي التوحيد اللذين عاشا وسط العرب رداً طويلاً من الزمن.

(١) انظر، جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ص ١٧٦.

(2) CARUS · Il Problemo Scientifico del diritto musulmano. In, Rivista Italiano. P147

يقول أحمد أمين (....) والبناء القانوني الذي أقامه الفقهاء المسلمون يعتمد أساسه على القانون العربي القديم الذي تعدّل وصُحِّح على يد محمد وتطور تحت تأثير عناصر مستمدة من اليهودية والنصرانية، فإذا كان للغرب أثر في الشريعة الإسلامية فإن ذلك كان بسبب قانون الكنيسة وليس بسبب القانون المدني..^(١)، وتروي السيرة الحلبية (..) أنه هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة..^(٢)، وتروي سيرة ابن هشام حول صلح الحديبية (فبينما رسول الله يكتب الكتب هو وسهيل)، وفي البخاري (وأخذ الرسول الكتاب ليكتب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد، وقال لعلي: إمح رسول الله، قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذه رسول الله فكتب هذا ما قاضى عليه محمد، لا يدخل بالسلاح.. الخ)، وعن ابن شيبّة وغيره أنه (مامات رسول الله حتى كتب وقرأ) وقالوا (إن معرفة الكتابة بعد أميته لاتنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى بعد معرفة أميته)^(٣)، وقال البعض الآخر (يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف كما يكتب بعض الملوك علاماتهم وهم أميون).^(٤)

ونحن نظن أو نرجح بأن النبي كان يجيد القراءة والكتابة سواء قبل الدعوة أو بعدها، فكل ماترك من تراث من أحاديث نبوية وغيرها يتسم بالبلاغة وقوة البيان، لا يستطيع أن يأتي بها إلا ملم باللغة الفصحى أو ضليع فيها، وقد يُردُّ على ذلك بأن الرسول قد اكتسب قوة لسانه من قبيلة بني سعد في طفولته خارج مكة فلم

(١) انظر أحمد أمين، فجر الإسلام. لجنة التأليف والترجمة. القاهرة ١٩٤٥.

(٢) انظر حواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص ١٧٦ ومابعدا. السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٣.

(٣) نفسه. ص ١٧٣.

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير. ج ١ ص ٢٧٣، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٩.

يتشوه كما تشوهت اللغة العربية في مكة بحكم وضعها كمركز تجاري وسياحي تفد عليه كل الأجناس وقد يرد على ذلك أيضاً بأن الفصاحة وحدها لاتعني الإمام بالقراءة والكتابة ككتير من الذين يحفظون الأشعار وأصول البلاغة وقواعد اللغة دون أن يكتبوا أو يقرأوا، وإنما إكتسبوها اكتساباً عبر السماع فقط، ورغم ندرة هؤلاء الناس فإننا نعتبرهم مثقفين، وقد ترك لنا التاريخ مثل أبي العلاء المعري كشاعر فذ لا يكتب ولا يقرأ بسبب عاهته، وإذا وافقنا على أن محمداً قد إكتسب ثقافته الدينية وبلاغته اللغوية سماعياً فقط، فعلينا أن نهمل العوامل الأخرى والتي تشير إلى أنه كان يعرف أهمية القراءة والكتابة ولعلّ تعليم بعض أسرى بدر للمسلمين مبادئ القراءة والكتابة لخير دليل على ذلك، ولم نقرأ أنه طلب من أحدهم أن يعلمه هو نفسه القراءة والكتابة وهو أولى الناس بها بحكم موقعه الريادي تم اشتهر عن علي بن أبي طالب - باتفاق عام - أنه كان يجيد القراءة والكتابة منذ طفولته، ونحن نعرف أنه تربى وتعلم في حجر الرسول وتحت رعايته، فمن أين اكتسب كل علمه وبلاغته التي اشتهر بها؟، وكل صحابة النبي الذين هاجروا معه كانوا يقرأون ويكتبون، فهل يعقل أن يكون قائدهم ومعلمهم جاهلاً بالقراءة والكتابة؟.

وقبل كل شيء، فإن القرآن قد أنزل على لسان محمد، فكان يقوله ويشرحه ويقرأه للناس بلا عوج أو تردد أو إلتواء، فهل يجوز مع قوة القرآن اللغوية أن ينطقه أمي ويعلم الناس به؟! وبالطبع لا يستطيع أحد أن يتيقن من هذا الأمر أو يؤكده، وإنما يستطيع ترجيحه أو استنتاجه من مجمل التاريخ الذي ذكر حول الموضوع.

عاش محمد وسط العرب، لكنه لم يعيش كأبي عربي، فلم يقدس ماقدسوه ولم يحترم مايحترمونه، بل كان ثائراً على هذا الوضع،

مفكراً فيه، وكانت حياته صعبة، وُلد فقيراً ویتيمًا، حاول أن يخوض بحر التجارة فلم يربح الكثير، وأصدق تعبير عن هذا الوضع ما قاله له عمه أبو طالب (يا ابن أخي، أنا رجل لامل لي وقد اشتد الزمان، وألحت علينا ودامت سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه غير قومك قد حضرت.)^(١)، فملأت تلك الحالة نفس محمد ثورة وسخطاً على أقلية تفوق ثروتها كل ثروة الجزيرة العربية، فحلّم بتغيير تلك الحالة والانتصار عليها. وكانت عزلته عزلة تأمل أكثر منها هروباً، وكانت عزلته عزلة بحث أكثر منها انسحاب عن الناس حوله.

لكن. ألم يتأثر محمد بحياة العرب حوله؟!

بلى، لقد تأثر، لأنه عاش وسطهم واستمد وعيه وثقافته مما حوله ومما رآه وعاشه. عاش حياتهم الدينية قبل البعثة، وقابل يهوداً ونصارى فسمع منهم^(٢) ككل عربي يعرف قصص التوراة والإنجيل بحكم تواجد المسيحية واليهودية بين ظهرائهم، وقد تهود بعض العرب وتنصر البعض الآخر، بعد أن «تسربت النصرانية إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان معتنقوها من أتباع الكنيسة النسطورية في الحيرة، بينما إنتشر أتباع الكنيسة اليعقوبية في غسان والشام، وقامت عدة صوامع في وادي القرى، وكان أهم موطن للنصرانية في نجران وهم على مذهب اليعاقبة، ولكن ذانواس وهو

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١١٩.

(٢) إشتراك محمد وهو في الخامسة عشرة من عمره في حرب الفجار فكان يبيل عمومته وشاهد حلف الفضول لإنصاف المظلوم وخرح وهو في الثامنة عشرة من عمره مع عمه أبي طالب للتجارة إلى بصرى بالشام فشهد رهباناً ونصارى يقيمون بها وبمدين ووادي القرى وقيل أنه قابل راهباً يدعى «بحيرا» فأوصى به عمه لما رآه من ذكاء. (انظر حواد علي. تاريخ ص ١٢٨).

يهودي أعمل فيهم القتل فاستنجدوا بالحبشة، وكانت مثلهم على المذهب. اليعقوبي، والتي غزت جنوب الجزيرة العربية ما بين عامي ٥٢٢ و٥٢٥م. وهزمت ذانواس واستمر احتلال الحبشة حتى عام ٥٧٥م حينما غزا الفرس بلاد اليمن واستمر بعض أتباع الكنيسة اليعقوبية في نجران حتى أجلاهم عمر بن الخطاب^(١)، «أما عن اليهود فبعضهم كان من العرب الذين تهودوا وبعضهم كان من الذين نزحوا من الشام إلى الجزيرة بعد إضطهاد الرومان لهم وهدم هيكل سليمان عام ٧٢م، وطردهم اليهود نهائياً من فلسطين عام ١٣٢م وكان عددهم قليلاً قبل الإسلام ومعظمهم كانوا في اليمن والبعض النازح أقام مستعمرات يهودية أشهرها في فدك وخيبر ووادي القرى ويثرب والتي عاش في الأخيرة بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة...»^(٢)

فهل يعقل ألا يتأثر محمد بهاتين العقيدتين وهو الباحث والمتأمل والمفكر؟ ألا شك أن الاتجاه نحو فكرة الإله الواحد ورفض الأصنام كانت لها علاقة باليهودية والنصرانية، ككثير من العرب الذين تأثروا بهما لكن أفكارهم لم تستجب لهما وقد دعوا بالأحناف كزيد بن عمرو، وأمие بن الصلت، وورقة بن نوفل... الخ لكن تأثرهم لم يتعد طابعه الفردي، عكس محمد بن عبد الله الذي جاء مسلحاً بوعي أكبر وثقافة توحيدية وسخط على حالة الناس وعلاقاتهم داخل جزيرة العرب، فكان أول عنصر في قوته هو تلك الإيجابية الفاعلة بحثاً عن تغيير شامل للأفكار والأوضاع داخل مكة وخارجها، وبدأت ملامح ذلك الفعل بعد أن استقر معيشياً بالتجارة لخديجة ثم الزواج منها فيما بعد ليتفرغ بشكل شبه كامل لدعوته.

(٢) نفسه ص ٢٣ - ٢٥.

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٥ - ٢٩

رُوي أن قادة مكة إشتكوه إلى عمه أبي طالب وهو على فراش الموت، وقالوا له: ماتريد من قومك؟، فرد محمد. ياعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات لا كلمة واحدة قال: لا إله إلا الله. فقالوا: أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟^(١)، وهذا معناه - إن كانت الرواية صحيحة - أن نظرة محمد كانت أبعد من مجرد دعوة دينية، وبأنها كانت تحمل طابعاً إستراتيجياً منذ أيامها الأولى، رغم أنه رُوي بأن محمداً كان في أيامه الأولى يدعو مكة ومن حولها وأن هذا كان غاية مراده «لتنذر أم القرى ومن حولها...»، وأن القول بعالمية الدين لم يأت إلا وهو ينتصر نصراً تلو الآخر ويغزو غزواً بعد غزو. وأيا كان القول، فإننا نعتقد بأن محمداً كان صاحب فكر، فلا بد إذن أن يتمنى أن تنتشر دعوته وتلقى مآلقيته النصرانية من إتساع وما لقيته اليهودية من إعتناق في بقع كثيرة من العالم، إلا أنه كان عليه أن يبدأ من الأرض التي وُلد فيها ويعرفها وباللغة التي يتكلمها ويُتقنها وبالروح العربية التي عايشها فعاشته.

منذ متى بالضبط كان محمد يفكر في قلب تلك الأوضاع؟

لم تقل كتب التاريخ شيئاً ولم تحدد لحظة فاصلة في حياته يمكن أن يشم منها أنه كان يجهز نفسه لأمر عظيم، سوى أن كتب السيرة قالت إن الوحي أتاه في غار حراء، وأنه كان مرة بأجساد فرأى ملكاً واضحاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح، يا محمد، أنا جبريل...^(٢).

(١) سيرة ابن كثير. ج ٢. ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) انظر حواد علي. تاريخ العرب، السيرة الطلبية ج ١/ ٢٧٧

وكل مانستطيع قوله هو أن محمداً جاء واعياً بما حوله راغباً في تغييره، جاء كرد فعل ثوري على تلك المتناقضات التي كانت تعمل داخل جزيرة العرب وبشكل خاص مكة ومحاولها، فرفعت تلك المتناقضات دعوة محمد إلى صدارة الأحداث ثم ألقتها في سدة القرار المتحكم في مستقبل شبه الجزيرة. لكن الفعل المحمدي لم يكن رد فعل فقط بقدر ما كان أمراً مقصوداً منظماً إخترق فواصل التاريخ وتغرات التناقضات ليعلوها ويوجه مصيرها.

التنظيم السري

بدأ محمد بخديجة وزوجه وحبيبته عندما عاد من حراء قائلاً «لقد خشيت على عقلي» (بعد أن أصابته الحمى والرعدة فرأى ملكاً) فلما سمعت منه هذا الكلام هدأت روعه وطيبت خاطره قائلة له: كلا. أبشر فوالله لا يخزيك أبداً. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتعين على نوائب الحق»^(١) فأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل الذي قيل عنه أنه كان أحد الحنفاء الذين رفضوا الأصنام وحرّموا الخمر على أنفسهم، وكما يقول البعض أنه قرأ التوراة وكتبها بالعبرانية وقرأ الكتب، وكتب الكتب العربية، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله^(٢)، ولم يرد خبر دخوله الإسلام إلا أنه طمأن خديجة وذكر أنه أخبرها بأنه - أي محمد - النبي المنتظر. وبالطبع تبعه أهل بيته خديجة وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة الذي كان عبداً لخديجة فوهبته لمحمد وتبناه، وصلّوا وراءه.

ثم دعا أصدقاءه المقربين كخطوة تالية ومنهم أبوبكر وقيل إن

(١) انظر جواد علي، عمدة القارئ ١٩/٣٠٤.

(٢) نفسه

أبا بكر لم يتردد في الدخول طبقاً للحديث (مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعِكم عنه حين ذكرته له وماتردد فيه).^(١) وتبع أبا بكر مجموعة من أصدقائه كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، ومعظمهم كانوا في سن محمداً شباباً ممثلاً بالحماس والرغبة في التغيير فضلاً عن وجودهم الواسطي في التقسيم الاجتماعية داخل مكة كما أسلفنا الذكر. وتبعه بعض العبيد والفقراء كبلال وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري، فأمدوا دعوته بالطابع التوري.

لم يكن النبي متعجباً في ضم الناس إلى دعوته، بل ظل ما يقارب الثلاثة أو الأربعة أعوام ولم يكن معه ما يزيد عن الأربعين، وكان عليه أن يعلمهم ماتعلمه، فيكون منهم قادة دعوته وحمله لوائها، فيستطيع بهم أن يبدأ إعلانها على الناس بعد ذلك.

وتكونت الجماعة الأولى من المؤمنين من تجار أثرياء نسبياً استطاعوا - لحد ما - أن يمدوا الدعوة بحاجاتها من المال وأن يشتروا بعض العبيد ويعتقوهم ويدخلوهم الإسلام، ومن رماة ومقاتلين شجعان كمسعود بن ربيعة القاري، وعتبة بن غزوان، ومن مملوكين كعامر بن فهيرة، إشتراه أبوبكر وأعتقه، وصهيب بن سنان الرومي مولى عبد الله بن جدعان وعمار بن ياسر ومن فقراء يشتغلون حماساً وحقداً، ومن قبائل مختلفة وحدها محمد تحت فكرة واحدة ووراء إله واحد باحثاً عن الإنتشارية في حذر، وعن تغلغل أفكاره وسط القبائل، فهذا مثلاً عمرو بن عبسة يقول (أتيت الرسول وهو

(١) سيرة ابن هشام. ٢٦٨/١، ابن سيد الناس ٩١/١

بمكة مستخفياً، فقلت: من أنت؟ قال. نبي. قلت. وما النبي؟ قال.
رسول الله. قلت: الله أرسلك؟ قال: نعم. قلت بم أرسلك؟ قال. بأن
نعبد الله ونكسر الأوثان ونصل الأرحام. قلت: نعم ما أرسلت به...
فأسلمت وقلت: أتبعك يا رسول الله؟ قال. لا ولكن إلحق بقومك (١)،
وحدث نفس الأمر مع أبي ذر الغفاري حين قال له النبي: إرجع إلى
قومك حتى يبلغك أمري، فيعود إلى قبيلته غفار ليدعو فيها للإسلام
ورغم عدم تجانس تلك التركيبة الأولى أو ذلك الفصيل الأول،
بمعنى إنضمام الغني والفقير والعبد والحر وبين قبيلة وأخرى، إلا
أن شيئاً كان أقوى من تلك الخلافات الراقدة تحت السطح قد
جمعهم. جمعهم شخصية محمد والتي لا بد أنها كانت تمتك قدراً
كبيراً من قوة التأثير وبلاغة الحجة. وجمعهم فكرة واحدة في
مواجهة متناقضات قريش. وجمعهم عداؤهم لقريش ورغبتهم في
التغيير. وجمعهم أحلامهم التي تنامت باتباع طريق الثورة كمثل
أعلى وكل فكرة جديدة. ثم فيما بعد وحدهم عداوة قريش لهم جميعاً
وبلا استثناء، فخلقت بذلك نوعاً من التجانس وسط خليط من الناس
ولأن محمداً كان واعياً بما يمكن أن يواجهه في مكة أثر الدعوة
الفردية الطابع، سرية المحتوى، خوفاً من أن يضربها الموج قبل أن
تمسك جذورها بالأرض. فكانوا يتقابلون في أطراف مكة وشعابها
وإن أرادوا الصلاة خرجوا فرادى أو مثنى إلى الشعاب والبرية
يُصلُّون على حذر ولهم عيون ترى القادم لتنبه المصلين عليه فلا
يؤخذوا على غرة (٢). وكانت الصلاة بلا أذان، فالأذان لم يعل إلا في
يثرب.

(١) الطبري ٥/٢.

(٢) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام ص ١٩٧

وعرف محمد أهمية العلاقات القبلية داخل جزيرة العرب وعصبية الدم الضاربة في جذور الزمن والتي لا يمكن أن يهدمها مرة واحدة، ورغم أن دعوته كانت بعيدة عن الروح القبلية إلا أنه كان يعرف أهميتها في الدفاع عنه ومؤازرته عند الحاجة، وقد قال القرآن ﴿وأنذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء ٢١٤، ورغم عدم دخولهم الإسلام إلا أنهم رغم ذلك دافعوا عنه وتحملوا الجوع والحصار في شعب أبي طالب من أجل رابطة الدم لا أكثر ولا غير. ولعل حضور العباس بيعة العقبة الثانية رغم وثنيته تحدد إلى أي مدى كان لتلك العلاقات من تأثير. (فعن ابن عمر أنه قال: لما أُسر الأسارى يوم بدر، أُسر العباس فيمن أُسر. أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أنهم قاتلوه فبلغ ذلك النبي فقال: لم أنم الليلة من أجل عمي العباس فقال له عمر فأتيهم؟ قال: نعم، فأتى عمر الأنصار فأخذه منهم. فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم وماذا لك إلا لما رأيت من الرسول يعجبه إسلامك، فاستشار النبي أبا بكر في أمر الأسرى فقال. عشيرتك فأرسلهم، وقال عمر: أقتلهم، ففداهم النبي.)^(١) وهكذا فعلت أيضاً العلاقات فعلها عندما إحتدم الصراع بين مكة ومحمد.

عرفت قريش دعوة محمد - فهي لا يمكن أن تبقى سرّية إلى الأبد - ورغم أنها لم تأخذها على محمل الجد، بل سخرت منها وهزأت بها. ثم حدثت وقعة شجار تافهة بين المسلمين وهم يصلّون في شعب أبي دب وبين بعض الوثنيين، فاسترجع محمد المسلمين واختفى بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم وهو رجل ثري من آل

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج ٣/٢٠١، ٢٠٢.

مخزوم الأقوياء في مكة وأمه من خزاعة وكان شاباً متحمساً، وكانت هذه الوقعة اختباراً لحكمة محمد ولجدية قريش. وقيل إن فترة الإخفاء لم تزد عن شهر وقيل إنها كانت عدة شهور حتى هدأت النفوس، وقيّم محمد كتيبته الأولى وإمكانية حماية دعوته فبدأ بعد السنة الرابعة من البعثة بالنضال العلني.

هكذا شكّل محمد تنظيمه القوي وسلّحه بالأفكار الجديدة واحتتمى بالسريّة وبتركيبة ذلك الفصيل، واحتتمى في رابطة الدم والعشيرة، ثم إن التهاء قريش عنه وإهمالها له وعدم معاملة دعوته بجدية، معتبرة بهؤلاء الذين خرجوا أو صباؤا من دين آبائهم من قبل، متخيلة أن الزمن كفيل باسترجاعهم إلى حظيرة الوثنية. ثم لم يبد في الأيام الأولى من دعوة محمد ما يهدد مصالح مكة التجارية أو موقعها المتميز. ونظراً للسريّة التي تمت بها كانت فكرة قريش عنها مشوشة غير كاملة الملامح، فلم تملك إلا أن تسخر منها. فأتاح ذلك الإهمال أن يثبت محمد جذوره بالأرض التي يقف عليها، ثم يفاجئهم واقفاً على رؤوسهم في الجبال والأسواق والكعبة وهو يصرخ فيهم بدعوته.

العلنية

يقول طه حسين (وأول ما يحسن أن نلاحظه هو هذا الجهاد العنيف الذي اتصل بين النبي وأصحابه من جهة وبين قريش وأوليائها من جهة أخرى. أما في أول عهد الإسلام بالظهور حين كان النبي وأصحابه في مكة مستضعفين، فقد كان الجهاد جديلاً خالصاً، وكان النبي يقوم وحده بإزاء الكثرة المطلقة من قومه يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات، فيبلغ منهم ويفحهم ويضطرمهم إلى الإغواء، وهو كلما بلغ من ذلك حظاً انتصر له من قومه فريق حتى

تكوّن له حزب ذو خطر، ولكنه لم يكن حزباً سياسياً ولم يكن يطمع في ملك ولا تغلب ولا قهر، أولم يكن ذلك في دعوته آنذاك. غير أن هذا الحزب كان كلما اشتدت قوته وقوى أسره، إشتدت مناضلة قريش له وفتنتها إياه، حتى كان ماتعلم من الهجرة الأولى ثم من هجرة النبي الى المدينة... ولكننا نستطيع أن نسجل مطمئين أن هذه الهجرة قد وضعت مسألة الخلاف بين النبي وقريش وضعاً جديداً، جعلت الخلاف سياسياً يعتمد في حله على القوة والسيف بعد أن كان دينياً يعتمد على الجدل والنضال بالحجة ليس غير..^(١).

فعندما خرج محمد بدعوته إلى الأسواق أحست قريش بخطرته، لكنها كانت مملوءة بالإستهانة به، ملهية عنه بنزواتها ورغباتها وصراعا وحياتها الصاخبة. حقاً لا بد وأنها كانت تخاف من تأثيره على الأعراب الذين يأتون للتجارة فيغريهم بالتمرد على سيادة مكة وهو لا يني يعرض نفسه على كل القبائل العربية هنا وهناك فيعد هؤلاء ويمتنع عن هؤلاء، فما هو يعرض نفسه على قبيلة بني شيبان ابن ثعلبة، فيلاينوه ويقولون: إن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا، فسألهم محمد: أرايتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم بلادهم وأموالهم ويقرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه، فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك ياأخا قريش.^(٢) ويعرض نفسه مثلاً على قبيلة «بني عامر بن صعصعة» فيجلس يحدثهم عن دعوته، فيقولوا له: (أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟! لكن محمداً لم يستطع ذلك الوعد فقال: الأمر لله حيث يشاء.^(٣)

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص ١١٩.

(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٦٦ وما بعدها.

(٣) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول. ص ٢٤.

ولا بد أن قريشاً كانت تخاف على آلهتها وآلهة القبائل لأنها مصدر للثروة والسلطة قبل أن تكون مصدراً للإمتلاء الروحي، فهم لم يكن يهمهم إله محمد بقدر ما أن هذا الإله يقرب الناس أو يبعدهم عن مصالحهم، فهم رغم وثنييتهم تعايشوا مع كل الأديان وعاشوا الحنفاء ووضعوا صورة المسيح والعذراء وتماثيلهما في الكعبة، بل إنهم قالوا في جدلهم مع محمد أنهم يعرفون إلهه لكن هذه التماثيل ليست إلا تقريباً لهم إليه، ذلك الإله الذي خلق الشمس والقمر والأرض وأسقط الأمطار وحرك الرياح، كما ذكر في مواضع كثيرة من القرآن^(١).

وبقدر استهانة قريش بقدر ما كانت إجراءات «ملاها» لمواجهة محمد، فسلبوا عليها جماعة من المستهزئين يسخرون منه، والمقتسمين الذين اقتسموا مكة ودأبوا على حضورهم المواسم وصد النبي عن الإتصال بالقبائل، ثم أخذت كل عشيرة توقع عقوباتها الخاصة بالتعذيب أو غيره على مسلميها. ثم حاولت قريش أن تجس نبض محمد فجزّبوها الإغراء قائلين له. إن كان يريد مالاّ جمعوا له من أموالهم، وإن كان يريد شرفاً جعلوه بجوارهم سيداً، لكن محمداً كان أذكى من هذا وقد تخطاه بمراحل فرفض عروضهم وعاد رسولهم عتبة بن ربيعة قائلًا لهم (..فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به..). ولم يفلح معه التهديد ورفض أبو طالب تسليمه إليهم.

(١) (..والذين إتخذوا من دونه أولياء، مانعهم إلا ليقرّبوا إلى الله زلفى..) الرمز، (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) يونس ١٨، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) العنكبوت. الخ

ولم تتوقع قريش أبداً أن دعوته سيؤمن بها الأعراب والقبائل، ونظراً لحالة مكة آنذاك لم يتبع محمداً عدد كبير، وقد قال سعد بن معاذ (إن محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل...) (١).

ظل محمد يدعو أكثر من عشر سنين وقليل ثلاث عشرة سنة في مكة قبل الهجرة ولم يزد المسلمون زيادة محسوسة، يؤكد ذلك هادي العلوي حين يقول (.. إن مسلمي مكة كانوا من المستضعفين والأحلاف وبعض الشباب القرشيين من العوائل العربية الارستقراطية وكان عددهم عند الهجرة لايزيد عن تسعين وقد نمت هذه الكتلة بسرعة بعد الهجرة) (٢). فإذا كانت فترة الإستخفاء ثلاث أو أربع سنين وعدد المسلمين بعدها أربعون، ثم فترة العلنية في مكة حوالي تسع سنوات وزاد عدد المسلمين إلى تسعين، أي خمسين مسلماً في تسع سنوات، فسنعرف مدى المقاومة التي لاقاها محمد في مكة. وبفرض عدم دقة الأرقام إلا أن الإتفاق العام يؤكد أن المسلمين قبل الهجرة كانوا قليلين جداً بالنسبة لعمر الدعوة آنذاك. فهل كانت إجراءات مكة لمواجهة محمد مؤثرة إلى هذه الدرجة؟ أم أن ارتباط أهل مكة غنيهم وفقيرهم بالكعبة كمصدر للرزق والحياة جعلهم يُزورون عن دعوة محمد؟ (٣)، أم أن قريشاً كانت متدينة قوية

(١) أنظر إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ص ٩٨.

(٢) مجلة «دراسات عربية»، مايو ١٩٨٦، مصوص منسية من التراث، ص ١٠٦.

(٣) أنظر أحمد صادق سعد، النمط الآسيوي ص ٨٤ وهو يقول (كانت التجارة والغنائم الحربية توفر «للحكام» موارد لاتتصل مباشرة بالزراعة أي بالوضع للإنتاج الداخلي، فتعطي لأجهزة «الدولة» إمكانية أكبر للإستقلال والإرتفاع عن البنية السفلى للمجتمع فمنح هذا للدولة نوعاً من الحصانة النسبية والإستقرار إزاء الإضطرابات التي يمكن =

الإيمان بدينها ولهذا الدين وللإيمان به جاهدت ماجاهدت وضحت بماضحت^(١)، أم أن محمداً قد فشل في تلك المرحلة في أن يتخطى عزلة المدن والقرى والواحات وهو يدعو إلى فكرة تعدد الناس بجزءاء في العالم الآخر بعد الموت قبل أن تعدهم بملء بطونهم الخاوية أو بجنات في الأرض وليس في السماء؟ ولعل قولة أبي لهب ابن عبد العزى بن عبد المطلب (يعدني محمد أشياء لأراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك؟ ثم ينفخ في يديه ويقول (تباً لكما، لا أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد! فيرد القرآن ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢))، نقول لعل قولته تلك تعبر عن ذلك ولا سيما وأن ذلك الجدل لم يتحول إلى أداة فعالة بإضافة القوة إليه لتدب فيه الحياة ليصبح كائناً حياً مسلحاً يضرب بأسنة السيوف وعنف الحراب فيُقرُّ حُجَّةً ويُقوِّض حجة أخرى.

والأسئلة كثيرة كثيرة، لكن المؤكد أن تلك السنين الطوال من الدعوة السلمية لم تؤت ثمارها بتغيير حالة المسلمين تغييراً جذرياً وإنما كانت ذات فائدة كبيرة فيما يسمى بلغة العصر الحديث «الدعاية السياسية». فرغم عدم تبعية القبائل للإسلام في هذه الفترة، إلا أن دعوة محمد كانت قد تخطت العزلة، فطيرتها الأنباء والأسواق، والرحالة من مكان لآخر، وسمع بها الجميع داخل جزيرة العرب، بل كانت الهجرة للحبشة نوعاً من الدعاية للإسلام خارج حدود شبه الجزيرة، وهي لم تكن هجرة بالمعنى المفهوم للكلمة وإنما

ان سميها طبقيه) ورغم ان الجزيرة لم تكن دولة إلا اما يمكن ان نرى ذلك مشابهاً بوجه من الوجوه للحالة التي كانت عليها الجزيرة قبل واثناء البعثة مما جعل الصراع الطبقي غير واضح الملامح وأقل حدة
 (١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص ٧٥
 (٢) سيرة ابن كثير ٤٩/٢

كانت إجراءات وقائياً لحماية المسلمين في البداية نتيجة ضغوط قريش عليهم لكي لا يضعفوا في مواجهة الأهل والأصدقاء والأبناء والمصالح، وكانت وسيلة للتجارة أيضاً، فكثيرون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا ثم عادوا والذين عادوا أول مرة هم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت النبي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامراته، وعبد الله بن جحش، وعتبة بن غزوان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم قيل إنهم كانوا ثلاثة وثلاثين رجلاً، ونلاحظ فيهم التاجر والمثقف كعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير، فإذا راجعت شخصية هؤلاء، لاكتشفت إلى أي مدى كان ذلك الاختيار ذكياً، ولعل اختيار مصعب كأول مهاجر للمدينة كان يحمل دوره في الدعاية للإسلام. وربما أضيف إلى تلك الدعاية السياسية مع الغادين والرائحين من هوى النفوس وحكايات القصاصين، وربما وصلت إلى القبائل البعيدة فأدهشت البعض وأثارت البعض الآخر، لكنها لم تقلب حياة الناس رغم هذه الأعوام الطويلة من الجدل بين محمد والقبائل. ولأن محمداً كان مدركاً لأسباب إمتناع العرب عن دعوته، كان يقول لهم: لأُكره أحداً منكم على شيء، فمن رضي بما أدعو إليه فذلك. ومن كرهه لم أُكرهه، وإنما أريد أن تُحرزوني فيما يراود لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي. وكان العرب يقولون: أفسد قومه ولفظوه، فلا حاجة لنا به. ^(١) ولما تغيرت الموازين، أمر بقتالهم حتى يسلموا فرفضوا للسيف طوعاً أو كرهاً.

ثم جاءت الفرصة التاريخية والتي أتاحت للفكرة الإسلامية أن تخرج من عزلتها وأن تمتلك وسائل قوتها فتضرب وتغنم، ثم تضرب فتنتصر، ثم تضرب فتُرهب، ولم تنته تلك المرحلة القصيرة نسبياً

(١) سيرة ابن كثير. ١٥٨/٢.

- بحكم الأحداث الجسام التي وقعت فيها - إلا وقد بسط الإسلام سيادته على كل أرض العرب. وهذه الفرصة التاريخية تمثلت في بيعة العقبة الثانية، والتي ذكرنا تفصيلها سابقاً. وهنا بالذات أدركت قريش جدية الموقف وخطورته، فلو أن تلك البيعة قد تمت بين محمد وبين قبائل عربية أخرى، لاتمر تجارة مكة عليها، فإنها ماكانت قد قابلت الأمر بذلك الفرع الذي تجلى في تصرفاتها، لأن تجارة قريش مع الشام ستصبح مهددة من ذلك الحلف الجديد، ففي الصباح التالي ليلة العقبة، عرفت قريش بالأمر، فذهبوا من فورهم إلى رحال أهل يثرب وقالوا لهم: يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله مامن حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم)، فإنبعث وثنيوا يثرب يحلفون ماكان من هذا شيء وماعلموه، وانطلقوا إلى عبد الله بن أبي سلول، فقال لهم: إن هذا لأمر جسيم، ماكان قومي ليتفرقوا على مثل هذا.^(١) واجتمعت قريش على عجل في دار الندوة وقرر الملاء أن يتم التخلص من محمد ويكون قتله جماعياً بحيث تشترك فيه كل بطون قريش ليتفرق دمه، فتعجز عشيرة محمد عن حربها جميعاً فتقبل الدية، لكن النبي كان متوقفاً لغضبة قريش فقرّر الهجرة إلى يثرب قبل أن تطوله أيديهم، فدخل إلى شعب أبي طالب ليمنع عنه أذى قريش وكان إذا جاء الليل رقد في مكانه أحد أولاد عمومته.

وبالهجرة بدأ محمد مرحلة جديدة وانتهى من مرحلة قديمة، لقد جاءت فرصته التاريخية وما كان له أن يتركها تضيق من يديه، وكانت نقطة تحول كبرى في تاريخ القوة الإسلامية ويؤكد ذلك طه

(١) نفسه. ص ٢٠٤، ٢٠٥

حسين حين يقول: «منذ هاجر النبي إلى المدينة، تكونت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادية وبأسها الشديد، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة إلى شيء آخر فيما يظهر أعظم خطراً في نفوس قريش من الدين وما يتصل به وهو السيادة السياسية في الحجاز، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل إليها بتجارتها في الشتاء والصيف. وأنت تعلم أن محاولة الإستيلاء على العير هو أصل الواقعة الكبرى الأولى بين النبي وقريش في بدر. فليس من شك إذن في أن الجهاد بين النبي وقريش قد كان دينياً خالصاً ما أقام النبي في مكة، فلما انتقل إلى المدينة أصبح هذا الجهاد سياسياً ودينياً واقتصادياً وأصبح موضوع النزاع بين قريش والمسلمين ليس مقصوراً على أن الإسلام حق أو غير حق بل هو يتناول مع ذلك الأمة العربية أو الحجازية على أقل تقدير لمن تدعن والطرق التجارية لمن تخضع...»^(١).

(١) في الأدب الجاهلي، ص ١١٩.

(٣) فك الحصار

كان حلف العقبة الثانية فرصة تاريخية للنبي ليخرج من عزلته وحالة الحصار التي عاشها داخل مكة بعد أن تجمدت أوضاع دعوته عند أقلية لاتزيد إلا ببطء شديد كما ذكرنا. وكانت يثرب أهم نقطة في ذلك التحول، لأنها لم تكن مدينة كأى مدينة ولا واحة كأى واحة، وإنما كانت المدينة الثانية بعد مكة في الأرض الحجازية، وأول مدينة خصبة ذات زرع ومياه، وبها تمر طرق التجارة إلى الشام ومنها، وبها أهل الكتاب الذين تركوا بذرة توحيد داخل نفوس أهلها فكانت مؤهلة لتقبل الدعوة الجديدة ومستعدة لنصرتها، وبها مقاتلون أشداء ذوو خبرة طويلة في حروب المدن وحروب الصحراء وغارات البدو والصراعات القبلية، وقيل إنهم كانوا أهل القلاع والدروع والأطام الحصينة، وفوق كل شيء فهي مدينة لم تكن غريبة على محمد، ففيها أخواله من بني النجار وأمه منهم^(١). وقبل كل شيء فهي مدينة مات ساداتها في قتال دموي طويل، فكانت بلا سيد حقيقي ومنهكة مقطوعة الأنفاس بعد وقعة «بعث»، وكانت أحلافها مع مكة تتغير وتختلف طبقاً لحالة الصراع داخلها، وبها بنية إقتصادية تعتمد على الزراعة والرعي، كأساس أكبر للحياة عكس حياة المكين التي تعتمد

(١) أنطرجواد علي تاريخ العرب في الإسلام وسيرة ابن هشام ص ١٠٢، ١٠٨

على التجارة والدين بشكل أساسي، لكن الصفة العائلية أو العشائرية كانت أكثر وضوحاً من الصفة الطبقية كبقية الحياة داخل شبه الجزيرة.

كانت مكة إذن، نقطة قوية لم يستطع محمد تذليلها، لكنها كانت نقطة الدعاية التي عرفت بها الجزيرة العربية كلها دعوته، ولم يكن له في القبائل سوى أتباع قليلون، وكان البعض قد فرّ إلى الحبشة كملجأ أمين في زمن الضعف الأول.

وبمناصرة يثرية ظلت تتنامى على مدى عامين، كانت التفرة تتسع لينفذ منها، فتصبح نقطة رحبة وأقل مقاومة أو بلا مقاومة حقيقية له. فيثرب منقسمة على نفسها وقد فني ملؤها، ويثرب لا تملك كعبة يحج إليها العرب، وليست تجارتها محور حياتها، وأثرى الأثرياء يملكون بقوافلهم عليها غداً ورواحاً فيثربوا شهيتها وحسدها، وهكذا استقبلت يثرب محمداً. فنظر غير المتحمسين إليه بحذر إنتظاراً وتوقع اليهود في مستعمراتهم يتبعونه شذراً إلى أن تأتي الأيام بجديد، ونظر المتحمسون إليه كقائد بديل يلتقطون أنفاسهم خلفه بعد حروبهم الطويلة.

التراكمات

لم تتحدث كتب السيرة تفصيلاً عن كيف عاش المهاجرون داخل يثرب، عدا بعض الإشارات القرآنية وبعض الروايات تحدثت عن نصرة الأنصار ومشاركة المهاجرين في أموالهم وبيوتهم وحتى نسائهم. وهو أمر رغم أهميته إلا أن روح المبالغة قد سادته. ولم تذكر كتب التاريخ عدد الذين دخلوا الإسلام بعد الهجرة مباشرة، سوى أننا وكأننا نقرأ في كتب السيرة أن كل أهل يثرب قد أسلموا عدا اليهود. وفي القصص تبدو يثرب كلها مستقبلية لمحمد مرحبة به

بلا جدال وبلا روية ولا أخذ ولا رد، وأن محمداً قد دخل يثرب زعيماً لها وقائداً متحكماً في أمورها، وكأنها كانت خالية تماماً من قادة قبائلها وزعمائهم، ومن الوتنيين ودينهم ومن اليهود وسادتهم. ونرى في القصص والروايات الإعلامية الطابع إشارات طفيفة لاتغني ولا تسمن من جوع، فتزداد حيرتنا أكثر، لأنه لا بد وأن ليثرب حياتها الخاصة، الدينية والعقائدية والإقتصادية والإجتماعية، ولسادتها الجدد ولناسها وعشائرها أهواؤهم وقناعاتهم ومصالحهم وأحلافهم القديمة ونظمهم السائدة فلا تستسلم هكذا ببساطة أمام وافد غريب عليها، وهذا أمر لم تعرفه العرب وغير العرب، ويناقض طبيعة الأشياء، ولا سيما وأن محمداً لم يدخلها فاتحاً بقوة السلاح وإنما دخلها ملتحقاً إليها من بطش قريش.. وهناك رواية أكدها القرآن في قوله ﴿... هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ المنافقون ٧، وقال البخاري (عن جابر بن عبد الله قال كنا في غزاة فكسح رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا للأنصار، وقال المهاجري يا للمهاجرين، فرد النبي بعد أن سمع قصتهما دعوها فإنها منتنة، وقال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل^(١)، ثم قال يا بني الأوس والخزرج عليكم صاحبكم وحليفكم ثم قال.. والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمْنٌ كَلْبِكَ يَأْكُلُ^(٢). فقال عمر ابن الخطاب دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، لكن حكمة

(١) صحيح البخاري، ح ١٧٧ / ٠٣ - ١٧٨.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج ٦ / ٢٢٥.

محمد قالت: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.
ورغم حدوث هذه القصة فيما بعد وكانت قوة المسلمين قد ازدادت بكثير عن ذي قبل، إلا أنها كانت تعكس نفسية بعض أهل يثرب الذين كانوا يتبعون محمداً وهم غير راضين، فإن انتصر كانت لهم، وإن كانت عليه فهم لم يقطعوا حبّالهم كلها مع أحلامهم ومصالحهم وأحلافهم القديمة. ومن هنا يتضح أن محمداً دخل يثرب تحت حماية بعض الخزرجيين وتحت مظلة أحد زعمائها سعد بن عباد، وأخذ وضعه شبه القيادي على مجموعة المسلمين فقط لا على يثرب كلها كما تشير إلى ذلك بعض كتب التاريخ إستناداً إلى الصحيفة التي كانت بين محمد وعشائر يثرب كلها في نصها.. (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد).^(١) معتمدين على أن تلك المعاهدة قد وقعت بعد الهجرة مباشرة. لكننا نعتقد بأن تلك المعاهدة - إن كانت النصوص المذكورة في محتواها دقيقة - لم تحدث إلا بعد معركة بدر وكما تؤكد ذلك بعض كتب السيرة، ونرى ذلك منطقياً بحكم توازن القوى داخل يثرب بعد بدر، ذلك الأمر الذي لا يمكن حدوثه ومحمد وأصحابه أقلية هاربة لاجئة من بطش قريش معتمدة على موافق بيعة العقبة بينه وبين من ناصره من أهل يثرب. وسنقرأ نصوص تلك الصحيفة تفصيلاً فيما بعد. ومما يؤكد هذا الأمر هو أن جماعة المسلمين من المهاجرين والانصار كانت قليلة بالنسبة لبقية أهل يثرب في تلك الأيام الأولى - بل بعد ما يقارب العامين في يثرب - وأصدق تعبير عن ذلك، أقصى إمكانات التعبئة الإسلامية في وقعة العير (معركة بدر) لم تزد عن ثلثمائة رجل، منهم حوالي المائة من المهاجرين والبقية

(١) انظر. عمر شريف كتاب الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ص ٢٠ - ٢١.

من الأنصار، فهل يعقل ليثرب بتاريخها الحربي الطويل أن تكون هذه أقصى إمكانات تعبئة لديها، إن لم يكن عدد المسلمين آنذاك ليس من الكثرة بمكان يجعلها تواجه قريشاً التي خرجت بألف رجل لتتقذعيرها؟! الأمر الآخر هو قدرة التعبئة المدنية والتي وصلت الثلاثة آلاف رجل - أي عشرة أضعاف جيش بدر - في معارك تالية سيرد ذكرها في الفصول القادمة.

علينا إذن، أن نراجع كتب التاريخ وننكشف فيها علناً نجد مايمكن أن يجيب عن هذه الأسئلة، لكن للأسف لانقرأ سوى أن العقيدة قد ملأت أهل يثرب فاستهانوا بكل شيء، بحاجاتهم وتاريخهم وتراثهم ودينامهم كلها وناصروا الوافدين عليهم الملتجئين إليهم بلا تردد وأعطوهم عقولهم يتصرفون فيها كما شاءوا، ونصف نسائهم ينكحونهن، وأرضهم يشاركونهم فيها رزقها وخيرها.^(١)

ونحن بالطبع لاننكر دور العقيدة الجديدة، ولكننا لانستطيع أن نهمل مالعوامل الأخرى من تأثير كبير ولا سيما وأن العقيدة كانت جديدة ولم تكتمل بعد شرائعها وقرآنها ووسائل وحدتها كبنية فكرية متكاملة واحتاجت وقتاً طويلاً لتكون بالصورة التي أصبحت عليها بعد فتح مكة، واحتاجت وقتاً أطول بعد ذلك لتمكن من قلوب الناس.^(٢)

وهنا يثور سؤال يحتاج إجابة شافية، وهو كيف واجه المهاجرون حياتهم الأولى من ناحية المآكل والمشرب والمعاش، فإن

(١) أنظر سيرة ابن هشام وابن إسحاق وابن كثير وغيرها لتتأكد من هذا الأمر
(٢) (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) المائدة ٣.
بعد فتح مكة في حجة الوداع

لم نهمل دور الأنصار في المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين^(١)، علينا أيضاً ألا نهمل إمكانيات المهاجرين حينذاك، بل علينا أيضاً أن نسأل إلى أي مدى كانت تلك المؤاخاة فعالة في حل مشكلات اللاجئين الجدد بأسرهم وحاجاتهم؟ فغنى الأنصار لم يكن من النوع المكي الفاحش، ورغم خصوبة أرض المدينة ومائها إلا أنها بكل الحسابات النسبية كانت واحة فقيرة وزعت إمكانياتها طبقاً للتقسمة الإجتماعية القبلية داخلها، فاستحوذ اليهود على نصيب كبير واستحوذت قبيلتا الأوس والخزرج على نصيب آخر أيضاً وكما قلنا فإن المسلمين كانوا قلة، وبالتالي كانت إمكانياتهم في هذه التقسمة - رغم ما أخذوه معهم من أموال - ليست عالية جداً، ولم يكن محمد قد تمكن من الأمور أو آل إليه مصير يثرب، ونامت كل عشيرة على ماتمك بما يكفي حاجاتها ويؤمن حياتها وهو لم يكن رزقاً يسيراً أو سهلاً يمكن التفريط فيه بتلك البساطة، وإن دخل نظام المؤاخاة هنا فإن مشاركته لا بد وكانت مشاركة رمزية أكثر منها حلاً لحاجات المهاجرين أو حلاً لمتطلبات الصراع الذي اندلع بعد قليل لأن إمكانيات الأنصار وحدهم كانت قليلة بفعل العوامل السابق ذكرها

كان بعض الذين هاجروا أغنياء لحد ما، كعثمان وابن عوف وأبي بكر، فجعلوا جزءاً من رصيدهم المالي لمساعدة المهاجرين، لكن نموهم قد توقف بفعل مغادرتهم مكة وحرمانهم من أهم مورد وهو التجارة. وكانوا قد حملوا كل أموالهم السائلة معهم كما فعل أبو بكر

(١) (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فصلاً من الله ورضواناً) والذين تنووا الدار والايامن من قلوبهم يحبون من هاجر إليهم ولا يحدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (الحشر ٩،٨

حينما لم يترك شيئاً كما تروي كتب السيرة، وأصولهم كاليوت والعقارات والأراضي تركوها في حوزة أقاربهم وعائلاتهم لحمايتها رغم أن بعض الآراء تنوّه إلى خروج المسلمين إلى غير مكة لم يكن إلا إنتقاماً لأموالهم التي أخذتها قريش واستولت عليها ، وقصة خاطب ابن أبي بلتعة تشير إلى أهمية النسب في حماية الأموال من أن تطولها يد قريش، فقد روي أنه كان يكتب إلى المشركين بمكة عن أخبار النبي، فتم ضبط كتاب كان قد أرسله لمكة، وعندما سأله النبي عن سبب ذلك قال: أحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصنع إليهم يدأ يحمون بها أهلي وأموالي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فأمرهم الرسول بالألا يتخذوا عدوهم أولياء يلقون إليهم بالمودّة، كما جاء في سورة الممتحنة الآية ١. (١) بل إن بعضهم كان قد استاء من المشركين على أموالهم بمكة، فهذا عبد الرحمن بن عوف يقول (كاتبت أمية بن خلف أن يحفظني في صياغتي بمكة وأحفظه في صياغته بالمدينة..). (٢)

ولم يتخل هؤلاء عن طبيعتهم القديمة فقاموا فتاجروا مع أهل يثرب. تاجر عثمان وابن عوف وغيرهم، بل وقيل إن ابن الخطاب نفسه كان يتاجر، فقد أخرج البيهقي (٣) أن عمر بن الخطاب مرّ بغلام وهو يقرأ في المصحف ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾ فقال. يا غلام إمحها، فقال: هذا مصحف أبي، فذهب إليه فسأله، فقال: إنه النبي كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق (أي عندما كنت أحفظ القرآن عن محمد كان

(١) السيوطي الدر الممتور ج ٢٠٢/٦

(٢) أنظر السيرة النبوية لإس كثير ح ٢ / ٤٦١ ومابعدها

(٣) البيهقي (هو أدوكر أحمد بن الحسين بن موسى الخسروجري صاحب التمسانييف من حراسان ٣٨٤ - ٤٥٨هـ). أنظر سببه الكبرى

يأمركم أنتم بالتجارة). واشترى النبي والمهاجرون الأغنياء مريداً ليبنوا فيه مسجدهم ونظفوا مقابر قديمة وخرائب قطعوا نخلها كانت تتبع بني النجار قرابة النبي، فبنوا فيها دورهم ومسكنهم.

يروى الطبري في تفسيره عن جابر بن عبد الله أنه قال (بينما النبي يخطب يوم الجمعة قائماً، إذا قدمت غير المدينة فاستدرها أصحابه حتى لم يبق منهم إلا إثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر)، فقال القرآن ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا، قُلْ مَاعِزٌ إِلَهُ خَيْرٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الجمعة ١١، وقال النبي متألماً من موقف الصحابة: والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى معي أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً. (١) وقد وقعت حادثة بعد فداء أسرى بدر تذكر بأن سبعة من المهاجرين كانوا ينفقون على أسارى مشركي بدر منهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح (٢) فهل كان رصيدهم يسمح بذلك ولاسيماً وأن عدد الأسرى كان سبعين رجلاً؟ مما أثار ثائرة الأنصار فقالوا: قتلناهم في الله ورسوله وتوفونهم بالنفقة! ورغم منطقية غضبهم في تلك الأيام الصعبة إلا أن الروح العصبية كانت تفعل فعلها أحياناً بشكل ظاهر أو خفي، وقد حسم القرآن الأمر في سبع عشرة آية من سورة الإنسان وأعداً هؤلاء المنفقين بالجنة ﴿... يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً...﴾. وقد كان محمد واضعاً في اعتباره انتقام قريش منهم قبل كل شيء محاولاً أن يكسب الأسرى في صفه فوقف في صف

(١) تفسير ابن جرير ٦/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) السيوطي، الدر المنثور ٦/ ٢٩٨.

المهاجرين رغم غضب الأنصار.

ويروى أن النبي قد أخى بين ابن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى، فقال سعد له: أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذ، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب لك أطلقها وتزوجها، فردّ ابن عوف قائلاً: دأوني على السوق. وخرج إليه فاشترى وباع وربح. وبسبب غناه الفاحش قال له النبي (إنك ستدخل الجنة حبواً فاقرض الله يطلق قدميك).^(١)

ورغم إنشغال بعض الصحابة بالتجارة في يترّب وحولها، إلا أن ذلك لم يكن مؤثراً ولا فعلاً، وقد كان المهاجرون بلا عمل حقيقي يؤمن تراكمياً ينقل جماعة الإسلام الأولى من حالة الحاجة إلى حالة الإكتفاء. ربما يكون بعض فقراء المهاجرين قد عمل في أرض الأنصار أو في أراضي غيرهم، لكن ذلك لا يكفي بحكم أن يترّب كانت مشبعة بسكانها وحاجاتها، فكان اللاجئين عبئاً حقيقياً على يثرب لولا أن الأحداث قد أخذت وجهة أخرى.

وربما كانت تلك الحاجة، بل كانت كذلك، هي العامل الأساسي في دفع عجلة التاريخ بسرعة كبيرة لتتخطى هؤلاء الذين يأكلون أرصدتهم القديمة، لتضيف أرصدة جديدة أعطت القوة الناشئة وغذتها، وبها إكتشفت تلك القوة نفسها وقدرتها على الفعل، بل وقدرتها على المبادرة في وقت كانت قد تحررت نهائياً من قيود القلبية

(١) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول ص ٥٨٨.

(انظر كتاب د إبراهيم بيضون. تكوّن الاتهامات السياسية في الإسلام ص ١٠١، وهو يتهم عبد الرحمن بن عوف بأنه أحد مدبري إعتيال عمر بن الخطاب قائلاً «فقد إنتقل هذا الصحابي الشديد الثراء فجأة إلى واحدة الأحداث بعد أن عاش في الظل طويلاً، منصرفاً إلى شئونه المالية والتجارية والتي أصاب فيها الموقع الأقوى منذ الهجرة إلى المدينة.»)

وأحلافها القديمة، فأعطاهما مساحة واسعة من الحركة، فاندفعت بلا تردد تجني الإنتصارات والغنائم تلو الغنائم تلك التي شكلت أهم مورد إقتصادي لنواة الدولة المحمدية الآخذة في التشكل ونحن هنا نتكلم عن الحاجة الملحة للعيش، تلك التي قال فيها النبي (اللهم إنهم جياع فأشبعهم. اللهم إنهم عراة فاكسهم. اللهم إنهم ضعاف فقوهم)^(١)، قبل أن تكون القضية قضية دين، هذه الحاجة نفسها هي التي دفعت محمداً وأصحابه لاعتراض طريق أكبر قافلة تجارية في مكة محاولين السيطرة عليها. فقد روي عن أبي أيوب الأنصاري قال. قال لنا الرسول ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت، ماترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا. فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، أمرنا الرسول أن نتعأد، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبي بعدتنا. فقال: ماترون في القوم فإنهم أخبروا بمخرجكم فقلنا يارسول الله: لا. والله مالنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للغير. ثم قال ماترون في قتال اليوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لاتقولوا كما قال أصحاب موسى لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون. فقال القرآن ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذ يעדكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين..﴾ الأنفال ٦٥، ٧، ٨. فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم وإما العير طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا

(١) (ولبلونكم بسبيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبسر الصابرين) البقرة ١٥٥

مع القوم فصففنا فقال النبي: اللهم إني أتشدك وعدك.^(١)
 لكن اعتراض العير هذا لم يأت فجأة، فقد كان محمد يجهز له
 وهو يستكشف الطرق والممرات والجبال حول يثرب، وليجس نبض
 قريش ويعرف نواياها وهي ترسل ببعض فصائلها وخيالاتها لحماية
 الطرق واستطلاعها قبل خروج القوافل التجارية. أرسل محمد حمزة
 ابن عبد المطلب على رأس جماعة من المهاجرين إلى سيف البحر
 ناحية العيص ليعترض العيرات لقريش وهناك التقت القوة الإسلامية
 وعددها ثلاثون رجلاً بقوة من أهل قريش وعددها ثلثمائة رجل على
 رأسها عمرو بن هشام.^(٢) ورغم المبالغة في عدد قوات قريش
 وجعلها دائماً عشرة أضعاف القوة الإسلامية (ثلاثون وثلثمائة)، إلا
 أنه لم تحدث معركة بين القوتين وقيل إن عدم حدوث معركة هو
 توسط مجدي بن عمرو الجهني بينهما. والأرجح أن المعركة لم تحدث
 بسبب عدم تناسب القوتين ولا سيما وأن السرية الإسلامية كانت
 لاستكشاف الطرق وجس النبض وقطع طريق بعض القوافل إن أمكن
 ذلك وربما كانت القوتان المتواجهتان محدودتي العدد، وربما لم
 تلتقيا على الإطلاق.

وتحدثت كتب السيرة عن أمر بالغ الأهمية، وهو أن بعض
 الذين أيدوا محمداً ولم يدخلوا الإسلام أو دخلوه وكنموه عن قريش،
 أبقاهم محمد في مكة لاستطلاع أمر قريش ونواياها وهو ما يمكن
 تسميته بالجوسسة والتخاير بلغة العصر الحديث، ومنهم العباس عم
 النبي، وأبا البَخْثُري بن هشام بن الحارث بن أسد واتضح ذلك خلال
 وقعة بدر عندما قال الرسول لأصحابه (إن رجلاً من بني هاشم ومن

(١) السيوطي الدر المنثور ١٦٢/٣

(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها

غير بني هاشم قد أخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدهم فلا يقتله. من لقي أبا البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله...»^(١).

ونعتقد أن مكة كانت تفعل نفس الشيء بالنسبة لمحمد، ولا بد أن مهاجرين من مكة كانوا جواسيس على المسلمين، وقد انكشف أمر بعضهم، فبرروا ذلك بأنهم يصلون قريشاً حمايةً لأهلهم وأموالهم بمكة، وقد قال القرآن عن ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال ٢٧، ٢٨. وأخرج ابن جرير عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وذكر أيضاً أن زينب بنت النبي كانت في مكة ولم تهجر إلى المدينة حتى أسر زوجها أبو العاص بن أمية في وقعة بدر، فذهبت ليثرب لفدائه بلا مقابل.^(٢)

وأي (أن النبي بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين أو ثمانين رجلاً من المهاجرين لاستطلاع الموقف، خارج يترقب، ولما وصلت هذه السرية إلى ماء بالحجاز أسفل (ثنية المرة) إلتقت بجمع عظيم من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل ولم يقع بينهما قتال، ويبدو أن هاتين السريتين السابق ذكرهما كانتا في وقت واحد وتكشفت كل منهما عن بداية النشاط الفعلي لنظام «ولاية الحرب» في الإسلام)^(٣) وذكر أن عدد تلك السرايا المرسله لقطع طرق القوافل التجارية واستكشافها وصل إلى ثمانية قبل وقعة بدر.

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول. ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٢) أنظر سيرة ابن كثير. ٥١٦/٢ وما بعدها.

(٣) إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ص ٧٩.

كان محمد، إذن، يعد لمعركة ويمهد الطريق والنفوس لها، فلم يضيع وقته، وخرجت سرايا قليلة العدد في البداية تتبعها بسرايا أكبر نسبياً، وبعد أن كانت تقتصر على المهاجرين، تشجع الأنصار وخرجوا بعد ذلك وهم يرون تلك السرايا تذهب وتعود بالغنائم، فلم إذن ظلوا محافظين على عهودهم القديمة بعدم التعرض لطرق التجارة وقد أخذوا موقفاً مناصراً لمحمد وأصحابه؟ وخرج النبي نفسه على رأس بعض السرايا كما حدث في غزوة بواط والعشيرة والأبواء وغطفان وبني سليم. وبعضها كان يصل لمئتي رجل، ولم تحدث فيها معارك تذكر رغم عودتها ببعض الغنائم بسبب الإنقضاض الفجائي على القبائل. وكانت هذه القوات وسيلة من وسائل تدريب ذلك الجيش الجديد وتهيئته للقتال. وكان ذلك الإعداد في الميدان ذا أهمية ملحوظة في نتائج معركة بدر.

وكانت أول وقعة حقيقية بين مكة ومحمد هي وقعة نخلة في السنة الثانية للهجرة عند نخلة بين مكة والطائف (قيل إنها كانت قبل بدر الكبرى بشهرين)، وكان على رأس سرية المسلمين عبد الله بن جحش، وعلى رأس سرية قريش عمرو بن الخضرمي الذي قُتل في تلك الوقعة وكانت في شهر رجب أحد الشهور الحرم. لكن القرآن كان قد قال ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير﴾ البقرة ٢١٧، وغنم المسلمون في هذه الوقعة بعض العير والأموال وأسيرين وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال. وهكذا كانت النفوس مستعدة لمعارك قادمة بعد أن أخذت الأمور تنمو في اتجاه الحرب الشاملة مع مكة وأصبح محمد خطراً حقيقياً على طرق التجارة وهو يرقب القوافل ويقطع الطرق والممرات وينقض ليلاً ونهاراً ويخوض المعارك الصغيرة. وما كانت تخاف منه

قريش قد حدث فعلاً. وكانت كل الأحداث السابقة مؤشراً لذلك الذي سيحدث بعد قليل باعتراض أكبر قافلة تجارية في تاريخ مكة كله. أما القافلة فقد نجت بفعل قائدتها الداهية أبي سفيان، لكن قريشاً لم تنج من آثارها، فالطرق التجارية أصبحت مهددة بأصحاب محمد ومناصريه، وبإقحام يثرب في الصراع مع مكة. فليدعُ محمد لإلهه ماشاء أن يدعوا أما أن تخسر قريش طرقها وتجاريتها ومستقبلها، يعني أن تخسر سيادتها الكلية على الحجاز وبلاد العرب ويعني أن تخسر مورد حياتها الرئيسي وتعيش في جذب حياتها بلا مستقبل.

وعليه، جمعت غضبة قريش حوالي ألف رجل وستين فرساً وستمئة درع، على عجل، لتؤدب هؤلاء الخارجين على القانون الذي ظل يحكم طرق التجارة وأحلافها قروناً طويلة من الزمن.

وفي غضبتها كانت مستهينة بقوة المسلمين وبعدهم القليل وعدتهم الضعيفة، فتصرفت على أساس أنها معركة محسومة قبل أن تبدأ، فاختلط الغضب والخوف على العير بالتسرع والاستهانة، فخلق روحاً من الفوضى في ذلك «الجيش» المترهل الذي عبى على عجل، بل خرجوا من مكة إلى بدر مصحوبين بضجة القيان والدفوف لتعرف العرب بأنهم أقوياء. وقد عبر القرآن عن ذلك قائلاً ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيَاءً﴾ الأنفال ٤٧.

بينما «كان الدين الإسلامي قد زود أتباعه في يترب بصفات ضرورية للحرب والقتال لم يعرف عنها العرب إلى ذلك الحين غير مجرد أسمائها وهي النظام والاستهانة بالموت. أما النظام فقد لقنه الرسول لأتباعه عن طريق الآيات التي تدعو إلى طاعة الله والرسول، ثم إن الصلاة الجامعة التي أداها المسلمون وراء إمام كان هو الرسول غالباً بنفسه، قد شجعت روح النظام بفضل دورها في

تربيتهم على الطاعة. فمن يرى صفوف المسلمين في الصلاة، لا يمكن أن يغفل ما كان لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين منذ أول الأمر، إذ يكفي أن يتذكر المرء فقط أن ذلك التسبب كان ألباً لا يخضع لمشية خارجية وأنه افتقر إلى الشعور التام بالطاعة، يكفي ذلك لأن يقدر في الحال ما لهذه الصلاة من أهمية في إيقاظ روح النظام والمحافظة عليها. ولذا غدا مكان الصلاة وهو المسجد أول ميدان حقيقي للتدريب العسكري عند المسلمين والإعداد للتعبة من أجل القتال. وجاء نظام الصف الذي تدرب عليه المسلمون في صلاتهم أول تجديد في «التكتيك»^(١) الذي استخدمه الرسول في غزوة بدر، إذ أمسك النبي بعصا قصيرة في يده وسوى بها صفوف أصحابه في دقة وحزم إستعداداً للمعركة ولا يدع لأحد منهم أن يتقدم أو يتأخر عن مركزه إلا بإذنه»^(٢).

صف النبي جيشه في سرايا وجعل شعار المهاجرين / يابني عبد الرحمن، وشعار الخزرج / يابني عبيد الله، وشعار الصحابة / أحد أحد. وكان ذلك لسهولة قيادة المعركة ولا سيما وأن المسلمين كانوا مقنعي الوجوه.

وعندما نظر النبي إلى أصحابه وهم ثلثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى أعدائه وهم ألف وزيادة مدّ يده وجعل يهتف بربه اللهم أنجز ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض»^(٣).

(١)، (٢) انظر كتاب إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي. ص ٨٢ حيث يذكر الكاتب كلمة (إستراتيجية) ووضعناها نحن (التكتيك) فالرسول لم يحدد في إستراتيجيته من أجل غزوة وإنما الإستراتيجية أعد من ذلك بكثير

(٢) السيوطي. الدر المنثور ٣/ ١٦٩، ١٥٠

وجاء القرآن مطمئناً للفئة القليلة لمواجهة خوفها ضد أغلبية قرشية فقال ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ الأنفال ٩ ولهذا ذكرت بعض الروايات، أن ميكائيل نزل في ألف من الملائكة فوقف في الميمنة مع أبي بكر، وإسرافيل في الميسرة مع علي، وجبريل في ألف أخرى، بل وذكرت تلك الروايات تخصصات لقادة الملائكة، فهذا مثلاً إسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل!!!^(١)

عرف محمد أنه لو هُزم في هذه المعركة فستكون بداية النهاية له ولدعوته، وبدون النصر ربما لن تقوم له قائمة بعدها، وهو يعبر عن تخوفه هذا بحرارة (اللهم إن تهلك هذه العصابة لأتعب في الأرض). وبهزيمته ستقوى شوكة الوثنيين وربما ينهدم حلف يثرب فيتراجع الذين نصره وتتضعف نفوس المسلمين، وهي أول معركة حقيقية سيخوضونها مع قريش وما زال الدين في مهده والمسلمون قلة قليلة، وعرف المسلمون مع محمد أهمية تلك المعركة القصوى، فإما أن يكونوا أو لا يكونوا على الإطلاق، فزادهم ذلك حماساً واستهانة بالموت.

خرجوا للغير، وعرفت قريش، فجهزت عدتها. قال النبي (ماترون في القوم وقد أخبروا بمخرجكم؟ فرد المسلمون. لا والله مالنا طاقة بقتال القوم، فيطمئنهم القرآن ﴿وإِنْ يَعْصِدْكُمْ اللَّهُ إْحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الأنفال ٧، فلم يبق أمامهم إلا أن يتقدموا

(١) زُوي عن ابن عباس أنه قال (بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول. أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه قد خطم وجهه وشق كضربة سوط، فحاء الأنصارى وحدث النبي فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة). وهذه الرواية عن ابن عباس ليست صحيحة في رأيي.

حيث لارجعة، ويخوضوا حرب مصير حيث الموت أو الحياة ولا ثالث
لهما.

عسكرت قوات مكة عند بدر على بعد عشرين ميلاً غربي يثرب.
وتقدم الرسول على العير وقد قطع أجراسها فلا تحدث صوتاً قد
يصل إلى أسماع جيئى قريش. وقيل إن جيش محمد لم يملك إلا
فرسين وستين درعاً فقط.

توقف محمد في مكان جنوب يثرب، فسأله الأنصاري الحباب
ابن المنذر بماله من خبرة في القتال. أريت هذا المنزل؟ أمزلاً
أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب
والمكيدة؟ فأجاب الرسول بالطبع. بل هو الرأي والحرب والمكيدة
فقال الحباب فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى
ماء من القوم فننزله ثم نغور ماوراءه من القلب (أي نردم ماوراءه من
الآبار ونفسدها على الأعداء) ثم نبني حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل
القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال النبي لقد أشرت بالرأي ثم سار
بجيشه حتى وصل آخر بئر في الجنوب فنزل عليه وبنى حوضاً حوله
ثم غور الآبار الأخرى

وقال أنصاري آخر للنبي: ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد
عك ركائبك؟ تم نلقى عدونا، فإن أنجزنا الله وأظهرنا على عدونا كان
ذلك بما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن
وراءنا من قومنا، فقد تخلف عك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم،
ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عك، يمتعك الله بهم يناصحوك
ويجاهدون معك. فبنى عريشاً لقيادة المعركة.

ولما استطاع أبو سفيان أن يحرر غيره فأرسل إلى قريش
(إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله
فارجعوا، فقال عمرو بن هشام. والله لا نرجع حتى نرد بدرأً (وكان

بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالوا يهابوننا أبداً، فامضوا..). (١)

وإنطلقوا حتى جاء الصباح، فلم يقيموا ثلاثاً، ولم ينحروا جذوراً ولم يشربوا خمراً ولا حتى ماءً، ولم تعزف القيان، بل وجدوا قوة جاهزة للحرب عبر عنها قرشي رأى جمع محمد فقال قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فرأى رأيكم. فتراجع عتبة بن ربيعة وخطب في الجمع قائلاً: فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب (٢).

ويؤكد هذه الروايات قول عن علي بن أبي طالب (فلما دنا القوم إذا رجل منهم على جمل له أحمر، يسير في القوم، وقال حمزة إنه عتبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم إصبوها براسي وقولوا جبن عتبة بن ربيعة وقد علمتم أنني لست بأجبنكم. فرد عليه أبو جهل قائلاً: ملأت رثك جوفك رعباً). (٣).

وهكذا بدا التفكك واضحاً في معسكر قريش، بينما كان التماسك أوضح في المعسكر الآخر، وقد حرض محمد المسلمين على القتال وقال لهم: فلينفل كل امرئ ما أصاب. وفوق ذلك فإن جيش مكة كان مكوناً من هؤلاء الذين راحوا ليدافعوا عن قافلته، بل إن من تخلف من السادة أرسل رجلاً مكانه سواء بسبب دين كما فعل

(١). أسطر السيرة النبوية لابن كثير عن وقعة بدر، ص ٣٩٩.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٦ وما بعدها (٣) نفسه ص ٤٢٢

أبولهب مع العاص بن هشام بن المغيرة، واشترى البعض آخرين، وخرجت بقية الجيش مغلوبة على أمرها لأن مصالحها في القافلة ربما كانت ضئيلة للغاية، فهو في النهاية جيش مضطرب المصالح منعدم التجانس عكس المسلمين الذين كان هدفهم العير، تم لم يكن أمامه سوى القتال بعد أن نجت القافلة.

في صبيحة المعركة، تقدم جيش مكة أقل نظاماً وأكثر اندفاعاً واستهانة بقوة محمد، وإذا تلاقى الجمعان هكذا فإن الفئة الأكثر عدداً لابد وأن تنهك القوة الأقل عدداً، لكن النقيض قد حدث، فالمناوشات قد بدأت بخروج ثلاثة من قريش للمبارزة، فخرج لهم ثلاثة شبان متحمسون هم علي بن أبي طالب وحزمة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب وكلهم من بني هاشم مسلمون ولهم ثأر من قريش حينما حوصروا وطردوا من بيوتهم لاجئين إلى يثرب. وكان المسلمون ملبسين لا يعرفون من السلاح. وكانت تركيبة جيش قريش تشمل كثيراً من كبار السن بالنسبة لجيش المسلمين، وقال في ذلك سلمة بن سلامة بعد العودة إلى المدينة:

- والله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة فنحرناها. (١)

ولذا كانت نتيجة المبارزة لصالح المسلمين الذين استطاعوا قتل عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وابنه الوليد وجرح الحارث وربما مات متأثراً بجراحه. وفعل ذلك فعله في نفسية جيش قريش. وكان على محمد أن يكسب الوقت، فالماء في حوزته، والعطش والجوع في حوزة الوثنيين، وكل من حاول الوصول إلى الماء قتل كالأسود بن عبد الأسد المخزومي عندما اندفع في اتجاه الحوض الذي بناه المسلمون

(١) نفس المرجع ص ٤٧٢

وَدَعَ النَّبِيُّ جَيْشَهُ فِي صُفُوفٍ مُتَرَاصَةٍ لَمْ تَتَرَحَّزْ أَمَامَ
الْهَجَمَاتِ الْعُسْرَاءِ لَخِيَالَةِ مَكَّةَ، وَكُلٌّ مِنْ تَقَدَّمَ مِنْ مُحَارِبِي قَرِيشٍ
سَقَطَ صَرِيحاً مِنْهُكَأَمَامَ سَيُوفٍ وَرِمَاةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ وَصُّوا بِأَلَا
يَفْرُّوا وَلَا يُوَلُّوا الْأَدْبَارَ إِلَّا لِمُضْرَرَةٍ كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَنْ حَرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُحْتَجِزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١) الْأَنْفَالُ ١٥، ١٦. وَلَمْ
يَبْدَأِ الْهَجُومَ الْإِسْلَامِي الْعَامَ إِلَّا بَعْدَمَا أَنَّهُكَ الْعَطَشَ وَالْخَوْفَ ذَلِكَ
الْجَيْشَ الْمَتَرَهِّلَ بَعْدَ فَشْلِهِ فِي سَحْقِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَمَّرِينَ تَوَزِيْعاً
جَيِّداً، فَاسْتَطَاعَ النَّبِيُّ بِدَقَّةِ النِّظَامِ وَحَسَنِ الْإِعْدَادِ أَنْ يَتَفَوْقَ عَلَى
أَغْلَبِيَّةٍ لَمْ تَنْظُمْ جَيِّداً وَلَمْ تَضَعْ فِي ذَهْنِهَا الْحَرْبَ إِلَّا دِفَاعاً عَنِ الْقَافِلَةِ
وَقَدْ نَجَتْ الْقَافِلَةُ فَمَاتَ حِمَاسُهَا بِانْتِفَاءِ سَبَبِ خُرُوجِهَا نَفْسَهُ. وَهَكَذَا
كَانَ الصَّرَاعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، طَرَفٌ يَرَى أَنَّ وَجُودَهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى النَّصْرِ
فِي هَذِهِ الْحَرْبِ فَاسْتَبَسَلَ لَهَا، وَطَرَفٌ دَخَلَهَا مُضْطَرّاً وَبِلَا حِسَابٍ
دَقِيقٍ مُسْتَهِيناً وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَاهِباً إِلَّا لِنَزْهَةٍ، وَقَدْ عَبَّرَ الْقُرْآنُ عَنْ ذَلِكَ
قَائِلاً ﴿وَإِذَا يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي
أَعْيُنِهِمْ﴾ الْأَنْفَالُ ٤٤.

كَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غَرِبَتْ بَعْدَ يَوْمٍ مِنَ الْمُبَارَزَةِ وَالْمَنَاوِشَةِ
وَالْإِنْقِضَاضِ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَهَذَا مَا كَانَ يَحْتَاجُهُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ،
حَتَّى أَتَتْ لِلْحِظَّةِ الْمُنَاسِبَةِ الَّتِي حَصَدَ فِيهَا الْهَجُومُ الشَّامِلُ أَرْوَاحَ
عَجَائِزِ قَرِيشٍ الَّذِينَ فَرَّ أَعْظَمِيَّتَهُمْ وَعَادُوا إِلَى مَكَّةَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَكُنَانَا
يَقَاتِلُونَ أَمْ لَا، وَحِينَمَا سَأَلَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ عَمَّا جَرَى قَالُوا:

(١) يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ص ٥٦٨ - ٥٦٩. إِنْ الْجِهَادُ كَانَ فَرَصَ عَيْنٍ وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ
الْآيَةِ أَهْلُ بَدْرٍ خَاصَّةً لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ عَصَابَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ يَعْنُونَ بِهَا سُرَى عَصَابَتِهِمْ تِلْكَ.

- لاندري. والله ماهو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا
يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا^(١).
وهي نفسية جيش لم يهيا للحرب ولم يستعد لها في مواجهة جيش
خرج لها.

وتتنمي طبيعة وقعة بدر إلى طابع الحروب القبلية التأديبية، بل
ونستطيع القول بأن الحروب التي تمت بين النبي وبين القبائل في
جزيرة العرب قد حملت في أغلبها نفس الطابع، ولم تتخط هذا الطابع
إلا عندما بدأت تتكون للإسلام دولة وجيش، وتتميز هذه الحروب
بمقولة (إضرب واغنم). فالمنتصر يفرض قانونه على المهزوم،
ويجمع أسراه وسبائاه وغنائمه، ويفر من يفر حتى يعود إلى موقعه
ليبنى من جديد ويجهز للانتقام، أما أسلوب الفتح وإخضاع
مجموعات سكانية وقوى بشرية وإقتصادية بحيث تطلق أيدي
المحاربين وأئمتهم على ما في المزارع والصوامع وما في المخازن
والحصون وما في الحظائر والمراعي والمنازل من بهيمة الأنعام، لم
تأخذ هذا الطابع إلا فيما بعد عندما قويت شوكة محمد وأصحابه،
فهشم اليهود تهشيماً، وقضى على القبائل المعادية، تحكمه في ذلك
شروط (اللعبة السياسية) قبل أن تحكمه أي اعتبارات أخرى. وهذا
سنناقشه تفصيلاً فيما بعد.

ولم يياس محمد في دعوته، فكان يدعو الآن بعد أن حمل
السيف وأثبت هذا السيف فعاليته وقويت كلمته فغدا يُسمع أكثر من
ذي قبل. وبانتصاره إنزعت جذوره في أرض يثرب وما كان لأحد أن
يجتثها وأياً كانت الظروف والعثرات بعد ذلك، لأن الانتصار لم
يستتبعه إرتياح أو حالة ارتضاء، بل كان مجهوداً دائماً من أجل

(١) انظر التفسير المأثور عن عمر ص ٤١١

استثمار ذلك النصر أقصى استثمار. واختباراً للقوة، فأقيمت معاهدات وكُتبت صحائف، وصُفِّيت عداوات أو احتمالات خطر قد تأتي من جانب أو آخر، وفوق كل شيء لم تتوقف السرايا عن انقضاضها الدائم على القبائل في واحاتها أو حول مراعيها.

وبانتصاره بدأت مشاكل من نوع جديد كان على محمد مواجهتها، فلقد كانت أول غنيمة كبيرة، وقبل أن يتخذ قراره النهائي كانت أيدي المسلمين المحتاجين تعمل في الغنائم وتأسر الأسرى، فعن أبي هريرة أنه قال: قال الرسول: لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم، حتى كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم.^(١)

ورغم أن الفياء إذ ذاك (من أخذ شيئاً فهو له)، كما قال لهم النبي من قتل قتيلاً فله سلبه ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، إلا أن الصراع على غنائم بدر قد قام واستعر بين المسلمين. فأما المشيخة (كبار السن) فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا لكم رداءً، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا^(٢). وكان على النبي أن يحسم هذا الخلاف فقال القرآن ﴿يسألونك عن الأنفال﴾. قل الأنفال لله وللرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ الأنفال ١. وهذا يعني أن يتركوا أمرها

(١) تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي ص ٢٢٥.

(٢) روي عن سعد بن أبي وقاص قوله يوم بدر (لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأتيت به النبي فقال: إذهب فاطرحه في القيص فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبه فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال النبي: إذهب فخذ سيفك) انظر تفسير وبيان.. للسيوطي ص ٢٠٧ وهذا معناه أن النفل هو ما زاد عن الغنيمة يهبه الرسول أو الإمام من يشاء.

للنبي يقرر فيها مايشاء، ثم انتهى الأمر بأن قال القرآن ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِبنِ السَّبِيلِ، إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنفال ٤١. أي للرسول وقرابته خمس الغنائم (سواء اشتركوا في قتال أو لم يشتركوا) ولبقية المقاتلين الأربعة أخماس الأخرى، وذلك عدا مايمكن أن يتنقله البعض زيادة عن سهمه في الغنيمة، فقد رُوي مثلاً أن الرسول تنفل سيفه ذا الفقار وجمللاً لأبي جهل في أنفه بزم من فضة غير الخمس. وقد اختلف المسلمون في هذا الخمس بعد موت الرسول، فقال البعض هو للأصناف الخمسة المذكورة في القرآن كما فعل عمر، وقال البعض الآخر سبيل الخمس سبيل الفيء يكون حكمه للإمام إن رأى أن يجعله فيمن سمي الله جعله، وإن رأى أن الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوبهم ومصلحة تعني لهم، فله ذلك^(١).

وفي تلك الأيام الأولى كانت تلك الغنيمة قليلة نسبياً، لأنها كانت أول وقعة كبيرة يخوضها المسلمون فأكلوها ولم يبق منها شيء للمصلحة (العامة) بعد توزيعها على المحاربين، بمعنى أنها لم تترك تراكماً مالياً ذا بال، وإن كانت قد أسهمت في حل المشاكل المعيشية للمسلمين آنذاك.

المشكلة الثانية والتي واجهها محمد وكان عليه أن يحلها على عجل هي مشكلة الأسرى وكان فيهم العباس عم النبي، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي فقال: لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه،

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ١ ص ٤٢

فأرسل عمر فأحضره من أيديهم، وكان فيهم أيضاً زوج زينب بنت الرسول «أبو العاص بن أمية» والذي ضاعته فرددوا عليها مالها نزولاً على رغبة النبي، وكان فيهم أولاد عم النبي عقيّل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث . فاستشار أبا بكر فقال: فادهم (أو هم قومك وعشيرتك فخل سبيلهم) بينما قال عمر: أقتلهم، لكن قول أبي بكر لقي بالطبع هوى في نفسه، فقبل بالفداء^(١). وكان أقل مافودي به أحد منهم من المال أربع مائة درهم كالعباس عم النبي وأولاد عمومته، وأكثره أربعة آلاف درهم^(٢)، وكانت قريش ترسل برسلها ومعهم الأموال بعد أن حاولوا ألا يتعجلوا في بداية الأمر قائلين: لاتعجلوا بفداء أسراكم لا يشتد عليكم محمد وأصحابه. لكن قبول الفداء كان يعني أن يعود الأسرى إلى مكة فيُجهزوا للانتقام وقد ذاقوا مرارة الأسر لأول مرة في حياتهم، وأهم من ذلك أن شوكة مكة لاتزال قوية، وستحفزها المعركة للانتقام وقد أدرك محمد ذلك جيداً عندما قال لهم:

- إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتكم^(٣) أي قتل لكم مثلما قتلتم منهم. فهو يعرف نفسية العربي القبلية وطبيعة القصاص ودوره في تلك الصحراء المترامية الأطراف. فجاء القرآن معبراً عن هذا الأمر بقوة وهو يقول ﴿ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ الأنفال ٦٧، وهي تعني أن شروط الفداء يجب أن تكون بعد أن يثخن محمد في

(١) انظر السيوطي، الدر المنثور ج ٣ ص ١٦٩ - ١٧٠

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٦١.

(٣) انظر تفسير ابن جرير، سورة الأنفال.

الأرض، أي بعد أن يبالغ في قتل أعدائه ويوهنهم ويعجزهم ويغلب على كثير من الأرض، فيأمن بذلك من شر الإنتقام. ولعل سياسة محمد التي اتبعها كانت هي عينها الإثخان في أرض جزيرة العرب وهو يتابع غزواته ووقعاته واحدة تلو الأخرى. وهو يعرف جيداً أن قوة قريش لم تهن ولم يمت من أعدائه غير سبعين، وما زال لم يعجزهم بعد، ولا زال المسلمون قلة وسط أغلبية وثنية داخل شبه الجزيرة، وهو يريد أن ينتصر بفكره ودعوته (فالله يريد الآخرة)، أما المسلمون الآخرون فلم يكونوا ببعد نظره (فأرادوا عرض الدنيا) واستعجلوا الغنيمة السهلة ولم يملك محمد إلا أن يتبعهم ويميل إليهم رغم مافي هذا الميل من مخالفة لحساباته لموازنين القوى من حوله. وأيا كان الأمر سواء قد قتل الأسرى أو فاداهم فإن النتيجة لم تكن لتغير الأمر تغييراً جذرياً، فمكة ستنتقم، والقوة الإسلامية لن تؤثر كثيراً أو قليلاً في موازين الصراع بإضافة سبعين آخرين من القتلى في معركة قد حسمت وفي موازين القوى التي لم تكن قد تغيرت تغييراً جذرياً بوقعة بدر. ولعل هذا كان من تلك العوامل التي دفعت الرسول لاتخاذ موقفه الذي اتخذه.

وكان اليهود يترصبون به ويتمنون هزيمته، وأعداؤه من وثنيي يثرب وسادتها ينتظرون أن تتغير الأمور لصالحهم، وهؤلاء الذين ناصروا محمداً (نفاقاً) أو رغبة في غنيمة أو مصلحة كانوا يتحينون الفرصة بعد أن قويت شوكة محمد منذ الهجرة يوماً بعد يوم. فجاء انتصار بدر ليضرب أحلامهم في التخلص منه.

محمد يعرف أن معركته الكبرى هناك في مكة، وأن أعداءه الأقوياء يجهزون للانتقام والانقضاض على سلطانه الذي بدأ ينمو ويثبت بانتصار بدر، لكن تلك المعركة الكبرى يلزمها الانتهاء من معارك صغرى داخل المدينة نفسها وحولها، فكتب السيرة تروي بأنه

لم يقيم بالمدينة أكثر من سبع ليل بعد عودته من بدر حتى غزا بنفسه بني سليم وتفرق أهلها ولم يلق كيداً. بعدها بقليل بلغه أن جمعاً من غطفان من بني تلبية تجمعوا «بذي أمر» يريدون حربته فخرج إليهم في منتصف ربيع الأول سنة ٣هـ، فغاب أحد عشر يوماً وكان معه أربعمئة وخمسون رجلاً، فهربت الأعراب في الجبال ورؤوسها، حتى بلغ ماء يقال له «ذو أمر» فعسكر فيه. وفي نفس العام بلغ نجران بالحجاز، وفي كل تلك السرايا كان يعلن عن قوته للقبائل العربية خارج مكة، وأن الشرعية الجديدة هي شرعية السيف إن لم يتبعوه، وعليهم أن ينسوا قريشاً ويتذكروه دوماً، وفي كل هذا كان يجهز نفسه وأصحابه لحرب طويلة.

وعاد إلى المدينة قوياً، ولتنظيم وضعها عليه أن يعترف - رغم النصر الجديد - بأن المسلمين ليسوا أغلبية، وبأن بالمدينة منافقون ومشركون ويهود وقبائل وعشائر مختلفة لم تتخلص من عصبياتها وحاجاتها ومصالحها المختلفة عن خطة محمد. ويثرب بهذا الوضع كانت نقطة ضعف وثغرة حقيقية في مواجهة مكة. لكننا نستطيع القول أن انتصار بدر جعل الحلف أو الفئة الإسلامية أو (العشيرة) الإسلامية - إن جاز التعبير - أقوى (العشائر) في يثرب، وبهذا الموقع كان عليه ترتيب شؤون البيت الذي يعيش فيه، فمكة لن تبقى ساكنة بعد هزيمتها وهي تعد العدة للإنقضاض عليه، وربما يجد أعداؤه حلفاء لهم يعيشون بقربه ليل نهار، وهو أيضاً لن يبقى ساكناً بعد إعلان حالة الحرب الدائرة على كل القبائل في مكة أو خارجها مستخدماً في ذلك أسلوب الدعاية المسلحة. وقبل ذلك ما كان مستطيعاً ترتيب يثرب بإعلان أن له الأولوية الآن في عقد حلف جديد وهدم أحلاف قديمة كان غير مناصريه قد أقاموها مع مكة أو داخل المدينة نفسها، فأعطاه سيف بدر إمكانية هائلة - كانت كقفزة

فجائية - على نفسية أهل يثرب، ولا سيما وأن هذا السيف لازال مشهوراً، فكتب المعازل أو تلك المعاهدة الشهيرة والتي علقها بسيفه - كما تروي كتب السيرة - فلم يجد المنافقون أو الوثنيون أو اليهود بدأ من الرضوخ لها.

وقعت كل طوائف وعشائر المدينة المعاهدة، معتبرين أن المسلمين يمثلون إحدى هذه الطوائف حيث قررت الصحيفة: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المسلمين من قريش ويثرب، ومن قبلهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس).^(١) واعتبرت الصحيفة المهاجرين فخذاً من الأفخاذ الموجودة في يثرب، واقتصرت مهمة تلك الأفخاذ والبطون على تسهيل مهمة الفرد في دفع الديات وفداء الأسرى^(٢)، وهنا انتقلت المصلحة الفردية نقلة جديدة فتبعت مصلحة الفخذ أو العشيرة أو القبيلة، ثم بعدها تبعت مصلحة أهل يثرب جميعاً، ثم رضخت في النهاية للحكم الإسلامي بعد ضرب تلك المعاهدة بتصفية اليهود حينما حان الوقت لتلك التصفية، وحينما آلت ناصية الحكم في يثرب نفسها لقرار محمد.

تقول الصحيفة (المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين... واليهود من بني عوف أنه مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين مواليهم وأنفسهم، وأنه لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف.. الخ) وهنا اكتسب المسلمون وخاصة

(١) انظر. عمر شريف. نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ص ١٨.

(٢) نفسه ص ٢٠.

المهاجرون شرعية وجودهم الدائم داخل يثرب بعد أن كانوا مجرد لاجئين إليها. وكل فئة أو قبيلة بحالتها الأولى (ربعة) أي تلك الحالة التي جاء بها الإسلام وهم عليها، يدفعون الديات ويفدون أسراهم. ثم تنتقل المعاهدة نقلة مهمة في تحديد العلاقة مع مكة فتقول (وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب).^(١)

ورغم مبالغة البعض^(٢) بأن هذا «الحلف» كان دستوراً لايعترف بتمايز طبقي أو استغلال فردي وجعل القبائل تشكياً اجتماعياً لخدمة الأمة الجديدة ووفق المفهوم الجديد للدولة الإسلامية)، إلا أن هذا الحلف لم يتجاوز كثيراً طبيعة الأحلاف التي كانت تتكرر بين القبائل العربية. ثم إن الدولة الإسلامية لم تكن قد تشكلت بعد في الأيام الأولى للهجرة ولا الأمة الإسلامية قد أخذت طابعها الجديد إلا بعد سنوات طويلة من الصراع، وفوق كل شيء فإن المعاهدة أو الصحيفة لم تغير الحالة التي كانت عليها يثرب بقدر ما إنها كانت إنعكاساً لتوازن جديد للقوى فيها، بل بتغير حالة تلك القوى مزقت هذه الصحيفة نفسها بعد عدة شهور بتصفيّة اليهود (بنو قينقاع وقيل بنو النضير)، ولعل تعليقها بسيف محمد ليعبر عن ذلك أصدق تعبير. ورغم ذلك فقد كانت هذه المعاهدة ضرورية لفرض الإعراف بقوة محمد والتي أثبتتها معركة بدر، وبالتالي خلق حالة من الأمن لمتابعة أيام الصراع القادمة، بل وفرض تلك الشرعية على وجود المسلمين والذي ظلّ غريباً على نفوس غالبية قبائل يثرب باعتبارهم دخلاء لاجئين. فالمهاجرون اعتمدوا أساساً على مناصرة أغلبية

(١) نفسه ص ٢٠

(٢) انظر. إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي ٧٤

خزرجية وأقلية أوسية وبعض القبائل الصغرى الأخرى، بل ويمكن القول أيضاً أن المعاهدة كانت أيضاً لتثبيت شرعية المهاجرين في نفوس هؤلاء الأنصار أنفسهم من أي ميل أو تغيير قد يكون في غير صالح محمد بوضعهم في نفس الخانة مع المهاجرين، وهكذا أصبح الأنصار أنفسهم يركضون خلف محمد بعد أن كانوا أمامه يتميزون بحمايته من أي عداء قرشي، مضحين بأحلافهم القديمة دور تردد، أما الآن فلا مجال للتراجع لأن اكتساب شرعيتهم (أي شرعية مناصرتهم) أمام مخالفيهم من أهل يثرب قد قويت بانتصارات محمد. ويمكن القول أنهم قد تخطوا مرحلة المناصرة بعد أن تعدوا حدود يثرب كما تقولبيعة العقبة بالمناصرة في المدينة وما جاورها، وبعد أن انطلقوا خلف محمد في قطع الطرق التجارية ومهاجمة القبائل، فتجاوز محمد بسرعة حالة العقبة الثانية، ولم يستفد منها حقيقة إلا باكتساب الحرية في إعلان حالة الحرب ضد سيادة مكة على قبائل الحجاز. وهكذا دخل الأنصار نوعاً من الصراع لم يكن في حساباتهم ولا فكروا فيه أبداً فغدوا في حقيقة أمرهم تابعين لا متبوعين رغم دورهم الهام في تذليل المدينة لاستقبال محمد وعدم التعرض له ثم بالخضوع النهائي لسلطانه عليها.

وأصبح للمسلمين الآن إمكانيات إقتصادية أكثر من ذي قبل بحكم الغزوات المتتالية، فقالت الصحيفة (وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة).^(١) وانتظر الجميع. الثرييون انتظروا ماذا يفعل محمد؟ (فيما بعد كانوا كالعرائس تتحرك بخيوط محمد) وانتظر النبي ليدرس الأوضاع بعد أن أرسى بمعاهدته حالة من الأمن المؤقت بين

(١) انظر. عمر شريف، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية. ص ٢٢.

الحاجات المختلفة والصراع الكامن تحت الرماد، تمهيداً لحسم الجزء الأكبر منها، ونقل الصراعات الداخلية خارج يثرب حيث الأعداء الأقوى في مكة وحولها. وكانت بداية ذلك في الصحيفة نفسها عندما جعلت للجماعة دوراً في إيقاف المنازعات وتجميدها بإشراكها في عملية العقاب إذا خالف أحد الأطراف مافيهما من بنود، حيث تقول (وإن المؤمنين المتقين على بغي أو من إبتقى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم).^(١) بل إن المسؤولية الجماعية في العقاب قد حولت الثأر إلى عقوبة تشترك فيها هذه الجماعة الجديدة (وأنه من اعتبط «قتل من غير جناية توجب القتل» مؤمناً قتلاً عن بينه فإنه قود به إلا أن يُرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه وأنه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وأمن باله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً «جانياً» ولا يأويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل)^(٢).. (وأن يهود الأوس ومواليهم «حلفاءهم» وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل الصحيفة وأن البر دون الإثم ولا يكسب كاسب إلا على نفسه).^(٣)

وبالطبع لم تكن حسابات التصفية النهائية قد حانت بعد، فتركت الحرية الدينية لليهود وحلفائهم، على أن يلتزموا بما اتفقوا عليه في هذه الصحيفة، فالتنظيم الإسلامي الجديد لم يكن في مصلحته - ولا في إمكانياته - آنذاك، إثارة النزاعات في مكان هو أحوج أن يكون هادئاً مستقراً ليعطي له فرصة حقيقية للإنقضاخ خارج تلك الأرض، ولم تحدث التصفية النهائية للمعادين داخل يثرب

(٢) نفسه، ص ٢١.

(٢) نفسه.

(١) نفسه ص ٢٠.

من يهود أو حلفائهم إلا بعد أن كان من الضروري في مسيرة الصراع أن تتم تلك التصفية شيئاً فشيئاً.

كانت المعاهدة، إذن، تسكيناً لحالة الصراع الكامنة تحت الرماد، إنتظاراً لنقلها خارج يثرب، فقالت الصحيفة (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا أثم، وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها)،^(١) فلكي لاتحدث الفوضى، لايحق لفرد أن يجبر أحداً إلا بإذن عشيرته الداخلة في الحلف وإلا بإذن المعتدى عليهم (وأنه لايأثم امرؤ بخليفة وأن النصر للمظلوم) (وأنه إذا دعوا لصلح يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين).^(٢)

ولم تمكث تلك المعاهدة طويلاً (قيل ستة أشهر بعد موقعة بدر)، حتى اتجه محمد إلى يهود المدينة، وهنا تختلف الروايات، فسيرة ابن كثير وابن إسحاق تقول أن الرسول بدأ بيهود بني قينقاع، وبعض كتب التفسير تقول ببني النضير^(٣) الذين قيل إنهم كانوا يملكون المنازل والنخيل ناحية المدينة. وذكر أن سبب إجلاء محمد لهم هو أن النبي خرج إليهم يوماً ومعه بعض أصحابه ليطالب منهم دية رجل من المسلمين قتله رجل من حلفائهم طبقاً لمعاهدة المدينة مع أخاز يثرب، فأظهروا له الملاينة وكان جالساً بجوار

(١)، (٢) نفسه.

(٢) عن عائشة أن وقعة بني النضير كانت بعد ستة أشهر من وقعة بدر (انظر تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي ص ٤١١ بينما يذكر ابن إسحاق أن بني النضير تم حصارهم بعد «أخذ» أما بني قينقاع فقد كانت في شوال ٢هـ. عكس ما روى البخاري وتبعه كثيرون، واعتمد في ذلك على حادثة تحريم الخمر أثناء حصار بني النضير وقد ثبت أن بعض المسلمين قد أصبحوا وشربوا الخمر يوم أخذ (انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣).

حائط لهم فأمرؤا رجلاً منهم أن يعلو الحائط ويلقي عليه بصخرة. وذكر أيضاً أن النبي قد جمعهم في سوقهم وقال لهم: يامعشر يهودا إحدروا من الله مثل مانزل بقریش من النعمة وأسلموا «غالباً قبل حصارهم»، فقالوا: يامحمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرّك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمنّ أننا نحن الناس. فقال القرآن ﴿قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فتنتين إلتقتا...﴾ آل عمران ١٣، وذكر أن ذلك حدث مع بني قينقاع وأن السبب هو نفس سبب تصفية بني النضير، وهو حدوث قتل بين بعض المسلمين وبعض اليهود، فحاصره النبي حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن سلول حين نزلوا من حصونهم مستسلمين: يامحمد أحسن في موالِيّ (حلفائي) فأعرض عنه فأمسكه ابن سلول وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالِيّ. أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني الأحمر والأسود (أي الحلفوني على حمايتي والحرب معي) تحصدهم في غداة واحدة. إني والله امرؤاً أخشى الدوائر. وكان النبي قد حاصره خمس عشرة ليلة^(١) وأيا كان القوم من اليهود وأيا كانت الأسباب التي هدمت بنود الصحيفة فإننا نظن - إن كان ما روي قد حدث بنفس الطريقة التي روي بها - أن هذا كان سبباً ظاهرياً، لكن الأسباب الحقيقية كما قلنا فإنها تكمن في (إستراتيجية) محمد نفسها والتي بدأت بذورها تتأصل مع الأيام ومع تطور الصراع، ومعها كان حلمه قد تنامى في أن تتخطى دعوته حدود أرض العرب، وأمدّه إنتصار بدر بطاقة معنوية جديدة وحسابات جديدة لحرب ستطول وعليه أن يحسم الأقرب والأضعف

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ في خبر يهود بني قينقاع

فيها، ليتفرَّغ للأبعد والأقوى، وكان لا بد وأن يجد سبباً صغيراً أو كبيراً ليجمع جيش المسلمين فيحاصر (بني قينقاع أو بني النضير) في حصونهم، فلما لم يستسلموا، أمر بحرق نخلهم وتقطيع زرعهم كما قال القرآن مؤكداً ذلك الحدث ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها﴾ فنادوه من خلف الحصون:

- يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! (١). وذكر أن عدداً من الذين أسلموا (نفاقاً) من بني قريظة شجعوا بني النضير على مواجهة محمد بعد أن أعلن الأخيرون عن خوفهم فقال القرآن فيهم ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن خرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليؤنن الأديبار ثم لا يُنصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ الحشر ١١، ١٢، ١٣، فلا بد وأن حسابات محمد هنا كانت أقرب للصحة عندما قرر طردهم من يثرب، وقد عرف أن انتصار بدر خلق في نفوسهم الرهبة والرعب من المسلمين (لأنتم أشد رهبة). وهو قد حدد أعداءه أيضاً بكل دقة، ولا بد أنه خلق قاعدة من ملتقطي الأخبار أو ناتريها ليعرف الصغيرة والكبيرة وليبث الخوف والرهبة حوله، وكان شكّه في قوم يضعهم في صف أعدائه على الفور، وينبذ إليهم بالسلاح والكراع، وقد عبر القرآن عن ذلك أصدق تعبير وهو يقول ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين﴾ الأنفال ٥٨ أي إطرح إليهم عهدهم وأعلمهم بذلك (أي إقطع ما بينك وبينهم من

(١) تفسير وأسباب النزول للسيوطي ص ٤٣٥.

صحف) وذلك لا لشيء إلا لامتلاك زمام القوة قبل أن تستفحل أثار الخيانة فيحسم الأمر قبل أن يستعد الآخرون.

حرّق محمد، إذن، زروع اليهود ونخيلهم، فالأمر هنا ليس أمر أخلاق تُعاب أو أفكار تُنتقد (يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه!)، وإنما الأمر أمر حسم في معركة لا تحلها الأخلاق لكن تحكمها حسابات الحرب فلم لا يقتل؟! ولم لا يحرق؟! ولم لا يخرّب؟! إن كان هذا هو ما سيرهب به أعداءه ويُخرجهم من وراء حصونهم مستسلمين. فخرجوا فعلاً ووافقوا على الجلاء إلى خير (طُرد بنو النضير نهائياً من بلاد العرب إلى الشام أيام عمر بن الخطاب) خرجوا من منازلهم على إبلهم ولهم فقط ما استطاعت أن تحمله هذه الإبل من أمتعة ما عدا الحلقة والسلاح. خرجوا ضعفاء مهانين مجردين من أي مصدر لقوتهم^(١). تركوا الأرض والخيل والأنعام وخرجوا ببيع متاعهم وأموالهم، فقال الأنصار: يا رسول الله، إقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين. فقال: لا، ولكن تكفونهم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، فوافقوا. وهكذا انزعت جذور المهاجرين في أرض يثرب بعد أن أصبحوا أصحاب أرض. وكان وضع المدينة رغم تبعية بعض أهلها محفوفاً بالشكوك والنفاق وعدم الثقة، وكان المهاجرون فقراء ضعفاء في أغليبيتهم، وفي إعطائهم الأرض تثبيت وتقوية لهم بهذا الوطن (الغريب) الذي لجأوا إليه. وقد اتضح هذا التمييز أكثر فيما بعد في غزوة حُنين عندما قُسمت

(١) هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم.. وما أنفأ الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولراكب ولكن الله يسطر رسله على من يشاء.. ما أنفأ الله على رسوله من أهل القرى فلكه وللرسول.. للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم الحشر.

الغنائم على أهل مكة ومن صاحبهم ممن يدعوا بالمؤلفة قلوبهم،
حديثي العهد بالإسلام تشجيعاً لهم على متابعة محمد في حروبه
المستمرة وخاصة وأن الإسلام لم يكن قد تمكن من قلوبهم كما يقول
القرآن ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا
وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات ١٤ .

وكانت غنائم الحرب حينذاك قد أصبحت تشكل دخلاً هاماً
تقوم عليه معاش المسلمين، فتضايق الأنصار لأنهم لم يأخذوا من
الغنيمة رغم مشاركتهم في القتال، فقال سعد بن عبادة للنبي: (إن
هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في
هذا الفياء الذي أصبت . قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في
قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء) فسأله
النبي عن موقفه هو من هذا الأمر فرد قائلاً: ما أنا إلا من قومي . فقال
النبي خطبة عاطفية مثيرة للحماسة الدينية (ولم تكن إلا مناورة ذكية
وتهدئة أنية) أكثر منها حلاً حقيقياً للمشكلة، فقد رأى الأنصار
التمييز بينهم وبين المهاجرين أو بينهم وبين قبائل العرب الأخرى،
فأعلنوا ذلك، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أكثر من ذلك، فيرضون
مرغمين أو غير مرغمين بأن يقول لهم محمد (الا ترضون يامعشر
الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله
إلى رحالكم؟) . وقد اشتعلت هذه النيران الخاملة بعد موت النبي في
اجتماع سقيفة بني ساعدة، ورفض معظم الأنصار مبايعة أبي بكر
ومن بعده عمر بن الخطاب ولعل قول سعد بن عبادة لعمر (كان
صاحبك أوبكر أحب إلينا منك وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك)^(١)،
ليعبر عن الأحقاد الدفينة بين قريش وأهل يثرب، وقد أدى موقفه هذا

(١) أنظر خالد محمد خالد، رجال حول الرسول ص ٦٤٥

إلى مقتله، فقال العرب: لقد قتلته الجن، وإنتحلوا في ذلك شعراً. ولكي لانخرج عن موضوعنا نعود فنقول، بأن محمداً واصل معاركه على نفس النمط، فحسم بني قينقاع (أو النضير) وحسم وادي القرى وفدك، وكلهم نزلوا عن حصونهم تاركين أرضهم للقوة الصاعدة الجديدة، ولأن هذه الحصون قد فتحت (صلاً) - رغم حصارها - إلا أن غنيمتها يرجع تقسيمها إلى رغبة الرسول المطلقة عكس تلك التي تمت عن طريق قتال كخيبر أو بدر أو ما بعدها من غزوات. وكان قرار النبي أن فيء بني النضير وفدك ووادي القرى كلها له هو وعائلته ينفق منها مدة عام والباقي كان يوضع في تجهيز الجيش الإسلامي من الكراع والسلاح والعدة. وقد أخرج مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب قوله (كانت أموال بني النضير وفدك ووادي القرى مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله)^(١)، وقد قيل إن الآية ٤١ من سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قد نُسخَت الآية من نفس السورة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فأنكر أغلبية المفسرين ذلك قائلين أن حكمها لله وللرسول وليست عطاء خاصاً به، ولكن قيل إن سهم ذوي القربى كان طعمة خاصة بالرسول فلما توفي حمل عليه أبو بكر وعمر صدقة عليه^(٢).

نعود، إذن فنقول إن غنائم الحرب في يثرب أضافت تراكماً

(١) صحيح مسلم ص ٦٩، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) تفسير إس جريز ج ١ ص ٦

مهماً للمسلمين وخاصة المهاجرين وعلى رأسهم النبي نفسه، فأصبحوا يملكون الأرض والزرع والأنعام وانضافت قوة جديدة إليهم بصنع السلاح وشراء الخيل.

ولم يقف محمد عند هذا الحد بل كان يرسل السرايا لتجول في أرض العرب حول يترب قريباً أو بعيداً وحسب إمكانياتها لتعود بالغنيمة سواء في قوافل قد تجوب الصحراء أو في رعي يرعى أو ضالة تضل. فعن الرسول أنه بعث سرية قبّل نجد وفيهم ابن عمر وأن سهماتهم قد بلغت إثنا عشر بعيراً ونفلوا سوى ذلك (زيادة عن حقهم في الغنيمة) بعيراً فلم يغيره الرسول وعن الزهري عن سالم عن أبيه قال (نفّلنا رسول الله نفلأ سوى نصيينا من الأخماس فأصابني شارف (مسن كبير)، أي أن الرسول كان ينفل بعض من يبعث من سراياه لأنفسهم خاصة سوى قسم من عامة الجيش والخمس في ذلك واجب كله^(١)، سواء اشترك الرسول في القتال أم لا.

وخرج النبي بنفسه على رأس سرية إلى بني سليم بعد عودته من وقعة بدر بأسبوع واحد، فبلغ ماء من مياههم يقال له (الكدرة) فأقام عليه ثلاث ليال^(٢) لقد أعلن محمد حالة الحرب على كل الطرق والقبائل واضطر قريشاً أن تغير طرق تجارتها إلى الشام فتسلك طريق العراق، لكنها لم تسلم رغم ذلك فقد أرسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فهاجم إحدى القوافل فأصاب العير بما فيها وأعجزه الرجال، وعندما خمّسها النبي بلغ نصيبه الخاص عشرين ألفاً^(٣) وبالطبع لم يكن دور تلك السرايا من أجل الغنائم فقط، وإنما

(١) صحيح مسلم ص ٧٩

(٢) انظر سيرة إس كثير ح ٢، ص ٥١٩

(٣) نفسه ص ٣٢٨ - ٣٢٩

كان لها دور في إعلان أن القوة المحمدية ستكون هي القوة الأولى في جزيرة العرب، وهي تلك الدعاية المسلحة التي اكتسبت اكتساباً وهي تحمل شعار الإله الواحد، وفوق ذلك كانت عنصراً مهماً في جعل حياة المسلمين الأوائل حياة عسكرية، لا ينسور السيف وهم مرتاحون، ولا يعرفون طريقاً غير طريقه في إخضاع القبائل، فما كان لتلك السرايا أن تقعد في يثرب بلا عمل، وعليها أن تعيش جو الحرب بشكل دائم تجهيزاً لمراحل الانقضاض التالية. ثم إن طبيعة الحياة في المدينة، وطبيعة حياة المهاجرين أنفسهم الذين لم يكونوا يتقنون سوى التجارة أو ما يتبعها وكما قال النبي في أيام الهجرة الأولى (هم قوم لا يعرفون العمل وقد خرجوا إليكم وتركو الأموال والأولاد)،^(١) وهكذا تلقفتهم حياة الحرب ووجدت فيهم بغيتها بل وتبعهم الأنصار أنفسهم عندما كانت تراكمات القتال أكثر جدوى وفعالية إضافية لما يملكون في يثرب. وهنا نستطيع أن نقول بأن نواة جيش إسلامي حقيقي كانت أخذة في التشكل منذ ذلك الحين، عكس الحروب القبلية السائدة والتي كانت تجمع جيوشها عند الحاجة من المتطوعين أو المرتزقة والأحابيش والقبائل، وكانت لهؤلاء حياتهم الخاصة وأعمالهم الأخرى سواء في التجارة أو الرعي أو الزراعة. فأعطى ذلك التفرغ للمسلمين ميزة كبرى، وبالطبع لم يكن هذا التفرغ كاملاً وإنما المعارك المستمرة والسرايا التي تجوب الطرق والوديان كانت من السمات التي أعطت لهذه القوة الإسلامية صفة أقرب لصفة الجيش منها لمجموعة المتطوعين، وهذا رغم أن اتساع رقعة المعارك وحجمها فيما بعد احتاج إضافة عناصر من المتطوعين ومن القبائل الأعراب، يأتون للغنيمة وربما لأسباب أخرى.

(١) نفسه ٥١٩.

ونستطيع القول أيضاً بأنه قبل أن تبدأ معركة «أحد» كان محمد قد حسم معظم المدينة فأجلى كثيراً من اليهود عنها، مما جعل يترب شبه أرض محررة، أو قاعدة أمنة بالنسبة لقواته، ويستطيع أن ينطلق منها ويعود إليها دون أن تتهدده ردة فعل داخلية مؤثرة. لكن بعض القبائل اليهودية لاتزال بالمدينة ولا يزال يهود الأوس والخزرج بها، والمنافقون كانوا لا يزالون أيضاً في كل مكان، وقد آن الأوان ليعلم لهم محمد أنه لن يقبل بذلك إلى الأبد.

قال القرآن ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا (تعودوا) على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ التوبة ١٠١. وخطب محمد في المسجد قائلاً (أيها الناس إن منكم منافقين فمن سمعته فليقم. قم يا فلان). حتى قام ستة وتلاثون رجلاً، أحدهم كان أخاً لعمر ابن الخطاب طبقاً لنظام المؤاخاة^(١). ثم يقول الآن للأنصار بثقة ﴿الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا...﴾ التوبة ٤٠. ورغم أن محمداً قد آمن وضع يثرب لحد كبير، إلا أنها لم تكن أمنة بشكل مطلق وأتاح توازن القوى له مدى واسعاً من حرية الحركة أكثر من ذي قبل وكان وضع يترب عاملاً من العوامل المهمة في هزيمة أحد. كيف؟ سنرى ذلك في الفصل القادم.

(١) تفسير وبيان السيوطي أسباب نزول سورة التوبة ١٠١.

(٤) عشرة أحد

في هذه المرة، كان الأمر مختلفاً عن «بدر»، فمنذ أول يوم بعد الهزيمة، وقريش تجهز نفسها للانتقام، فذهب عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، إلى أبي سفيان وإلى كل من كانت له في القافلة تجارة، وقالوا: يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل حياركم، فأعينونا بهذا المال على حربته لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا. وتوقف النواح على القتلى حتى تحين ساعة الثأر، وعبر القرآن عن ذلك التجهيز قائلاً في سورة الأنفال، ٣٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ورغم أن قريشاً لم تصبها حسرة ولم تغلب في «أحد»، إلا أن محمداً كان مصمماً على خوض معاركه إلى النهاية. واستأجرت قريش مرتزقة من الأحابيش، وتبعته قبائل كنانة وأهل تهامة، فخرجت بحدّها وحديدها ورجالها ومن تبعها، وخرجت معهم نساؤهم إلتماس الحفيظة وألا يفروا، وعلى رأس هذه الحملة أبو سفيان وقد اصطحب معه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة^(١).

(١) سيرة إس كثير ج ٢ ص ١٨ وما بعدها

عندما عرف محمد، لم يستطع أن يقرر أيخرج لهم أم يظل بالمدينة لمواجهةهم فيها؟ كان يرغب أن يقاتلهم فيها، لكن ناساً لم يكونوا شهدوا بدرأ قالوا. نخرج فنقاتلهم بأحد، طمعاً في الغنيمة السهلة، فأتاروا حمية محمد، فلبس لباس الحرب ليخرج. وهنا تدخل عبدالله بن أبي قائللاً (لاتخرج إليهم، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه) فحروب المدن غير حروب الصحراء وأهل يترب يحتمون بمعرفة مدينتهم وبحصوبهم وأطامهم وفي حروب المدن لا يكون الصراع فرداً لفرد ولا سيفاً لسيف، وإنما تشتبك في ذلك البيوت والمداخل والمخارج والظاهر والخفي، الرجال والنساء والأطفال، وفوق ذلك فإن حرباً كهذه تعني حرباً لكل قبائل يترب، فمدينتهم يُعتدى عليها من قوة خارجية، وربما يثير ذلك لدى البعض - وإن لم يكن مع محمد - حمية وطنية

وربما لم يكن محمد نفسه يدرك هذه الميزة كما أدركها ابن أبي، وربما لم يحسب إلا أن المدينة لم تكن في يديه بشكل كامل ولذا لم يأمن القتال فيها، وربما لأن غزوة بدر وماسبقها وماتلاها من سرايا تمت كلها في الصحراء وكانت غالبها في إطار الهجوم لاالدفاع، ذلك الهجوم والانقضاض الذي تدرب عليه أصحابه تدريباً جيداً أما الدفاع فلم يكونوا قد مارسوه بشكل عملي بعد، وربما لكل هذه العوامل قرر الخروج.

وكانت تعبئة قريش مقارنة ببدر أكثر عدداً وعدة وأفضل تنظيماً وإعداداً، فوصلت قواتها إلى ثلاثة آلاف رجل مجهزين جيداً على مدى أكثر من ستة شهور، عكس تجمع بدر المترهل الذي جمع في يوم أو يومين على عجل ونقول «تجمع» لأن كلمة جيش أو حتى محاربين سيكون مبالغاً فيها نظراً لظروف الخروج الفوضوي السريع وفي هذه المرة جاءت قريش ولم تنح قتلاها بعد لم تأت لقافلة

كانت قد فرت فانتفى بفرارها سبب خروجهم وقسمت قواتها إلى ألوية وكل لواء من قبيلة أو عشيرة ليعرف من أين يأتي النصر أو الهزيمة فأصبحت المسؤوليات واضحة. وأتار أبو سفيان حمية البعض وهو يقول. (قد وليتم لواءنا يوم بدر يابني عبد الدار فأصابنا ماقد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه). فقالوا (نحن نسلم إليك لواءنا. ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع^١). وخلف الألوية كانت الزوجات والنساء تضربن بالدفوف تحميساً وتشجيعاً على القتال.

وكان من الوية قريش لواء للأوس على رأسهم أبو عامر بن صيفي، كان في مكة محالفاً لقريش، وخرج من يثرب مباحداً لمحمد. وقال لهم: لو قد لقيت قومي لم يختلف عليّ منهم رجلان. واستسلموا له في أحد بعد أن قاتلهم وأرضخهم بالحجارة.

وكانت خيالة قريش مائة فرس وعلى رأسهم القائد العسكري الذي أظهر نبوغاً حربياً مبكراً والذي بدا محنكاً في حروب الصحراء والذي لم يهزم في معركة واحدة في حياته، والذي ما إن يدخل أرض قتال حتى يدرس جغرافية المنطقة ويضع خططه طبقاً لحالة الأرض وطبيعة الجيوش المتصارعة كما ستثبت ذلك أيام الفتوحات الإسلامية بعد سنوات قليلة. ولذا عندما حطت قريش بأحد فلابد وأنه قد جهز خطة نفذها بعد ذلك بإتقان.

وعباً محمد ألف رجل لمواجهة قريش، فكانت أقصى تعبئته أقل بكثير من تعبئة مكة. وخرج البعض بحثاً عن غنيمة سهلة واضعين في أذهانهم وقعة بدر وهؤلاء القوم الذين لا يحسنون القتال. وانطلق جيش المسلمين حتى وصل (الشوط) ما بين أحد والمدينة، حتى توقف عبد الله بن أبي بن سلول - وقد أعاد حساباته ثانية - في ثلثمائة من

أتباعه، وقرر العودة الى المدينة، وكانت هذه أول ضربة قاسية لنظام
التعبئة الإسلامي، وانعكاساً لحالة القبائل داخل يترب نفسها،
فاهتزت نفسية الجيش، وقال محمد بأسى. أطاعهم وعصاني، ماندرى
علام نقتل أنفسنا هاهنا؟! وقيل أيضاً أن (السلمي) والد جابر بن
عبدالله قال: لو نعلم أنكم أيها الناس تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا
لانرى أن يكون قتال. ثم انسحب، وبقي من جيش محمد حوالي
سبعمئة وقيل أربعمئة رجل^(١)، تلقوا هزة قوية منذ حين، تلتها ضربة
أخرى وهي أن «بني سلمة» و«بني حارثة» همّا أن تعودا إلى المدينة
نافضتي يديهما من محمد وقد أكد القرآن ذلك قائلاً ﴿إِذْ هَمَّتْ
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا﴾ وهكذا رحل محمد بجيش قليل العدد
نسبياً مهتز النفسية لمواجهة عدو أكثر عدداً وعدة ولم يكن خرج هذه
المرة دفاعاً وإنما خرج هجوماً لثأر لآب من، فتحدت نتيجة المعركة
قبل أن تبدأ وسواء ترك الرماة أماكنهم أو لم يتركوها، كما يحلو
لل بعض أن يعلل هزيمة أحد بهذا السبب فقط مهملين دائماً العوامل
الأكثر تأثيراً في مجريات الصراع.

وبالطبع كانت عدة القوات المحمدية ضئيلة بالنسبة لقوات
قريش، فإن كان خيالة مكة مائة فإن كتب السيرة تذكر أن جيش
المسلمين رحل بلا فرس واحد، وهذا أمر غير مقبول عقلياً فإن كان
للمسلمين فرسان في بدر فمن الأخلق أن يكون لهم أكثر من ذلك بعد
تزايد عدتهم وقوتهم، ثم إن هناك رواية تناقض هذه الروايات فتقول
بأن ذؤابة سيف أحد المسلمين قد أصابت ذنب فرس لهم أثناء
الرحيل،^(٢) لكن ذلك لايعني أن خيل المسلمين كانت تقارن بما

(١) أنظر نفس المراجع ح ٣ ص ١٨ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ٢٢.

لقريش من خيل وفرسان مهرة

وسارع محمد بجيشه شمالاً، إلى أن وصل جبل أُحد، ونزل الشعب في عدوة الوادي وفي الجبل، وقال: لا يقاتلنَّ أحد حتى أمره بالقتال.

وانطلقت قريش تتبعه، فوجدته قد احتل الجبل ليحمي ظهره، وقد وضع عليه خمسين رامياً وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال له: إنضج الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتيتنَّ من قبلك. ولبس النبي درعاً فوق درع، واختفى المسلمون وراء مغافرهـم.

أطلقت قريش الإبل والخيل في زروع كانت بالصحفة من قناة كانت للمسلمين فقال أنصاري حين نهى النبي عن القتال انتظاراً: أترعى زروع بني قيلة في أرضنا ولما نصارب؟.

وبدأ القتال مناوشات فيقتل ويجرح المسلمون من قريش وتقتل وتجرح قريش من المسلمين حتى كانت (خدعة خالد بن الوليد)، والتي أطلق عليها كل المؤرخين بلا استثناء (إنتصار المسلمين) في بداية المعركة، وهو أمر لا يمكن الاقتناع به على الإطلاق في ظروف جيشين كان هذا حالهما، ولكننا نعتقد، بل نكاد نتيقن، من أن قريشاً أفتعلت هروباً ظاهرياً ليتبعهم المسلمون، فيتيحوا بذلك إمكانية لخيالة مكة أن ينقضوا عليهم من الخلف، ويحسموا أمر المعركة. وما يؤكد ذلك تلك الأحاديث التي رُويت كلها عن إشارة شهية المسلمين لأقصى حد، باستخدام نساء قريش اللاتي عرَّين سوقهنَّ وخلاخلهنَّ وافتعلن الهرب مع رجال مكة، فهنا تلك الرواية ^(١) عن الزبير أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم

(١) أنظر سيرة ابن كثير ص ٤٣ وما بعدها

(سوق) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفت القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفنا، حتى خلص العدو إلى الرسول فذُت بالحجارة حتى وقع لشقة (كان قد صنعها أبوعامر بن صيفي الأوسي ليقع فيها المسلمون فأغمي عليه)^(١) فأصيب رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة هرباً، وانطلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة (فصرخ) الرسول. إلهي عباد الله. إلهي عباد الله، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً بعد أن ظنوا أنه قتل. وعن قتادة أنه لم يبق سوى إثنا عشر رجلاً مع النبي.^(٢)

وأصاب حالة الهلع التي أحدثها فرسان مكة في جيش المسلمين إصابة قاتلة، فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسلاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، وصعد محمد إلى أصحاب الصخرة وقال لهم (ليس لهم أن يعلنوا) ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة من أعلى حتى أنزلوهم عنهم.

وما يؤكد اعتقادنا هذا هو اتفاق الروايات على أن نهار أحد كان للمسلمين وكان كل ما استطاع المسلمون قتله من لواء قريش وأتباعها لم يزد عن عشرة أشخاص وقيل سبعة أو تسعة وأعلى رقم ذكر كان أربعة عشر رجلاً. فهل يجوز أن يصاب جيش تعداده ثلاثة آلاف محارب في هذا العدد الضئيل ويولي الهرب بسبب هزيمة؟! بل إن ذلك لا يؤكد انتصاراً كما يحكي المؤرخون وإنما يؤكد شيئاً واحداً

(١) مابين القوسين في رواية أخرى

(٢) أسطر سيرة ابن كثير ج ٣ عن وقعة أُحُد وانظر أيضاً صحيح البخاري.

هو ما أُنْزِلَنا إِلَيْهِ مِنْ خُذْعَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ.

وَكَانَ أَغْلَبُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ وَصَلَ الْمَدِينَةَ فَرْعاً مُتَفَرِّقاً، وَفِيهِمْ بَعْضُ كِبَارِ الصَّحَابَةِ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، فَعَنِ الْبَخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو سُئِلَ أَتَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَتَعْلَمُ تَغَيُّبَ عَنْ بَدْرِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَتَعْلَمُ أَنَّهُ تَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ. نَعَمْ. (١)

يُؤْنِبُهُمُ الْقُرْآنُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِهِمْ مُحَمَّدًا فِي عَسْرَتِهِ قَائِلاً ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَاقَاتِكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران ١٥٢، ١٥٣. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: انْكَفَأَتِ الرِّمَاطَةُ جَمِيعاً فَدَخَلُوا فِي الْمَعْسَكِ يَنْهَبُونَ وَالتَّفْتُ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّبَسُّوْا، فَلَمَّا أُخِّلَ الرِّمَاطَةُ تِلْكَ الْخَلَّةُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، دَخَلَ الْخَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى الصَّحَابَةِ، فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَالتَّبَسُّوْا، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ (قِيلَ سَبْعِينَ مُسْلِماً) وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ وَلَمْ يَبْلُغُوا (الْغَابِ) إِنَّمَا كَانُوا تَحْتَ الْمَهْرَاسِ (مَاءٌ بِأَعْلَى جَبَلٍ أَحَدٍ)، وَصَاحَ أَحَدُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشْكُ أَنَّهُ قُتِلَ حَتَّى طَلَعَ بَيْنَ السَّعْدِيِّينَ نَعْرِفُهُ بِتَكْفُؤِهِ إِذَا مَشَى (وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ عَرَفْتُ عَيْنِيهِ تَحْتَ الْمَغْفَرِ تَزْهَرَانِ) (٢)، فَرَقَى نَحُونَا وَهُوَ

(١) انظر سيرة ابن كثير ج ٣ عن وقعة أُحُد. وانظر أيضاً صحيح البخاري.

(٢) تفسير ابن جرير مج ٤، ٤٠٢، ح ٤ ص ٩١، ٩٠.

يقول: إشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبيهم. ويقول مرة أخرى (اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا حتى انتهى إلينا، ونهض إلى صخرة من الجبل ليعلوها وكان قد بدن (ثقل من السن) وظاهر بين درعين فلم يستطع النهوض فساعده طلحة بن عبيدالله. فمكث ساعة فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل أعل هُبَل. أعل هُبَل، أين ابن أبي كبشة؟ (يقصد محمداً وهو كنية لأبيه عبدالله). أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟! ثم أقبل على أصحابه فقال. أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم. فرد عمر كذبت ياعدو الله. إن الذين عدت أحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوؤك؟. فقال: يوم بيوم بدر، وحنظلة بحنظلة، والحرب سجال، وأنتم واجدون في القوم متلاً لم يكن عن رأي سراتنا وخيارنا ولم نكرهه^(١)

وهكذا أنهت فعلة خالد وعجلت بمصير المعركة كلها، وحققت قريش انتقامها الذي كانت تريد، وأن لها أن تعود فتغني، أو تنوح على قتلى بدر الذين لم تزل أجسادهم طرية تحت التراب ورغم ذلك أرسل محمد علياً بن أبي طالب ليخرج في أثار القوم وقال له: أنظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرين إليهم تم لأناجزئهم^(٢). فقد كان معظم الجيش قد فرّ إلى المدينة، وقد تفرق في الشعاب، ولم يبق منه غير عدد قليل جداً إختفى بين الصخور وفي الكهوف، وظن محمد احتمال أن يشجع الانتصار قريشاً لتسير

(١) السيوطي. الدر المنثور ج ٢. ص ٨٤ (حنظلة بحنظلة. يقصد حنظلة بن الراهب

المسلم الذي قتل في أحد وحنظلة بن أبي سفيان الذي قُتل يوم بدر).

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٧٦.

إلى يثرب فتستأصل شأفة هذا الجيش، لكن هذا كان يعني أن مكة ومن معها عليهم أن يخوضوا حرباً جديدة لم تكن في ذهنهم ولم يجهزوا أنفسهم لها. وقد كانت أحد حرباً ذات طابع تأديبي إنتقامي كما قلنا، فأثرت قريش أن تعود إلى مكة بنصرها الثمين بدلاً من أن يتحول إلى هزيمة أو إلى مواجهة شاملة مع يثرب وبما لم يكن في قدرة جيش مكة آنذاك

ولك أن تتخيل موت محمد في أحد ماذا كان يمكن أن يكون حال الإسلام بعد ذلك؟ وقد هرب كل جيشه بما فيهم بعض صحابته الأولين؟! وشوكة أعداء الإسلام في يثرب وخارجها لم تكسر بعد، ولم يكن دخل الإسلام حينئذ سوى بعض أهل يثرب وجزيرة العرب؟ ولم يكن قد تمكن من القلوب ولم تتحدد ملامحه النهائية بعد؟! لكن هذا لم يحدث، وعاد محمد إلى يثرب وهو يواجه عثرة عليه أن يقوم منها وهزيمة عليه أن يواجه آثارها، وجروحاً عليه أن يداويها قبل أن تسمم البدن الإسلامي الضعيف.

فما هي الإجراءات التي اتخذها محمد ليعود إلى حالته الأولى ثم ليتخطاها فيصبح أقوى من ذي قبل؟

كان هزيمة أحد لم تكن إلا دافعاً جديداً لعدم التراجع عن حالة الحرب التي صبغت حياة قبائل الحجاز قبل أن تجهز تماماً على الوثنية في أرجاء جزيرة العرب. إستكانت مكة بنصرها وعادت إلى تجارتها ولهوها، بينما انطلق محمد وفي ذهنه أن يثخن في الأرض قبل أن تطوله

نبحث في كتب التاريخ وكتب السيرة عن آثار هزيمة أحد، ويضمننا البحث فلا نظفر بشيء، وكان المدينة كانت قد حسمت تماماً لصالح محمد، وكان الأمر لا يعدو أن يكون أمراً عابراً انتهى

بمجرد عودة الجيش المهزوم، وكأن كل مايعني المؤرخين جروح محمد ومن عسلها ومن داواها، إلى آخر تلك التفاصيل التي لاتفيد الباحث في شيء. ولكننا نستطيع القول أن القيام من عشرة أخذ بالسرعة التي تمت بها، إنما كانت لأن محمداً كان قد جعل المدينة أرضاً له وإن لم تكن كذلك بنسبة مائة بالمائة، ثم إن مسألة حَسْم أمنها كان قد تم بعد معركة بدر وأصبحت قوة المسلمين ذات بأس يُخشى، فعارض من عارض عن خوف ونافق من نافق عن رهبة ولاسيما وأن حالة الحرب كانت معلنة ولم تُغمد السيوف في أجربتها. فقد كان سيف المسلمين مُتعباً بعد أخذ لكنه كان لايزال مشهوراً وقتلى الجيش لم يتجاوزوا السبعين، فمكة خرجت له انتقاماً منه ولم تخرج لتصفيته النهائية، وكانت حساباتها لابد مخطئة، في أن وقعة أخذ لابد وأنها ستجعل قوافلها تمر بسلام إلى الشام، وأن محمداً لن تقوم له قائمة بعد الآن، ولم تدرك ذلك إلا بعد أن قُطعت الطرق وهوجمت القوافل والقبائل، فجمعت الأعراب في وقعة الأحزاب لعلها تستطيع أن تحقق هذا الهدف، لكن المسلمين تعلموا من خروج أخذ وكانت شوكتهم قد قويت بما تجاوز قوة بدر بكثير. وربما أدركت قريش هذا الأمر مبكراً، ففي رواية أن رجلاً قدم على النبي من مكة بعد هزيمة أخذ، فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال: نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئاً، أصبتم منهم شوكة، وأصبتم حدّ القوم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم^(١) وهذه الرواية توضح إلى أي مدى أحست قريش بخطأ حساباتها، وهي لم تكن تجهز إلا للانتقام ولم تكن حالة الحرب قد وصلت للدرجة التي لابد فيها وأن يُرضخ أحد

(١) انظر السيرة السوية لابن كثير ج ٣، ص ٩٧

الطرفين الطرف الآخر إرضاخاً نهائياً فهذا الأمر كان يحتاج وقتاً طويلاً لتحسم التفاعلات دور السيادة لصالح هذا القطب أو ذاك.

وكان لبقاء محمد حياً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الإسلام، دور في تماسك الجبهة المفككة وقيادتها من جديد، فبدأ الأمر وكان المسلمين لم يفقدوا إلا سبعين رجلاً في وباء مَرَّ بالمدينة فقال القرآن في سورة آل عمران ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم؟﴾.

عاد محمد وهو يعرف موازين القوى داخل يثرب، فلم يشر معركة مع الذين رجعوا مع عبدالله بن أبي، وجراحه لم تندمل بعد، رغم أن البعض قد رأوا أن يقاتلوهم، لكن هذا لم يكن في مصلحتهم وجبهة ابن أبي قوية وهم لم يعلنوا عداءهم للإسلام وإنما أعلنوا تأييده وكان الأمر لم يكن سوى اختلاف في وجهات النظر.

أخرج عن سعد بن معاذ أنه قال: خطب رسول الله بالناس فقال: من لي بمن يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني؟ فقال ابن معاذ: إن كان من الأوس قتلناه، وإن كان من الخزرج أمرتنا فأطعنك، فقام سعد بن عبادة فقال: مابك يا ابن معاذ طاعة رسول الله ولقد عرفت ما هو منك، فقام أسيد بن حضير فقال: إنك يا ابن عبادة منافق وتحب المنافقين، فقام محمد بن مسلمة فقال: أسكتوا أيها الناس فإن فينا رسول الله وهو يأمرنا فننفيذ أمره^(١). فحسم محمد الأمر وهو لا يريد أن يعود الصراع بين الأوس والخزرج أو بين الخزرج والخزرج أو بين الأوس والأوس، فتقلت يثرب من بين يديه، فقال القرآن ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم (نكسهم

(١) انظر تفسير وبيان أسباب النزول للسيوطي. ص ١٤٧. وما بعدها.

وردهم إلى حكم الكفر)، بما كسبوا، اتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً، إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فإن إعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السّلم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً. ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السّلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(١).

وتلك الآيات لتعبر عن الحالة التي كانت عليها يثرب بعد أخذ والتي كادت تؤدي إلى الحرب لولا أن محمداً كان قد حسم الأمر فأعلن لهم أنه لا يريد قتالاً، ولكن ليس معنى ذلك أنه ضعيف، فعلى الذين رجعوا عن القتال أن يعلنوا ولاءهم لمحمد (حتى يهاجروا في سبيل الله) وأن يُثبتوا حُسن نواياهم وإلا فالجرب^(٢). وأعلن الذين عادوا

(١) النساء ٨٨ - ٩١ (حصرت صدورهم، ضاقت وصارت محرجة بين هذا وذاك، السّلم، الإستسلام والإنقياد للصّلع أركسوا فيها، قلبوا في الفتنة أشنع قلب لم يعتزلوكم لم يبتعدوا عن إيذاكم والدس لكم سلطاناً مبيناً حجة واضحة تبيح لكم قتالهم (من الآية ٩٠ - ٩١. أمر الرسول أحد صحابته فصالح بني حوّلج على أن لا يعينوا على الرسول وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فلا يترص لهم المسلمون بقتال ولا أسر ولا قطع طريق). أنظر المرجع السابق في أسباب نزول وشرح تلك الآيات من سورة النساء.

(٢) وقيل أن تلك الآيات نزلت في قوم من العرب أسلموا وأتوا المدينة فلما أصابهم وباء =

قبل أُخِذَ أنهم اختلفوا فقط في مسألة الخروج من المدينة. وهكذا حُسِمَ الأمر لصالح محمد مرة ثانية.

أثيرت مسألة أخرى بعد مقتل هذا العدد الكبير من المسلمين، لأن نظام المؤاخاة الذي ابتدعه النبي في الأيام الأولى نظراً لفائدته القصوى للمسلمين الأوائل، كان يبيح للأخ في الدين أن يرث أخاه، فكان الرجل يعاقد الآخر قائلاً ترثني وأرثك.. وهنا حكاية طريفة عن الزبير بن العوام وكعب بن مالك وكانا أخوين طبقاً لهذا النظام، فقال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد فقلت: لومات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته. لكن القرآن قال ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الأنفال ٧٥، فصارت الموارث للأرحام. وجعل محمد بعض أموال الذين قُتِلُوا وقفاً عاماً للمسلمين، وكان أول وقف للمسلمين بعد أُخِذَ هو أموال «مخيريقي» اليهودي الذي أسلم وقتل في أُخِذَ وكان له سبعة حوائط بالمدينة.

وهكذا لم تتن كهوة أُخِذَ رجالاً كمحمد كان ولا بد واضعاً في حسابه مثل هذه الكبوات في مسيرة صراعه، فكل دعوة «ثورية» الطابع، لها وعليها. لها أيام حتى تنتصر، وعليها لحظات انكسار تُقوِّي شوكتها وتُعْضِدُ مسيرتها. فقام محمد ببعد نظره وقوة شخصيته من لحظة الانكسار تلك وأعاد تماسك البناني ويُعد النظر هذا تمخض عن الاستمرار في القتال وكأن شيئاً لم يحدث، فبيديه قوة لا يمكن أن يهدرها تلك القوة التي تكونت عبر سنوات مريرة من الكفاح رجالاً برجل ودرهماً بدرهم وطوبة بطوبة وذلك الرجل الذي ينحت الصخر منذ بدأ لا يمكن أن ييأس بعد أن أحرز الانتصار تلو

المالريا (وباء المدينة) فأركسوا وجرحوا من المدينة ويقول السيوطي في تفسيره إن في إسناد هذا الخبر تدليس وانقطاع.

الإنْتصار ورأى بعينه أن الحسم النهائي قريب، بل وقريب جداً. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه باختصار أن دعوة محمد حملت طابعها (الإستراتيجي)، وقوي هذا الطابع من خلال مسيرة الصراع في بلاد الحجاز، فلا تهتز الإستراتيجية بفشل «تكتيك» أو آخر مادام النجاح قد تملك سيفاً ويدين.

كانت نكسة «أحد» دافعاً مثيراً لأن يتقوى الطابع الهجومي «للجيش» المحمدي والذي يمكن تعبئته في وقت قصير نسبياً، ذلك الطابع الذي اتضح في كل السرايا التي أغارت على القبائل العربية في مواقعها، فإن كانت قريش قد ظنت أنها ستأمن غاراته، فهذا هو يغير على الطرق التجارية وعلى أمن القبائل فيزعزعه، وكانت (الدعوة الدينية) في هذه الغارات لتطرح إلا كأمر ثانوي، فمن قبل بأمر محمد عليه أن يتبعه فليس لباس الحرب ولباس الحرب هذا هو الإسلام وغدا من الصعب الفصل بينهما كأمرين مختلفين، فقد تحول الإسلام إلى الجهاد وشمل الجهاد الإسلام فغطى التفاصيل الأخرى وجعلها تبدو أقل أهمية. فما إن ترفع القبائل رأسها حتى تجد سيوف محمد محيطة بها وبأرضها فتولي الهرب تاركة أموالها وأنعامها، وكانت المفاجأة غالباً هي أهم عنصر في تلك الغارات.. فهذه مثلاً سرية (أبي سلمة بن عبد الأسد إلى طليحة الأسدي في قطن) وهو ماء لبنى أسد، فيأمره النبي قائلاً: سرحتى تأتي أرض بني أسد فأغر عليهم. ويسير بمائة وخمسين رجلاً، يقودهم دليل من بني أسد، وكانت النتيجة أن يفر بنو أسد ويتركوا كثيراً من الإبل والغنم ويأسرون ثلاثة ممالك ويعطى الدليل نصيباً من المغنم وتُخمس الغنمة^(١).

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير غزوات مابعد أحد ج ٢ ص ١٢١ ومابعدھا.

وفي أرض الحجاز، أن نكسة أُحد لاتعني أن (جيش) محمد قد شُلَّ ، بل هو قادر على أن يضرب ويغتم ثم يعود سالماً إلى قاعدته الآمنة في المدينة.

وبجانب تلك السرايا، لم ينس محمد عدوه الرئيسي في مكة، فبقدرته على إرهاب القبائل، هو ينتزع السيادة من قريش على تلك القبائل، ويضرب القوافل التجارية هو يهز أمن اقتصاد مكة. فهو يعرف أن الصراع بدأ هناك وسينتهي هناك أيضاً بحكم مكانة مكة في جزيرة العرب، فإن من سيطر عليها فقد سيطر على كل بلاد العرب، ولذا ظلت حلمه الدائم وخطوته الكبرى لتحقيق (استراتيجيته) أوبداية نصره النهائي.

ولا شك أن ضربة مكة لاتزال موجعة بحكم إمكانياتها الاقتصادية والسياسية وتاريخها القديم وبحكم تلك المعركة التي كانت قائمة منذ حين وجيش محمد يتفرق في الشعاب وعند قمة الجبل بحثاً عن النجاة.

يُرسل محمد عيونه لاستكشاف الطرق إلى مكة وتحركات سراياها وقوافلها التجارية، ولعل سرية «الرجيع» كانت واحدة من سرايا الاستكشاف تلك رغم مصيرها المأساوي بقتل سبعة من أعضائها وأسر ثلاثة آخرين وتسليمهم إلى مكة لتشنقهم عند الكعبة، فلا يعود منهم رجل واحد إلى المدينة.

وعندما نخوض في تلك السرايا التي يحب رواة السيرة أن يسموها (غزوات) فإننا نضطر كثيراً للتوقف، نظراً لاختلاف تاريخ تلك الغزوات، فهناك من يقول أن غزوة بني النضير جاءت بعد أُحد، أما حصار بني قينقاع هو الذي حدث بعد بدر^(١) كما ذكرنا. ويختلف

(١) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٤٥ وما بعدها

الرواة أيضاً عن سرية (بئر معونة) هل تمت بعد الخندق أو بعد أخذ مباشرة، فلا نستطيع أن نجد لها مكاناً محدداً في مسيرة القوة الإسلامية، إلا أننا نستطيع أن نأخذ منها عبرتها العامة في إطار ذلك الطابع الهجومي للتنظيم الإسلامي في يثرب، بحثاً عن انتصارات أو تجهيزاً لمعارك قادمة أو إحداثاً لتراكم إقتصادي يكفي الحاجات الجديدة والتي اتسعت مع اتساع رقعة الحرب. بل إن التسرع ومحاولة النصر العاجل، لم ينفذ ذلك الجيش الجديد من الوقوع في الفخ أحياناً، كذلك السرية من سبعين رجلاً والتي نزلت بئر معونة (وهي بين أرض بني عامر، وحرّة بني سليم). وأرسلت هذه السرية إلى نجد بعد ذهاب أبو براء عامر بن مالك إلى المدينة فقابل النبي وطلب منه النبي أن يدخل الإسلام فأبى، لكنه قال له: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فتدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال له محمد: إني أخشى عليهم أهل نجد، فطمأنه قائلاً: سأجيرهم. وعندما قدّموا كتاباً إلى عامر بن الطفيل قال: يكون لمحمد أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفته، أو أغزوه بأهل غطفان بألف وألف.. واستعان بقبائل بني سليم، فخرجوا وغشوا المسلمين وقتلوه عن آخرهم، وهنا أحس محمد بتسرعه فقال. هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً^(١)

نفس التناقض يأتينا عبر الروايات عن غزوة بني لحيان، فمنهم من يقول إن النبي خرج في مثني محارب، وسلك طريق الشام تمويهاً لهم، أي دار عليهم وقال: لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أننا قد جئنا مكة. وصلى فيها صلاة الخوف، وقيل إنها بعد أخذ وقيل إنها بعد بني قريظة أو بعد غزوة الأحزاب. ويقع نفس الاختلال في تحديد

(١) نفسه ج ٣ ص ١٣٥ وما بعدها.

تاريخ غزوة ذات الرقاع التي غزا فيها محمد نجداً يريد محاربة بني ثعلبة من غطفان، وقيل إنه خرج في أربعمائة وقيل سبعمائة، وذكر أنها كانت بعد النصير بشهرين، بينما روى البخاري أنها كانت بعد الخندق^(١).

لكن معظم الروايات تتفق على أن (غزوة بدر الآخرة) كانت بعد أخذ، طبقاً لما روي بأن أباسفيان قال وهو ينسحب إلى مكة بعد المعركة: موعداً بدر في العام القادم. وقيل إنها كانت في شعبان سنة ٤ هـ. فعبا محمد جيشاً قوامه ألفاً وخمسمائة رجل رغم اعتراض بعض أهل يثرب الذين انبعثوا في الناس يثبطونهم عن الخروج، وتذكر الروايات أن هذا الجيش أخذ معه البضائع وقالوا: إن وجدنا أباسفيان، وإلا اشترينا من بضائع موسم بدر، وخرج أبوسفيان ثم قرر الرجوع في منتصف الطريق وهو يقول: يامعشر قريش. إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب وإنني راجع فارجعوا، وعندما رجعوا سماهم أهل مكة (جيش السوق) وقالوا إنما خرجتم تشربون السوق. فأقام جيش المسلمين ببدر ثمانية أيام ثم عاد وقد ربوا من الدرهم درهمين، فقال القرآن ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾ آل عمران ١٧٤^(٢). ويبدو الأمر هنا اتفاقاً مسبقاً على معركة بين محمد وقريش، هكذا تروي الروايات، وعلينا أن نقرأها كما رويت دون تمحيص أو نظر، وتسميها أيضاً كتب السيرة غزوة من الغزوات وعلينا أيضاً أن نتبع هذا دون إعمال نقد أو دون روية.

(١) نفسه (انظر صحيح البخاري ايضاً)

(٢) نفسه، ج ٣ ص ١٦٩ وما بعدها

فالجيشان خرجا محملين بالبضائع، جيش محمد وجيش قریش، جيش محمد باع واشترى وبيع، بينما عاد جيش أبي سفيان لأن العام عام جذب. مما يجعلنا نسأل. ما علاقة الجذب بالحرب؟ وما علاقة العام الخصيب ورعي الشجر وشرب اللبن بجيش ذاهب لخوض معركة متفق عليها مسبقاً، أو قل لخوض مبارزة^{١٩}. وهذا يجعلنا نشك في صحة الرواية كما ذكرها الرواة، ونعتقد حدوثها بشكل مختلف تماماً عما ظنه البعض غزوة من الغزوات. وهذا الاعتقاد ربما يجعلنا نخوض في بحر من التساؤلات والترجيحات، لكننا نظن أننا بالإمكان الخروج من مياهه سالمين.

فمن المعروف كل عام أن بَدْراً كان له موسم تجاري يُعقد فيه، يبيع التجار ويشترون ويقايضون تم ينفذ الموسم، ليتكرر بعد ذلك أي أنه كان سوقاً من تلك الأسواق المنتشرة عبر شبه الجزيرة كسوق دومة الجندل وعكاظ والمجنة وذِي المجاز، إلى آخر تلك الأسواق التي كانت محطات للتجارة في قلب بلاد العرب.

وكانت التراكمات التي أحدثتها السرايا والغزوات والتجارة داخل يثرب وخارجها تبحث عن نمو لها في تلك الأسواق، لكن معظم هذه الأسواق لاتزال مغلقة على قریش. وكانت الحاجة الإقتصادية المتزايدة ليثرب بعد دخول عدد كبير من أهلها الهيئة الإسلامية، وبعد تضخم تلك الحاجة مع اتساع الصراع على الطرق وأبار المياه والقوافل التجارية والسيطرة عليها، تبحث عن حل لها في السيطرة على أسواق التجارة والدخول في منافسة معها وتحطيم احتكار قریش لها ونظامها الإقتصادي الذي أعطاه تلك المكانة التاريخية منذ القدم. بمعنى أنها كانت حرباً إقتصادية اكتشفها المسلمون وهم يطورون الصراع داخل بلاد العرب.

ونحن نعتقد أن تجارة مكة، لم تتوقف نحو الشام رغم سرايا

محمد، فلا بد وأن قوافل تجارية قد مرت، ولكنها لم تكن بحجم قافلة العير الشهيرة، لأن القوافل الكبيرة تعني أنها ستلتفت انتباه القوة الإسلامية الجديدة والتي لا همّ لها سوى مهاجمة طرق تلك القوافل، وهذا ما لا تحتاجه التجارة ولا يفيد الاستقرار كأهم عامل لاستمرارها. وربما حوّلت القوافل طرقها فاستخدمت طرقاً جديدة، وربما ازداد ضغطها على طرق الجنوب والتي كانت ما تزال في قبضة مكة ولا يمكن السيطرة عليها إلا بالسيطرة على مكة نفسها. ونعتقد أيضاً بأن تجارة يثرب مع الشام كانت قائمة وربما ازدادت بدخول عدد من التجار المسلمين المهاجرين إلى المدينة، وربما خرج تجار مسلمون إلى الشام أو العراق أو بلاد فارس، وإن لم تكن بنفس حجم تجارة مكة. ورغم هذا لا نجد في الكتب إلا بعض إشارات ضئيلة عن رحلات تجارية عبر دومة الجندل والتي سكنها جمع كبير من البشر وأن لهم سوقاً عظيماً بها وأنهم يظلمون من مرّ بهم، كما يُقال في كتب السيرة.

كان التراكم الإقتصادي، إذن، يحدث عبر الحروب والغزوات أولاً، والتجارة ثانياً، وربما بعض الاستثمارات الزراعية والرعية في الأراضي التي احتلها المسلمون كأرض بني النضير وبني قينقاع وفدك ووادي القرى وما إلى ذلك من موارد. وكان أقرب سوق تجاري إلى يثرب هو موسم بدر، فلم لاتخرج قافلة إسلامية كبيرة تتاجر مع القبائل العربية وتبيع وتشتري وتزيد ثروتها وتنميها فتكون دعماً للهيئة الإسلامية الجديدة وزاداً لها؟. ومن هنا بالتحديد نعتقد أن رجحاً بأن ماسمّي (غزوة بدر الآخرة) لم يكن إلا أول قافلة تجارية إسلامية كبيرة الحجم، صحبتها أكبر حماية مسلحة في تاريخ القوافل التجارية العربية حينذاك (قليل ألف وخمسمائة مقاتل). ومن هنا نستطيع أن نفهم ضخامة حجم الجيش الإسلامي الذي صاحبها.

فهذا الجيش ارتبط بشكل وبآخر بما في تلك القافلة من مصلحة مؤكدة. والعامل الأكثر أهمية في حشد كل ذلك العدد من الحماة كان ينبع من الخوف إذا واجهت قريش قافلته الأولى فعرضتها للخطر، ذلك الخوف الذي جعل بعض أهل يثرب مترددين في الخروج بأموالهم أمام جيش مكي لا يعرفون ماذا يمكن أن يفعل ودماء أحد لاتزال طرية في الجبال والشعاب.

ويبدو أن مكة لم تجهز نفسها لحرب، فخرجت كعادتها ببيعها وقوافلها للتاجر، ولا بد وأن جيشاً كان يحميها، ولم يكن هذا الجيش معبأً كجيش (أحد)، وإنما كان عبارة عن حراس لتلك القافلة الخارجة إلى سوق بدر. ويبدو أيضاً أن أباسفيان لم يكن يتوقع أن يخرج محمد على رأس جيش قوامه أكبر بكثير من تعبئة أحد يحفزهم في ذلك أموالهم وبضائعهم ومحاربون ربما خرجوا مع جيشه ولم يكونوا ينتمون إلى الإسلام إلا بالإسم، وإنما خرجوا بحثاً عن فائدة أو ربح تحت حماية جاهزة مؤكدة لا يمكن ضمانتها دون هذا الجيش وفي ظل ظروف تورط أو إقحام يثرب في الصراع مع مكة.

وهذا يفسر عودة أبي سفيان في منتصف الطريق بقافلته وحراسها، فأتاح هذا الرجوع لمحمد انتصاراً كبيراً من يد قريش، فمحمد كان يهاجم دائماً، وقريش كانت مترددة في صراعها. ومحمد كان يبحث عن انتصار شامل، وقريش لم تفكر في ذلك لأن ساداتها مشغولون في مصالحهم وتجارتهم.. ملهيون في أموالهم وحياتهم، ومحمد كان يحارب هو ورجاله في سبيل قضيتهم بأنفسهم، متفرغين لها ولا شيء سواها، بينما فُرضت الحرب فرضاً على ملائكة والذين ظلوا محافظين على أمنها ولم يخوضوا الحروب إلا نادراً بحثاً عن إرجاع حالة الاستقرار وهي أهم شرط لیتاجر الناس ولتتعبد قبائل العرب حول الكعبة، وكان هذا الملا في وضع الدفاع وإن بدا مهاجماً

أحياناً مندفعاً أحياناً أخرى.

وربما ينسف هذا كله القول القائل بأن محمداً شرع سلاحه دفاعاً عن نفسه وبشكل مطلق، ربما يكون هذا صحيحاً في الأيام الأولى من دعوته، لكن ذلك الدفاع انتقل إلى مرحلة الهجوم بسرعة غير متوقعة أفرزتها الهجرة إلى يثرب كقاعدة شبه آمنة للإنطلاق والإنقضاض، بل والتيقن أن العدولن يتجرأ على مهاجمتها أو على الأقل لن ينجح في احتلالها وتصفيته، مما أعطى للهيئة الإسلامية ثباتها واستمراريتها وتنامي قوتها على جميع المستويات وخاصة في مراحل الخطر الأولى.

وإن كان أبو سفيان قد قال: موعدنا بدر، فربما كان لايعنيها أو قالها ساعة نشوة الإنتصار، فلم يجهز نفسه لها - إن كان قالها حقاً - وإلا فلماذا أنسحب من منتصف الطريق وقال إن العام مجدب؟ أي أن التجارة ستكون راکدة هذا العام، فارجعوا بقافلتكم؟ مما أعطى لمحمد فرصة ذهبية لأن يحتل السوق بالكامل ويربح من الدرهم درهمين، بل أمدّه ذلك الانتصار بارتفاع معنوي داخل يثرب وخارجها فنسف ما بقي من هزيمة أحد نسفاً.

وأطلق دافع السيطرة على الأسواق وطرق التجارة، أيدي محمد في الشمال بعيداً عن مكة، رغم تحذير البعض له، بأن مهاجمة أطراف الجزيرة ستفزع قيصراً، إلا أنه كان قد قرر أن يخوض تلك الحروب والتي كانت تجمع قوى الإيمان مع المتردد مع غير المؤمن، وكل خارج لغايته في نصرة دين أو لمغنم أو لكليهما سوياً وتحت إسم واحد هو الإسلام، والتي أثبتت الأيام أن ذلك الجيش الخارج يعود بالغنيمة دائماً. فلم لا يخرجون إلى أعظم سوق في شمال جزيرة العرب في دومة الجندل؟

جمع محمد ألفاً من المقاتلين وخرج على رأسهم سرّياً، فكان

يسير بالليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة يقال له «مذكور» ماهر في استكشاف الطرق، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بني تميم، ففاجأهم وهاجم ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل الجيش ساحتها، فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً وبث السرايا في الطرقات لاستكشاف عدو متوقع أو نجدة آتية، وعندما أسروا رجلاً منهم سألوه عن أهلها فقال. هربوا أمس^(١)

أشار محمد، إذن، حالة فزع قصوى وسط القبائل العربية بجيشه المحارب دائماً، المنقض دائماً وفي كل مكان، ولم يعد الإسلام مجرد دعوة جدل أو أخذ أو رد عقلي، بقدر ما فوجئت القبائل بسرايا تهاجمها في الليل أو النهار، فتقتل وتأسر وتغنم، ولم يكن لها حاجة في قتاله إلا دفاعاً عن نفسها أو عن أرضها وسوائمها وأنعامها، أو عندما يأكلها الجذب فتهاجم بعضها البعض في حروب تهدأ حيناً وتشتعل حيناً آخر.

لكن حروب محمد لم تهدأ أبداً منذ اشتعلت نيرانها، وهذا هو الفرق الأكبر بين حروب ما قبل الهجرة، وحروب النبي مع القبائل العربية.

حقاً، لم يفعل محمد شيئاً غريباً عن طبيعة الصحراء وتشكيلاتها الاجتماعية، فالحرب كانت صفة لازمة والصراع كان دائراً على موارد الرزق المحدودة، لكنها كانت تنتهي بصلح أو معاهدة أو بشار أو دية أو بفداء لكن الحروب الإسلامية كان في هدفها غرض أسمی وأكبر، كان في هدفها السيادة السياسية قبل السيطرة على الطرق وموارد الرزق والأسواق والبلدان، والتي كان

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ص ١٧٧، ١٧٨

لا يمكن حدوثها إلا بالتجهيز لصراع طويل عبر تمرين مستمر ودائم من السرايا والغزوات وقطع طرق القوافل، ثم الانقضاض النهائي بفتح مكة ثم السيطرة الكاملة على شبه جزيرة العرب. وكان لذلك الفرع الذي أثاره محمد شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، دور كبير في شحن همة القبائل، وقبلها مكة للتخلص منه نهائياً، فلم يكن هناك أمامها سوى بديل واحد. هو التصفية، والتي لابد وأن تكون تصفية حقيقية لأحد الطرفين، حتى قبل أن يأتي فتح مكة بكثير.

(٥) يكون أو لا يكون

حددت هجمات محمد أعداءه تحديداً واضحاً، وكانت سياسته الإنهاك المستمر للقوى القبلية في جزيرة العرب تمهيداً لإخضاعها وقيادتها.

أنهكت مكة بحكم قطع طرق تجارتها الى الشمال، وإتارة الاضطراب والفرع فيها، وكانت المضار الأول من حالة الحرب المتواصلة التي أعلنها المسلمون قبل بدر وتزايدت طردياً مع زيادة القوة الإسلامية. وأنهكت القبائل في واحاتها ودول أبارها وهي تلقى هجومات فجائية، فلم تعرف للإستقرار مكاناً عندها أو حولها، واحتل هذا المكان حالة فزع دائمة بأن يأتي محمد في الليل أو في النهار فيحيط بهم وبأرزاقيهم ليغنم ويأسر.

وسقطت راية اليهود بضربهم طائفة بعد أخرى بني قينقاع وبني النضير، وعرفت الطوائف الأخرى منهم - ولو بالغريزة - أن الدور لا بد وأن يطولهم يوماً، فهم عاشوا وسط الوضع القبلي مئات الأعوام آمنين في بيوتهم منعزلين خلف حصونهم، وإن هوجموا يوماً هاجموا يوماً آخر، وظلوا بين التقدم والتراجع أحياء يحافظون على أجيالهم جيلاً وراء جيل. أما أن يطرح أمر استئصال شأفتهم تماماً وبشكل عملي، فهذا الذي لم يكونوا يتوقعونه، حتى فاجأهم محمد وهو يحاصرهم ويجوّعهم ويقطع نخيلهم ويحرق زروعهم ويستولي على بيوتهم وأرضهم وأرزاقيهم.

وخفت صوت الجدل، ليرتفع سهيل الخيل وصليل السيوف في الأرض العربية، لأن هذا ما يعرفه الناس في كل مكان وزمان، ويعرفه العرب أكثر بحكم حالة الجذب والطبيعة القاسية حولهم. فالجدل قد يغير أفكار شخص أو مجموعة قليلة من الأفراد، لكن تغيير مجاميع بشرية كبيرة من السكان وخاصة في أمر عقائدها التي عاشت بها آلاف السنين وهي تقاوم الخوف والمجهول حولها، فإنه يحتاج نوعاً آخر من الأسلحة الأكثر فعالية، ولاسيما وأن ذلك العصر لم يكن عصر إعلام واسع ووسائل الإتصال كانت بدائية ضعيفة. وبالجدل والحوار والحجة يمكن أن يلتف حولك من لهم مصلحة في حجتك أو هوى في عقيدتك، ولكنهم - على أي حال - لن يزيدوا عن نواة يمكن أن ينخرها السوس، ويمكن أن تنبت شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء لو عرفت أن تستخدم التاريخ ولانت لها مسيرته. وربما تعلم محمد ذلك في أكثر من عشر سنوات طويلة وهو يدعو في مكة وحولها، ونواته كما هي لم تنبت بعد، ولو لم يتح له التاريخ والظروف الموضوعية من حوله، وتصميمه على اعتلاء هذا التاريخ بامتلاك تلك النواة لوسائل قوتها، لما سمعنا عن الإسلام إلا كإحدى حوادث التاريخ ذات الأهمية الثانوية

وهذا ما فهمه المسلمون فيما بعد وهم يتخطون حدود جزيرة العرب شمالاً وشرقاً وغرباً وهم يسيطرون على مجاميع سكانية وبشرية ضخمة، ويحكمون شعوباً، فم تكن طريقتهم هذه جديدة عن ماضيهم الذي بدأ بإخضاع العرب أنفسهم على يد محمد، ذلك الإخضاع الذي كان أصعب بمراحل من مواجهة أكبر امبراطوريتين في ذلك التاريخ، بحكم أنه بدأ وحيداً، وانتهى بجيش ودولة في مواجهة طبيعة قاسية وظروف صعبة، وكان إخضاع كل قبيلة وكأنه يخضع دولة، لأن لكل قبيلة قانونها وعرفها (ودولتها) - إن جاز

التعبير - ولم تتعلم الخضوع لأي غريب عليها، بينما كانت البلدان تحت سيطرة الروم أو الفرس قد تعودت الخضوع واستساغته لعدة قرون من الزمن، فلم يأتها الفتح العربي غريباً على تاريخها، بل كانت يوماً تحت يد هذا أو يد ذاك من الفاتحين والغازين، فتدربت على الخضوع والطاعة

ولكي لانخرج عن موضوعنا، نعود فنقول، إن الصراع في جزيرة العرب قد تجذرين قوتين أصبحتا تتنافسان - أو بمعنى أصح - تتصارعان على السيادة السياسية والإقتصادية والعقائدية. القوة القديمة والتي مازالت في يدها الأسلحة وهي القوى القبلية بزعامة مكة السياسية والإقتصادية والعقائدية والقوة الجديدة والتي كانت تنتزع وسائلها وإمكاناتها من القوة القديمة، وتحفر خندقها في أرضها وتستولي على جزء كبير من رصيدها ووصل الصراع إلى درجة الحسم بحصار الأحزاب والذي كان يختلف عن كل الحروب السابقة بطبيعة الحشد وطبيعة الإمكانيات المستخدمة فيها. فالقوة القديمة عليها أن تعيد التاريخ إلى الوراء فتستقر طرقها وتجاريتها ودينها، والقوة الجديدة عليها أن تجري بالتاريخ للأمام فتتملك الطرق والثروة والدين.

وهكذا تجاوز حصار الأحزاب، الحالة الإنتقامية بكثير، فخرجت قريش وبنو كنانة وتهماء، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، وخرج اليهود بأعدادهم القليلة من بني النضير وبني وائل. ضرب النبي الخندق على المدينة وأشار عليه سلمان الفارسي حفره في الجبهة الشمالية من المدينة لأنها مكشوفة وذلك في المنطقة الممتدة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، أما جبل (سَلْع) فاعتمد عليه الرسول لحماية المسلمين من الخلف، وخصص لكل عشرة من أتباعه حفر أربعين ذراعاً وخطه لهم حتى لا يعدلوا

عنه، ثم جعل الرماة والصخور الناتجة عن الحفر في ناحية المدينة ليحتمي بها المقاتلون، ويحول بين العدو وبين العمل على ردم الخندق بها من جانبه. وتم حفر الخندق في سرعة كبيرة وفي فترة بلغت عشرين يوماً تقريباً واشترك فيه بنفسه مشجعاً، ثم وزع قواته بما يضمن حراسة المناطق المخوفة من هذا الخندق^(١).

أما لماذا لم يخرج محمد من المدينة للقاء ذلك الحشد الكبير والذي قيل إنه تجاوز العشرة آلاف رجل وقيل أربعة وعشرين ألفاً؟! فذلك لأن أقصى تعبئة إسلامية لم تكن تتجاوز الثلاثة آلاف رجل، فماذا يفعل عدد كهذا أمام عشرة أو أربعة عشر ألفاً أكثر وأفضل تجهيزاً؟! والحرب هذه المرة لم تكن حرباً إنتقامية بقدر ما كانت حرباً تصفية إجتمعت لها القبائل بأخر ماتملك - فيما أن تكون أو لاتكون بعدها - كما فهمها محمد بنفسه بعد انتهاء الحصار قائلاً: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم^(٢).

وفوق هذا فإن حرباً بهذا الحجم لم تشهد لها جزيرة العرب سابقة كهذه، لابد وأنها ستستغرق أسابيع طويلة وربما شهوراً، وليس يوماً أو يومين أو أكثر بقليل كما في المعارك السابقة، والحروب التي من هذا النوع لاتصمد في خلاء الصحراء، وإنما تستمر خلف الآطام والحصون.

تعلم محمد من سقطة «أُحد»، وعرف أن المدينة وقاء له وحماية، وإمداد دائم بالمواد، وعرف باحتمائه خلف الجبال والحصون أن حربه لن تكون رجالاً لرجل ولا سيفاً لسيف، وإنما

(١) انظر. إبراهيم العدوي، تاريخ العالم الإسلامي. ص ٨٦

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ص ٢٠٤. بيروت وسيرة ابن كثير ح ٣ ص ٢٢١.

ستشاركه حربه البيوت والأشجار والمياه والأحجار والأنعام والموارد، وحتى الأطفال والنساء عند الضرورة، وسيشاركه المنافق والمتردد والوثني، لأن حرمة بلده وبيته وداره وأهله تُنتهك بواسطة جيش غريب عنه، وهو ما يمكن تسميته بلغة العصر الحديث (إثارة النخوة الوطنية) بالإضافة إلى ذلك فإن أهل يثرب يعرفونها شبراً شبراً وتنجرة شجرة، وكل هذه العوامل تفوق أكثر من عشرة آلاف رجل ينامون في العراء ويهاجمهم برد قارس، بعيدين عن دورهم ومياهم، وأهلهم ومواردهم ومصالحهم المباشرة، وفي العراء لا بد وأن ينفذ مخزونهم التمويني يوماً ما وهو جيش ضخم جداً بمقاييس هذا العصر الذي تم فيه، فما بال ماصحبه من أنعام وخيل ومتطلبات يجب إرضاءها وتتناقص بحكم مرور ساعات الحصار. وكان هذا التجمع خليطاً من القبائل تتفاوت مصالحها وتناقضاتها مع الهيئة المحمدية، فأهداف قريش لم تكن هي هي أهداف غطفان أو كنانة أو تهامة أو اليهود، ولكل غايته من هذا الحصار، ولكن المصلحة الأساسية للجميع هي التخلص من محمد وأتباعه لتهداً الحالة في جزيرة العرب وتستقر الأمور على ماكانت عليه.

لكن المحاصرين لم تكن تخلو جبهتهم من ثغرات، أو قل ثغرة واحدة رئيسية تمثلت في حصن يهود بني قريظة، وأدرك محمد نقطة الضعف تلك، وأدركتها قريش أيضاً ولذا كان اللاعب عليها أفضل هو الكاسب أو ربما هو المحدد لمصير المعركة. تحولت يثرب كلها إلى مايشبه حصناً كبيراً، مؤخرته جبل سلع ومحيطه الخندق، وفي هذا الخندق حصن بني قريظة. أرسل محمد وفداً بقيادة سعد بن معاذ حليفهم القديم وقال لهم: إنطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق مابلغنا عنهم، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنأ أعرفه (أي اتفقوا على كلمة سر) ولا تفقوا في أعضاء المسلمين، وإن كانوا على الوفاء

فاجهروا به للناس^(١)، وهو يعلم إلى أي مدى تلعب العوامل النفسية والمعنوية دورها في المعركة. ويقول لهم: إِنَّ الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها. فقال أحدهم كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا ليا من على نفسه أن يذهب للغائط!... وعبر القرآن عن حالة الخوف تلك قائلاً: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾. الأحزاب.

ولتفادي خيانة بني قريظة تحرك محمد بسرعة فأرسل رجلاً من غطفان^(٢) قائلاً له: خذل عنا فإن الحرب خدعة. فذهب إلى بني قريظة وقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلكم فيه أموالكم وأبنائكم ونسائكم، ولاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونسائهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم ذهب إلى قريش فقال لهم: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني، وقال. تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه. إنا قد ندمنا على ما فعلنا وصالحوه على

(١) سيرة ابن كثير، ج ٣ ص ١٨٥ وما بعدها.

(٢) قيل إن الرجل هذا أسلم دون علم قومه وقيل إنه لم يسلم وربما إشتراه محمد ويدعى نعيم بن مسعود بن عامر بن ثعلبة. (انظر المرجع السابق أيضاً).

أن يأخذوا له من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فيعطونهم له فيضرب أعناقهم ثم يكونون معه على من بقي منهم حتى يستأصلوهم. وذهب إلى غطفان وقال لهم ما قال لقريش. فأرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة وقال لهم: إنا لسنا بدار مقام. هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال عدتكم حتى تناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فطلبوا رهناً وقالوا. إنا نخشى إنْ ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشتموا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

وهكذا أفشل محمد ميل بني قريظة للأحزاب وعليه أن يضرب الآن في معسكر الأعداء نفسه. وهو يعرف أن غطفان ليست كقريش، فهي ليست صاحبة سيادة ولا ثروة ولا مصلحة حقيقية في القضاء عليه، بقدر ما كان لمكة كل ذلك، فأرسل إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري، قائدي غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، وعندما اعترض سعد بن معاذ وسعد بن عباد على الاتفاق قال لهما: (والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما)^(١). فكانت مجرد مناورة للعب على تناقضات الحلف المضاد.

مرت الأيام صعبة على المحاصرين، والمحاصرين، فالطبيعة قاسية والشتاء عار، والدور بعيدة وقوافل الإمداد تحتاج مسيرة طويلة، وهذا ما عبر عنه أبو سفيان قائلاً (إنا لسنا بدار مقام، هلك الخف والحافر). وكان عبور الخندق صعباً لدرجة أن الفرسان الذين

(١) انظر سيرة ابن كثير ج ٢. وقعة الأحزاب.

حاولوا اقتحامه عند نقطة ضعيفة فيه قالوا والله إن هذه مكيدة ماكانت العرب تكيدها(!!)، بل إن أحد فرسانهم سقط بحصانه في الخندق ومات وأرسلت قريش لتشتري جيفته، فقال محمد: هو لكم فنحن لانأكل تمن الموتى.

وكان على قريش أن ترسل بقواتها لتنهى الحرب على وجه السرعة، فالوقت في غير صالحها، والعراء وقلة الموارد لاتخدمها، والزمن يفتت المعنويات وتعمل الأيام فعلها العكسي في تلك المجموعات التي جُمعت وفي ذهنها أنها ستخوض حرباً نهائية ليوم أو يومين في الشعاب أو الجبال

وكان الوضع صعباً بالنسبة للمحاصرين في يترب أيضاً، فالمدينة قد أُغلقت ومصيرها محدد باللحظات القادمة، وجيش العدو يزيد عدداً وعدة، لكن لم يكن أمامها إلا أن تنتظر الحرب وأن تخوضها، بينما لم يكن الأمر هو نفسه بالنسبة للأحزاب والتي يمكن أن ترجع من حيث أتت دون حرب. كما حدث فعلاً.

وجهت قريش كتيبة غليظة نحو منزل الرسول، فقاتلوهم يوماً إلى الليل وكان ذلك وقت صلاة العصر، فلم يصلها المسلمون حتى غربت الشمس، وقال النبي عن تلك الصلاة: إن خفتم فرجالاً أو ركبناً. وقيل إن الذين عبروا الخندق بأقلية بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فقتل إثنان منهم وولى الآخرون الهرب^(١) وحاولت مكة عدة مرات، لكنها لم تنجح في عبور الخندق، وكانت النساء والأطفال والشيوخ خلف الحصون في المدينة بينما إحتفى الجيش بالجبل، ووضع نقاطاً للحراسة والمراقبة على الخندق وبني قريظة.

وظل القتال مناوشة بالنبل، فمات فيها من المسلمين ثلاثة من

(١) نفس المرجع نفس الباب.

بني عبد الأشهل، وأصاب سعد بن معاذ سهم غارب في أكحله فقطعوه له، لكنه لم يتحمل جراحه فهلك بعد شهر، ومات أيضاً الطفيل ابن النعمان وثعلبة السلميان وكعب بن زيد البخاري أصابه سهم فقتله، وقُتل ثلاثة من قريش وهم منبه بن عبد الدار ونوفل بن المغيرة الذي سقط بحصانه في الخندق، وقُتل علي بن أبي طالب عمرو بن ود العامري.^(١)

ويُست قريش وحلفاؤها من اقتحام الخندق بعدما رفض بنو قريظة أن يفتحوا لهم حصونهم، أو أن يتحالفوا معهم. فماتت إبلهم وخيلهم من الجوع والبرد كما قال أبو سفيان، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ماترون، ماتتمس لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بيضاء، فارتحلوا فإني مرتحل.

شاركت الطبيعة، إذن، بدورها في إحباط نفسية الأحزاب، فقررروا العودة يائسين من تصفية محمد أو اقتحام المدينة، فهو - رغم صعوبته القصوى - بسبب الخندق، مخاطرة غير محسوبة العواقب ولا سيما وأن تلك الجيوش القبلية لم تتعود على هذا النمط من الحروب، والتي تحتاج جيوشاً منظمة وطرق إمدادات سريعة، فإن حاصرت حصناً فإنما تحاصره أياماً لا تطول كثيراً، ويكون حصناً وليس مدينة. فقد جاءت قريش وغطفان وظلتا أنهما ستخوضان حرباً كعمركة أحد، فின்றها هذه المرة من محمد وأصحابه، ثم تعود أمور العرب إلى سابق عهدها، لكن العوامل كلها لم تكن في صالحهم.

وعندما تأكد محمد من رحيلهم نزل بجيشه من الجبل ولم يضع السلاح، ومضى من فوره إلى بني قريظة حتى أن صلاة العصر

(١) نفس المرجع، نفس الباب.

حانت فقال لهم. الصلاة في بني قريظة. مما يجعلنا نسأل. ما سبب ذلك التعجيل وكان في إمكان محمد أن يصبر عليهم يوماً أو أياماً؟. تحكي كتب السيرة رواية تقول بأن سبب ذلك يرجع إلى أن جبريل نزل على محمد على هيئة (دحية الكلبي) وقال له: لا ترتج. عجل ببني قريظة. (١) لكننا نعتقد أن محمداً أحس بقوة - وربما لأول مرة - بخطورة وجودهم المطلقة على أرض يثرب، مما كان يحمل ثغرة واسعة لخطئه ربما كانت تستطيع أن تدمره تماماً لو استجاب بنو قريظة للوتنيين من قريش والعرب. ورغم أن بني قريظة لم ينقضوا حلفهم ولم يساعدوا الأحزاب توطئاً ليوم كهذا - وليس حباً في محمد أو دعوته - إلا أنهم دخلوا في مفاوضات مع قريش وأتباعها، فإن فازت قريش كان لها، وإن فاز محمد، فهي لم تخنه ولم تفتح حصونها لعدوه، مما يعطيها مبرراً في البقاء أمنة في يثرب. لكن محمداً لم يكن ينتظر ليتكرر الأمر، ولم يكن ينتظر أيضاً أن تتغير موازين القوى والحسابات التي قد يخطئها فتأتي الريح بما لا تشتهي السفن، ولا زال جيش مكة لم يصلها بعد، وقد علمته أحد أهمية الخدعة بعد أن سقط فيها، فربما يعودون لينقضوا عليه في هذه اللحظة أو تلك، فليفرغ إذن منهم على وجه السرعة، ولتكن المدينة كاملة تحت يده وقبضته من الآن وعلى الفور ودون خطورة أو خوف من خيانة قد تحدث

حاصرهم النبي، وأمر أصحابه أن يستروه بالتروس الجلدية (ليُسمع كلامه واضحاً كبوق) وقال لبني قريظة (يا إخوة القردة والخنازير).

(١) انظر. سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢. (دحية الكلبي قيل إن جبريل كان ينزل على هيئته وكان تاجراً له أصدقاء في بلاد الشام ويعرف اللغة البيزنطية وخطب محمد أحته شراف لكنها هلك في الجاهلية.) انظر جواد علي

فقالوا: يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً؟^(١)

لكنه الآن لا يعتبر بتلك الشكليات الأخلاقية، بقدر ماتحكمه قوانين الحرب والسياسة، فليكونوا قردة وخنازير، أو لا يكونوا على الإطلاق، فقد قضى عليهم بعد بضعة عشرة ليلة من الحصار، فلم يبق منهم رجل وبقيت نساؤهم سبايا وأطفالهم عبيداً، وخمّس النساء والأطفال والأرزاق، ثم وزع الباقي على المقاتلين، وكان للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للحصان وسهم لراكبه، وكان للراجل سهم واحد، وكانت خيل المسلمين يومئذ قد وصلت ستاً وثلاثين. وهنا إتضحت أهمية الخيل في المعركة ولأول مرة ينال الفرس سهمين من الغنيمة، بل إن النبي قد باع من سباياهم إلى نجد فابتاع بأثمانهم خيلاً وسلاحاً. واختار لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فلم تُسلم فظلت على الرق ولم تزل جارية عنده حتى مات عنها، وقيل إنها أسلمت بعد ذلك لكنها ظلت على الرق ولم تعتق.

وقيل إن عدد بني قريظة كانوا أربعمائة والمكثرون قالوا تسعمائة، فأخذ محمد رجالهم إلى سوق بالمدينة وحفر بها خنادق ووضعهم على حافتها ودق أعناقهم، وكان فيهم زعيم بني النضير حيي بن أخطب وكان قد دخل حصونهم أثناء الحصار، فقال لمحمد: - أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخزّه الله يخذله. ثم قال للناس.

- أيها الناس. إنه لا بأس بأمر الله. كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضرّبت عنقه^(١)

وهكذا جاء حصار الأحزاب بعكس النتائج التي كان يحلم بها أعداء محمد. جاء بسيطرة تامة على مقدرات يثرب، ونمواً هائلاً في

(١) انظر سيرة ابن كثير ح ٣ ص ٢٢٣.

القوة الإسلامية، جاء بسبب فشل قريش وأتباعها، فإزداد فشلها بتحرير يثرب تحريراً تاماً بالقضاء على بني قريظة. ولم يملك المترددون والمنافقون إلا أن يتبعوا محمداً وهم يرون نجاحه فوزاً بعد آخر، ويرون ذلك الرعب الذي كان يشع من عيون اليهود وهم يُهشمون تهشيماً، بل إن ذلك الرعب لا بد وأن انتشر في كل أنحاء الحجاز، فاهتزت له القبائل وذعرت منه النفوس.

كان محمد يحارب معركة انتصار، ولذا كان عليه ألا يتردد لحظة واحدة، وأحلامه قد تطاولت الى عرش كسرى وقيصر، ولا بد أن يُخضع القبائل التي لم تتعود على الخضوع، وهو يوجه أنظارها بعيداً عن مواطئ قدمها.

ولم يتوقف محمد عند هذا الحد، بل عرف أسلوب الإغتيالات الفردية أيضاً، فقد أمر بقتل كعب بن الأشرف لأنه هجا المسلمين ونساءهم في شعره وكان ذلك قبل أحد، أما بعد وقعة الخندق، فقد أرسل ناساً من الأنصار فقتلوا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي وهو نائم ليلاً بقصره في خيبر، وكان تاجراً مشهوراً وذكر أن له دوراً في تحزيب الأحزاب ضد محمد. (١) ثم حاول قبل ذلك إغتيال أبي سفيان بن حرب في مكة لكن المحاولة لم تنجح.. وعندما سمع النبي أن خالد بن سفيان بن بذيح الهذلي يجمع الناس ليهاجم يثرب وهو بعُرنه، (٢) وأد محاولته في مهدها بأن أرسل رجلاً قيل إنه جعفر ابن الزبير فقتله.

واستفاد محمد أيضاً من أسلوب المصاهرة في صراعه مع قريش، وفعل هذا في زواجه بأُم حبيبة بنت أبي سفيان بعد أن مات

(١) انظر صحيح البخاري ج ٢ / ٢١٤، ٢١٥

(٢) سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها.

عنها زوجها عبد الله بن جحش الذي تنصر بالحبشة، وقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة)^(١).

وكما ذكرنا فإنه عرف أسلوب المفاوضة والخدعة كما حدث في حصار الخندق والتحالفات والمعارك السابقة واللاحقة. وكان يبحث عن حلف قبلي يهيء له مواجهة أحلاف قريش، فإن لم يجد حلفاً كهذا فإنه على الأقل يستطيع تحييد قبائل العرب في صراعه مع مكة، لينقض عليها فيما بعد عندما يكون قادراً على ذلك وأعطته تصفية اليهود داخل المدينة قوة متنامية هيأت له الفرصة لأن يبحث عن هذا الحلف، ثم ينفذه فعلاً بالحلف مع خزاعة رغم أغلبيةها الوثنية، ليفاجيء مكة بعد ذلك بدخول الحديبية، وقبل ذلك لم تتوقف سرايا المسلمين وغاراتهم بعد الخندق، فهذه غزوة بني لحيان تنتقم لأصحاب الرجيع جنيب وأصحابه الذين أسرتهم مكة وقتلتهم. وعندما تحرك أظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة، لكنهم هربوا بين يديه فتحصنوا في رؤوس الجبال، فمال إلى عسفان - كما سبق وذكرنا - وأرسل سرية محمد بن مسلمة قبّل نجد وأسروا فيها ابن أثال اليمامي.

وكان النبي يرد بقوة على غارات القبائل العربية، ليتبت دائماً أنه قوي وقادر على الرد، فلا يفلت الأمر من يديه ولا يذهب الناس عنه، فها هو يعود ذات مرة إلى يثرب حتى يجد عيينة بن حصن الفزاري قد أغار على لقاحه بالغابة في خيل من غطفان فقتلوا رجلاً من بني غفار واحتملوا المرأة في اللقاح، فجمع محمد الخيل والرجال وسار حتى نزل بالجبل من (ذي قرد)، وتلاحق به الناس فأقام عليه يوماً وليلة، وقال له أحد رجاله: لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت

(١) نفس المرجع ص ٢٧٢

بقية السرح وأخذت بأعناق القوم، فقسم في أصحابه في كل مائة رجل جُذوراً وأقاموا عليها ثم رجع قافلاً إلى المدينة بعد أن استنقذ بعض اللقاح والمرأة وقتل بعضهم وولى الآخرون هاربين، وحددت في هذه العارة طرفة لامانع من أن نقصها عليك، فالمرأة التي أنقذت عادت على ناقة الرسول، وكانت قد قررت أن تنحرها إن نجت، فقال لها النبي: بئس ماجريتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها؟ إنه لانذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي.^{١١}

وسار محمد في مسيرة التصفية، ففاجأ بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم تسقى على الماء، فأمر عمر بن الخطاب أن ينادي: قولوا لإله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، وبالطبع لم يكن هذا وقت دعوة أو حتى استجابة، وهم مطمئنون إلى سقي دوابهم، ثم يجدون السيوف تحاصرهم. أن قولوا لإله إلا الله، وفوق ذلك فلم دينهم وعقائدهم المتمكنة من قلوبهم ويدافعون عنها إن اقتضى الأمر. وهكذا قتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد، فالمفاجأة فعلت فعلها، وقد قال أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبياً من سبي العرب فاشتبهنا النساء واشتدت علينا العزوبة وأحبينا العزل وقلنا نعلز، فسألناه عن ذلك فقال: ما عليكم ألا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا كائنة.^(١) وأصاب النبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار وكانت امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه كما تروي كتب السيرة والأحاديث، وكانت قد وقعت في نصيب رجل من المسلمين فكاتبته على نفسها ليحررها بعد أن تدفع

(١) رواه مسلم في صحيحه

تمن نفسها، لكن النبي كان قد تزوجها وأعتقها.
 وبعث النبي عكاشة بن محصن في أربعين رجلاً الى (غرو
 مرزوق) فهربوا منه ونزل على مياههم وبعث في آثارهم، وأخذ مائتي
 بعير فاستاقها إلى المدينة. وتحولت يترب إلى مخزن للغنائم الآتية
 من قطع طرق القوافل ومهاجمة الواحات بذلك الجيش الذي لم يهدأ
 لحظة واحدة. وانتقم النبي من جذام بحُسمى لأنهم قطعوا الطريق
 على قافلة تجارية لدحية بن خليفة الكلبي والذي كان صديقاً لقيصر
 أو تابعاً له وهو الذي كما ذكر كان يأتي جبريل على صورته للنبي.
 وأرسل سرية أخرى إلى دومة الجندل بقيادة عبد الرحمن بن عوف
 - ونظن أنها لم تكن إلا قافلة تجارية محمية أكثر من كونها سرية
 قتالية - وكان ذلك في سنة ست هجرية في شعبان، وهذا الظن
 يرجحه إختيار التاجر ابن عوف والمكان ذي السوق العظيم
 (دومة الجندل)، لكن كتب السيرة تهوى دائماً أن تطلق لفظ (غزوة)
 على أي قافلة أو سرية استكشاف أو غارة.
 وأخرج البخاري ومسلم أن قوماً قد أتوا المدينة وأعلنوا
 إسلامهم ثم قالوا: إنا أناس أهل ضرع ولم تكن أهل ريف،
 فاستوخمنا المدينة. وطلبوا الخروج لأن جوها لا يناسبهم، فأمر لهم
 الرسول بذود ذي قطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر ورأع
 ليشرّبوا فقط من ألبانها وأبوالها. فلما خرجوا وكانوا بناحية الحرة
 قتلوا الراعي وأخذوا الإبل فبعث محمد في طلبهم، وطاردهم حتى
 أمسكهم، ثم (قطع أيديهم وأرجلهم وفقاً أعينهم وتركهم في الحرة
 ينزفون حتى ماتوا وهم كذلك).^(١) كان يقتل عندما يجب أن يقتل،
 ويذبح عندما يكون الذبح ضرورة، ويقطع الأيدي والأرجل ويفقأ

(١) انظر، سيرة ابن كثير ح ٣ ص ٢٤٠ وأخرجها البخاري ومسلم والبيهقي

الأعين عندما يقتضي العقاب ذلك، ويغتم دائماً. ويهاجم عندما يكون العدو ضعيفاً أو متغولاً أو غير مستعد، ويدافع عندما يعطيه الدفاع فرصة للهجوم، مستغلاً في ذلك ظروف الجزيرة العربية السياسية والجغرافية، فلم تكن هناك دولة تقف في مواجهته ولا جيش ولا مؤسسات قوية متماسكة تستطيع أن تنهكه أو تسحقه، وإنما كانت القرى متناثرة، والقبائل القليلة السكان تتجمع حول المياه الضئيلة، ووسائل الإتصال بدائية ومحدودة والطرق ضائعة وسط رمال الصحراء، وحروبها ليست حروباً بمعنى الكلمة المعاصرة بقدر ما كانت غارات من أجل السيطرة على قافلة أو عير أو إبل ترعى أو على سيادة سوق من الأسواق أو انتقاماً، ولم تكن الأحلاف والمعاهدات تعطيها انسجاماً أو وحدة واحدة، فكل قبيلة عاداتها وطقوسها وقوانينها وساداتها ولا ترضخ إلا في حدودها التاريخية والجغرافية. بينما تغيرت الصورة لحد كبير مع حروب وغزوات الجيش الجديد والذي لم يكن وراءه سوى الحرب، وتكونت للهيئة الإسلامية إنسجاماتها واتساقاتها تحت هدف واحد هو السيطرة التامة على القبائل وسيادتها سياسياً وعقائدياً، فتكون لمحمد جيش بمعنى الكلمة بسبب الغارات اليومية والغزوات المتواصلة، بينما لم يكن هذا الجيش نفسه يتوفر للقبائل التي تحولت إلى موقف الدفاع ولا تعرف متى ولا أين يأتي محمد؟، لأنه كان يحارب في كل زمان ومكان، ولم تفكر القبائل إلا كيف تحمي نفسها قبل أن تفكر: هل هذا الرجل على حق أم على باطل؟

واستفاد الجيش المحمدي من تلك العزلة الجغرافية والتاريخية، لينقض ويغتم ثم يعود سالماً، ليعاود الضربة تلو الضربة، كحروب العصابات وقانونها (إضرب واهرب) حتى أتت لحظة (إضرب واحتل ليوم أو يومين أو أسبوع أو أسبوعين) ثم

تتراكم محصلة تلك الضربات، فتتحكم رايته نفسياً وتمسك بالقلوب
الفزعة، وتهابها الطرق ليلاً ونهاراً، ولم يبق أمامه إلا أن يكمل تلك
السيطرة بالهجوم النهائي وامتلاك السلطة السياسية.
وهذا ما فعله باختبار الحديبية، والذي لم يكن إلا تنويعاً لست
سنوات من الحروب المتواصلة، ثم انتهى بمداهمة مكة وانتزاع
السيادة النهائية على كل بلاد العرب.

(٦) الحصاد

كان محمد يقول (مابال قريش لاتتركني والعرب، أدعوفيهما ماأشاء ويقاومونني ماشاءوا. ياويحهم قد أكلتهم الحرب؟ ماذا لو خلوا بيني وبينهم، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة!؟) لكن قريشاً كانت تعرف معنى ذلك، فالصراع لم يكن على طرق التجارة فقط ولا على الدين فقط، ولا على السيادة فقط، وإنما أيضاً كان على الناس ومن يفوز بهم، ويسودهم، فإن خلت قريش سائر العرب لمحمد، لأخضعهم وسادهم وبالتالي لن تبقى لقريش تجارة أو طرق أو سيادة بالإضافة إلى ذلك فإن قريشاً لم تنسحب من الصراع بعد، وهذا الصراع يستهدفها هي بالدرجة الأولى، وجيش محمد يصلو ويجول في الطرق والأسواق والمراعي، فماذا لو خلت له الساحة، والأمر قد تجاوز الدعوة بالحوار والجدل إلى حوار السيف والحراب؟.

كان العرب يتجمعون من كل مكان في شبه الجزيرة العربية، في مكة، وينطلقون في الأشهر الحرم لأداء العمرة، وليشهدوا منافع لهم، وكانت هذه فرصة لمحمد، فالأسلحة نائمة في أغمارها، ومكة مشغولة في تجارتها الكبرى وطقوسها، ولاتفكر في حرب، ولا هي بقادرة عليها في هذه الشهور، ورغم حدوث بعض الوقعات القديمة

مثل (حرب الفجار) في تلك الأشهر، إلا أن طبيعتها لم تكن كطبيعة الصراع القائم الآن بين محمد وقريش.

يقول ابن إسحق^(١) إن محمداً استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب. وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليامن الناس حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت معظماً له، وأضاف بأن عدد الذين ذهبوا معه كانوا أربع عشرة مائة.

كان التوقيت ذكياً، فمكة واضعة سلاحها، ومحمد يريد أن يفرض وجوده، فالأمر ليس أمر عمرة أو حج، وإنما هو إبراز للقوة المحمدية الجديدة، وبأن هذا الذي طُرد من أرضه ووطنه وحاربوه وحاربهم، عائد ليقول لهم بأن عداؤهم له لم يفت في عضده، وبأنه قادر - على الأقل - أن ينتزع حقه في دخول مكة ولو معتمراً، فهو ماكان له أن يدخلها فاتحاً إلا بعد إختبار للقوى، محاولاً توريث بعض القبائل غير المسلمة وضمها لحشده، ومستخدماً في ذلك أيضاً بعض الأحلاف مع غير المسلمين من العرب، مستنفرأً من له حق في أداء وظائفه الدينية، معلناً أيضاً أن الحج والعمرة هما جزء من فرائض وطقوس الدين الجديد، ولعل دخولهما الدين الإسلامي لم يكن إلا تعبيراً عن أساس من أسس الصراع على السيادة الدينية والإقتصادية وبالتالي السيادة السياسية، ولعل قريشاً بعد الفتح قد رضيت عن بقاء أهم طقس من طقوس عبادتها جزءاً من عروض الدين الجديد الأساسية - رغم ماصحبه من تغيرات ثانوية وإنضاف إليه من روح الإسلام -، وتنازلت - ولو إلى حين - عن سيادتها الروحية

(١) انظر ابن كثير في سيرته ج ٢ باب عزوة الحديبية

والإقتصادية في بلاد العرب ولعل هذا أيضاً كان نفس الدافع الذي دفع المسلمين بعد الفتح إلى الخوف بل إلى الذعر لأن محمداً كان قد منع أن يقرب الوثنيون الكعبة، وقال القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ . إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .^(١)

لأن معنى ذلك هو سقوط أهم مورد من موارد السيادة على جزيرة العرب، لكن مصدر السيادة سيفقد مختلفاً عن ذي قبل، وسيستبج إجبار القبائل العربية على الدخول في الإسلام رغم أنها لاتستغني عن البيت - ولودمرت ألتهها - فالبيت كان رمزاً لتاريخ ديني وعاطفي طويل، لا يمكن إزالته بقرار، والبيت كان مصدر منافع وتبادل حاجات أساسية للحياة. بالإضافة إلى ذلك فإن محمداً لم يسكت عند حد فتح مكة، بل انطلق - وقد تحررت يداه نهائياً - إلى القبائل يحصدها حصداً، وتوَجَّ احتلاله لمكة وضرباته الموجعة بعام الوفود القادمة من كل البلاد العربية، يعلنون إسلامهم وولاءهم للسلطة الجديدة في مكة، وخضعوا خوفاً ووقاية وحاجة إقتصادية ودينية، ثم يقرر النبي - بعد منع المشركين عن المسجد الحرام - القتال كبديل عن الراحة، والجزية أو الغنيمة «كبديل» عن التجارة. وصل المسلمون إلى عسفان، فعلموا بخروج سرية خيل

(١) قرر الشافعي أن الحج قد قُرِضَ زمن الحديبية (واتموا الحج والعمرة لله) وأن الحج على التراخي لأعلى الفور لأن النبي لم يصح إلا سنة عشر هجرية، لكن مالك وأبا حنيفة وأحمد (يجب على من استطاعه فوراً) إس كثير ح ٣ ص ٣٤٢.

لقريش يقودهم خالد بن الوليد، فقال النبي: من الرجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟. فسلكوا طريقاً وعراً كثيراً الحجارة بين شعاب، حتى خرجوا منه، إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وسلكوا ذات اليمين بين «ظهري الحمص» حتى «ثنية المرار» مهبط الحديدية من أسفل مكة، وعندما لم يجدوا جيش المسلمين، انسحب الفرسان راكضين إلى قريش.

أرسل محمد قوماً من خزاعة حلفائه^(١) لقريش بأنه يريد العمرة كبقية العرب ولا يريد قتالاً، فاتهمهم وجبههم وقالوا. وإن جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة وإلا تحدث بذلك عنا العرب وظلت المفاوضات جارية، وقريش ترسل رجالها واحداً إثر الآخر، محمد يريد أن يدخل مكة غير مقاتل، وقريش لاتريده أن يدخلها عنوة، خائفة منه في أهم مواسمها على الإطلاق، وهي تهدده بالخروج إليه لقتاله، وأرسل النبي عثمان بن عفان ليفاوضهم داخل مكة، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت طففه. واحتبسته قريش عندها، وخاف المسلمون أن تكون قريش قد قتلتها، فبايع المسلمون النبي على الموت وعدم الفرار في قتال مكة.

وأرادت قريش أن يمر عامها هذا دون تعكير صفو، فأرسلت سهيلاً بن عمرو وقالوا. إئت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لاتتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً. وفي الصلح تفاوضى محمد عن الشكليات، فلم يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) وكتب (بإسمك اللهم)، ولم يكتب (محمد رسول الله) وإنما كتب (محمد بن عبد الله). واصطلحا على وضع الحرب عن

(١) يقول الزهري. وكانت حراة عيبة (موضع سر وحاصة) نصح الرسول مسلماً ومشرِكها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة

الناس عشر سنين يأمن فيهم الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه (حليفه) رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة (موضع السر) مكفوفة (مطوية) وأنه لا إسلال (سرقة خفية) ولا إغلال (خيانة)، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وحلفهم دخل فيه. (١)

واشترطوا عليه أن يعود فيقيم بمكة ثلاثاً ومعه سلاح الراكب. السيف في القرب لا يدخلها غيرها، وكان المسلمون متعجلين فثاروا على المعاهدة، لكن محمداً كان واعياً بموازين القوى حوله، وأتاح صلح الحديبية للمسلمين أن يأخذوا أنفاسهم وأن يعقدوا أحلافاً مع بعض القبائل العربية، فمن ألف وأربعمئة عام الحديبية لأكثر من عشر آلاف في فتح مكة، يعني أن جهود محمد خلال سنتين قد توجت بانتصار كبير، فلقد أعطى ذلك الحلف لمحمد شرعية كانت تنكرها عليه مكة من قبل وتنكرها أيضاً القبائل العربية، وأنزلت تلك المعاهدة من رهبة مكة، وانتقصت من سيادتها في نفوس العرب، فلم إذن لا يحالفونه أو ينصرونه؟! وفعلت الصراعات القديمة فعلها داخل هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون قبل ذلك مثل خزاعة وبني بكر، فدخل بنو بكر في حلف قريش، فلم إذن لا تدخل خزاعة في حلف محمد؟! وأسلم رجال وجاءوا من مكة إلى يثرب، فنصحهم النبي بالعودة إلى مكة، ثم تطور الأمر بأن أفلت كثيرون من قريش ولم يعودوا وخرجوا حتى أتوا سيف البحر حتى اجتمعت منهم عصابة، ما إن يسمعوا بخروج عير لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، وهكذا جاء الأمر عكس ما توقع قريش، فأرسلت إلى محمد

(١) انظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٠، ٢٢١

تناشده بالله وبالرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن.

وبعد الحديبية مباشرة، أرسل محمد ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس صاحب الإسكندرية وشجاع بن جذيمة الى الحارث الغساني ملك عرب النصارى. ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر هرقل الروم، وعبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس، وسليط العامري الى هوزة الحنفي، وعمرو بن أمية الصخري الى النجاشي.

عرف محمد، إذن، أن المسألة مسألة وقت حتى يحسم أمر جزيرة العرب لصالحه، وإذا توجه بأنظاره وأنظار العرب إلى خارج الحدود وهو يقول للعالم الخارجي أنه أصبح سيد العرب ونبیهم وعليهم أن يقبلوه بهذه الصفة.

قالت صحيفة الحديبية بأن تتوقف الحرب بين محمد وحلفائه وبين مكة وحلفائها عشر سنين. فهل توقف محمد عن الحرب فعلاً؟ كلا.. فجيش محمد كان قد تعود القتال، وجيش هذا حاله لا يمكن أن يتوقف، ربما ترك مكة في حالها، وانطلق يحسم مواقع أخرى. فما إن رجع من الحديبية حتى مكث في يثرب أقل من شهر، ثم خرج إلى خيبر، وفي الأشهر الحرم، فنزل بالرجيع وهو واد بين خيبر وغطفان، فتخوف أن تدمهم غطفان فأسرع وغدا عليهم. وفعل خدعة أتت أكلها مع غطفان، فأرسل خلفهم نفراً من جيشه فأثاروا الرعب، فأقاموا في أموالهم وأهليهم ولم يخرجوا ليظاهروا أهل خيبر. وكان محمد إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح (هكذا يُروى)، فبات ليلة في خيبر حتى أصبح فانقض عليها، وكان عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكائتلهم، فلما رأوا محمداً والجيش قالوا: محمد والخميس (الجيش) معه فادبروا هرباً، فقال محمد: الله أكبر خربت

خير، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين.^(١) وهكذا أخذتهم المفاجأة، فرجعوا إلى حصونهم، لكنه كان قد أجبرهم على الإستسلام، فقتل المقاتلة وسبي الذرية وكان في السبي صفية بنت حُي، فصارت إلى دحية الكلبي، فلما رآها النبي وكانت جميلة، قال لدحية: اذهب وخذ من السبي غيرها، وأخذها النبي لنفسه قال ابن إسحق: وتدنى الرسول الأموال، وأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً وحاز من الأموال ما حاز، حتى انتهى إلى حصنهم الوطيح والسّلام، وكان آخر حصون خير إفتتاحاً، فحاصروهم بضع عشرة ليلة، وعند أحد الحصون أقبلت غنم لرجل من اليهود تريد حصنهم، فأرسل محمد رجلاً فأدرك الغنم وأخذ شاتين من أحرارها وألقاهما عند قدمي الرسول فذبّحوهما وأكلوهما. وجاء رجل فقال لمحمد: إنك لو أقمّت شهراً تحاصروهم مابالوا بك، إن لهم تحت الأرض الجداول، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعته. فقطع دبولهم وجداولهم، فخرجوا حينذاك وقاتلوه، لكنه كان قد اقتحم الحصون واحداً بعد آخر، ودُوي أن الرسول استخدم المنجنيق في حصاره لخير!^(٢) وهذا يعني أن قوته قد تجاوزت (جيوش) القبائل بكثير من ناحية الإعداد والتطور، وقسم النبي أرزاق خير وأعطى بني هاشم وبني المطلب من الخمس، ولم يقسم لبني عبد شمس وبني نوفل شيئاً، وإذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، وإن لم يكن معه فرس فله سهم. ويقول ابن كثير. أن الصحيح أن خير لم تقسم جميعها وإنما قسم نصفها فقط، وجعل النصف الآخر لنوابه، أي لمن نزل به من الوفود والأمور ونواب الناس.^(٣)

(١) عن أنس بن مالك. أنظر صحيح مسلم ص ٥٩٨ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) عن الواقدي السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٧٦.

(٣) نفس المرجع. ج ٢ ص ٢٨١.

أي جعل هذا للحياة العامة ويبدو أن غنائم خيبر كانت من الكثرة
بمكان إضطر محمداً أن يقسمها بشكل مختلف عما هو متعارف عليه،
بحيث لم يخمس سوى النصف فقط، وهذا رغم أن عدد الجيش
المحمدي كان ألفاً وخمسمائة رجل كما يروى، وقيل أيضاً أن بخبير
أربعون ألف نخلة. (١)

وازدادت ثروة النبي زيادة كبيرة ذكرتها كتب السيرة بسبب
الخمس أو تلك الأسهم التي إقتطعها لنفسه، كما حدث في فيء بني
النضير وفدك بكاملهما، ونصيبه من أرض خيبر وهي طائفة كبيرة من
أرضها قليل إلبها تجاوزت النصف، فكانت هذه الأموال له خاصة،
وكان يعزل منها نفقة أهله سنة، ثم يجعل ما تبقى مَجْمَل مال الله
يصرفه في الكراع والسلاح وقد أثار هذا مشكلة بعد موته،
فاعتقدت فاطمة وأزواج النبي وأقرباؤه، أن هذه الأراضي تكون
موروثة عنه، لكن أبابكر رفض وقال: أن النبي قال (لأنورث ما تركنا
صدقة) ولم يأخذوا نصيبهم من الخمس إلا في أيام عمر بن الخطاب
بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية وإزدادت، ثروتها زيادة هائلة.
وبالطبع لم يأخذ العبيد المسلمون ولا النساء مثلما أخذ الرجال
الأحرار وإنما أعطاهم النبي عطاءً غير محدد من الغنيمة ولم يسهم
لهم من أموال خيبر، وذكر أنهم أعطوا تمرأ وبعض المتاع. (٢)

وهنا تروي كتب السيرة أن عودة جعفر بن أبي طالب بمهاجري
الحبشة من المسلمين ومعهم من أهل اليمن، كانت وكأنها مجرد
صدفة حدثت بعد فتح خيبر مباشرة، وقيل إنهم كانوا ستة عشر رجلاً
ومعهم نساؤهم وأولادهم، ولم يُذكر عدد اليمانيين الذين جاءوا بقيادة

(١) رواه أبو داود.

(٢) انظر سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٣٧٤ وما بعدها، ص ٣٨٦ وما بعدها

أبي موسى الأشعري، ونعتقد أن الأمر لم يأت صدفة نظراً لتوقيت عودتهم، عودة المهاجرين إلى الحبشة وعودة مسلمي اليمن، فمحمد كان يجهز لفتح مكة، ويحتاج كل مسلم في معركته الأخيرة مع قريش ولذا نظن بأنه استدعى مهاجري الحبشة ومسلمي اليمن.

ولم يرتح محمد بعد خيبر، بعد أن اكتسب ذلك السيف المشهور شرعيته في قطع الطرق والإغارات المستمرة فانطلق إلى وادي القرى، وحاصر أهلها ليالي، وقاتلهم حتى أمسوا وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة وغنموا أموالهم وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كبيراً. وأقام أربعة أيام ليقسم الغنائم وترك الأرض والنخيل في أيدي من صالحوه من اليهود وعاملهم عليها (أي ليدفعوا خراج الأرض على شطر من تمر وزرع غير الجزية). وفعل ذلك في يهود بني تيماء، فصالحوا النبي على الجزية وأقاموا بأيديهم أموالهم، وهكذا وصلت يد محمد قرب الشام لأن تيماء ووادي القرى في أقصى الشمال، ويعتبر بذلك قد سيطر على بلاد شمال الحجاز تقريباً، ولم يبق أمامه سوى مكة وبعض القبائل ليحسم أمر جنوبها.

ومن تأثير هيبته في جزيرة العرب، كان عند عودته من تلك الفتوحات، تفرع العشائر والقبائل وتولي هاربة في الجبال والكهوف بعيداً عن غبار خيله وإبله ورجاله، كما حدث مع بني فزارة أثناء عودته من خيبر، فقتل على الماء من مرّ منهم. ودعنا نقرأ سوياً هذه القصة - ونرجو أن لانكون قد خرجنا عن موضوعنا - فقد روي عن سلمة أنه قال أثناء عودته مع جيش المسلمين من خيبر... ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه الذرية والنساء من بني فزارة نحو الجبل وأنا أعدوا في أثارهم، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر (وكان

على رأس سرية بني فزارة) حتى أتته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها فروثمين من آدم ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر بنتها، قال: فما كتفت لها ثوباً حتى قدمت المدينة، ثم بثُ فلم أكتشف لها ثوباً. حتى لقيني الرسول في السوق وقال لي: يا سلمة هب لي المرأة، فقلت له. والله لقد أعجبتني وما كتفت لها ثوباً. حتى لقيني في اليوم التالي وسألني إياها فقلت مثل ما قلت، وفي اليوم الثالث قال لي (يا سلمة هب لي المرأة أبوك) فقلت: والله ما كتفت لها ثوباً وهي لك يا رسول الله، وظلت معه حتى أرسلها إلى مكة ففادى بها أسارى من المسلمين.^(١)

وهنا يبدو قانون السبي شرعياً، كما كان في أي مكان بحيث يفقد الأطفال والنساء حريتهم ويمكن أن يباعوا أو - إن سمحت الظروف - يحرروا، وكانت الغنيمة من العوامل المهمة التي تمثل حافزاً قوياً بالنسبة للأعرابي في إغاراته أو صراعه مع القبائل الأخرى.

ونعود لنرى الجانب الآخر في قريش لاهياً في حياته وتجارته، ظاناً أن صلح الحديبية منع عنها أيدي محمد لعشر سنين، لكن سراياه لم تتوقف، فما هي سرية عمر بن الخطاب في ثلاثين فارساً إلى أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال، وكانوا يسرون بالليل ويكمنون بالنهار. وهذه سرية عبد الله بن رواحة إلى يسير بن حزام اليهودي بعد خيبر، وسرية بشير بن سعد إلى بني مرة من أرض فدك فاستاق نعمهم، لكنهم قتلوا عامة من معه ورجع هو إلى المدينة فأرسل النبي سرية إنتقام بقيادة أسامة بن زيد. وأرسل سرية أبي

(١) رواه البيهقي عن عكرمة بن عمار ومسلم في صحيحه انطرسيرة ابن كثير ج ٣ ص ٤١٧

حدرد إلى جتسم في الغابة قولوا هاربين وتركوا إبلاً عظيمة وغنماً كثيرة وأعطى النبي أبا حدرد ثلاثة عشر بغيراً نفلاً.

وكانت بعض القبائل المهاجمة (بفتح الجيم) تضطر نتيجة الإغارات أن تعلن إسلامها، لكن ذلك لم يكن دائماً ينجيها من سيوف المسلمين كمحلم بن جثامة بن الأضبط سيد عامر قتلوه وأخذوا بغيره ومتاعه رغم اعلانه الشهادة فقال القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم...﴾ النساء ٩٤، لقد كانوا من قبل محتاجين هذه الغنائم، ولكن أن الأوان ان يقبلوا بخضوع البعض حتى ولو اعلنوا اسلامهم خوفاً فعرض النبي على قومه الدية فلما لم يقبلوا حتى قال لهم الأقرع بن حابس: أو لاتين بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتل كافر ما صلى قط فلا يطلبن دمه^(١). فالخضوع لإسم الإسلام يعني شكلاً من أشكال الانتصار ولذا قبل محمد من الأعراب الشهادتين وهو يعرف أنهم لم يؤمنوا ولم يدخل الإسلام الى قلوبهم، فالأمر يحتاج فترة طويلة من الصراع مع النفس والانتصار الدائم وترسخ العقيدة جيلاً بعد جيل، بل ان حركة الارتداد بعد محمد لم تكن إلا تعبيراً عن قبول الأمر الواقع أكثر منها الاقتناع بالإسلام كعقيدة بديلة عن عقائدهم القديمة ظناً منهم بأن موت محمد يعني أن شوكة جيشه ستتكسر وأن الغارات المسلحة لا بد ستتوقف وتعود الحياة الى سابق عهدها.

قال ابن إسحق: فلما رجع الرسول من خير إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وجماديين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً يبعث فيما

(١) نفسه، ص ٤٢٥.

بين ذلك سراياه، ثم خرج من ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها... فلم سمع به أهل مكة خرجوا عنه إلى جبل الخدمة وتحدثت قريش بينها أن محمداً في عسرة وجهه وثيقة، وكان النبي يحميه المسلمون من غلمان مكة أن يؤذوه وقام بمكة ثلاث ليال.

وهكذا رأت مكة محمداً داخل الحرم رغم أنفها، ولم ينزل محمد أعزلاً ولا بالسلاح في الجراب، ولكن كان السلاح عظيماً وضعه في بطن يأجج حيث ينظر إلى انصاب الحرم، وبعثت قريش إليه مذعورة: يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافرين، السيوف في القرب. وعرف محمد إمكانيات مكة عن قرب وعرف فزعها منه، فكان كل ذلك مقدمة لدخول مكة في العام التالي وقد أظلت خيوله رؤوس القوم وسيوفهم رقابهم. كان قد أسقط في يدهم.

ورجع من عمرة القضاء تلك (وتسمى القصاص أحياناً)، فلم يهدأ، وأرسل سرية من خمسين فارساً إلى بني سليم، فقاتلت قتالاً شديداً، وقُتل كثير من المسلمين. وأغارت سرية أخرى على جمع من هوازن وفاجأوهم وهم غارون فأصابوا نعماً كثيرة وشاء، فاستاقوا ذلك حتى إذا قدموا المدينة وزعوا الغنيمة والسبي وأنفلهم النبي بغيراً بغيراً، بعد الخمس، وأرسل سرية أخرى إلى (ذات أطلاق) من الشام ولكنهم قُتلوا جميعاً وزُوي أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً ويبدو أن هذه السرية كانت تمهيداً لغزوة مؤتة بقيادة زيد بن حارثة في نحو ثلاثة آلاف، إلى أرض البلقاء من أطراف الشام، وقيل أن النبي قال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس، ومعنى ذلك أنه كان مدركاً لطبيعة

المعركة الجديدة من نوعها، فهي تعتبر أول غزوة كبرى تتم خارج أرض الحجاز، وهي توجه أنظار العرب لأبعد من حدودهم الضيقة في الواحات وفي إطار العشيرة، فمكة لم تزل خارج يديه والقبائل العربية لم تخضع للإسلام بعد، وهو يضرب خارج شبه الجزيرة، وهذا يعني أشياء كثيرة. يعني أن القوة الإسلامية تخطت منذ زمن مرحلة القبلية إلى مرحلة وضع نواة لدولة أخذة في التشكل، وهي تمارس تلك القوة ليس على تمرّد القبائل فقط، ولكن أيضاً خارج حدودها. ويعني أن بضرب الأبعد يطيب الأقرب سواء على المستوى النفسي أو المعنوي، أو على مستوى حقيقة القوة التي تمارس هذا الضرب، ويعني أن الحرب إنغرست في نفوس المسلمين وسرت في دهمهم، وملكت عليهم حياتهم، فتحولوا إلى جنود عبر الغارات والسرايا والمعارك والقتال اليومي أو ما يستتبعه من إجراءات وقوانين، فلم يعودوا يهابون حروباً قبائلية صغيرة أو كبيرة، وإنما هم يتوجهون الآن لإزعاج أطراف الإمبراطورية البيزنطية، وهم يقولون بذلك للعالم الخارجي أن احتواء جزيرة العرب قد تم وأن المسألة مسألة وقت فقط. ويعني أيضاً أن مرحلة الدفاع قد انتهت للأبد وبدأ ما يسمى بالهجوم الإستراتيجي من أجل إنجاح المشروع الإسلامي.

ومضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقان، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية مشارف، فأنحاز المسلمون إلى (مؤتة) وهاجمهم العدو بجيش كبير، فقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ثم أعطيت الراية لخالد بن الوليد الذي كان قد دخل الإسلام منذ وقت قصير، فانسحب ببقية القوات بعد أن أثار الغبار خلف الجيش موهماً العدو أن إمدادات إسلامية كبيرة قد أتت، وكان قد وضع خدعة بعد ليلة من القتال الصعب، فجعل مقدمة الجيش ساقه، وساقته مقدمة، وميمينته ميسرة وميسرته ميمنة،

ففوجئت قوات الشام بناس غير الناس وظنوا أيضاً أن مدداً كبيراً قد جاء، حتى استطاع ابن الوليد أن يعود ببقية الجيش إلى المدينة، وهنا كسب الجيش الإسلامي القائد الفذ خالد، ووجد هو نفسه في هذا الجيش أحلامه العسكرية وعبقريته الحربية.

وذكرت حول هذه المعركة أرقام مبالغ في أمرها، فقد روي بأن جيش مؤتة من نصارى العرب وبيزنطة كان مئتي ألف مقاتل في مواجهة ثلاثة آلاف . ولم يقتل من المسلمين سوى ثمانية أو أربعة عشر رجلاً حسب المكثرين وهذا أمر مشكوك فيه، وذلك لأن تعبئة مئتي ألف مقاتل لم يكن أمراً سهلاً في هذه الأيام - ويظل أمراً صعباً أيضاً في حالة الجيوش الحديثة - وفي تلك الفترة القليلة والتي تحرك فيها المسلمون من يثرب إلى مؤتة، ثم إن حجم الخسائر لا يتناسب مع معركة كبرى تتطاحن فيها جيوش بهذه الأعداد المهولة وخاصة وأن جيش المسلمين كان قليل العدد جداً بالنسبة لعدوه في حالة تصديق تلك الأرقام، وبالطبع فإن عوامل المبالغة قد تكمن في الحمية الدينية، ومحاولة إثبات أن العقيدة قادرة بأن تحل المقاتل في الدين يوازى بل ويفوق مائة رجل، وهذا لا يعقل في مواجهة قوة جيدة التسليح والإعداد كقوة بيزنطة، وربما لم تشترك بيزنطة سوى إشتراكاً رمزياً وكانت المعركة في أساسها بين عرب من نصارى الغساسنة وبين المسلمين.

وفي أي الأحوال لم تأت هذه المعركة بنتائج أو انتصارات مباشرة، رغم أنها أضافت لرصيد القوة الإسلامية تجربة قتالية مع جيوش أكثر حداثة وإعداداً وتنظيماً، مما سيكون له دوره المستقبلي في حروب الفتوحات القادمة. وأتت هذه المعركة بنتائج غير مباشرة في توجيه أنظار العرب نحو العدو خارج حدودهم وتبنيهم بأنهم ينتمون لحدود جغرافية وتاريخية واحدة. وأن راية الإله الواحد التي

ارتفعت ماهي إلا راية دولة واحدة أو (قومية) واحدة، وثبت أن هذا الأمر قد احتاج وقتاً طويلاً وحروباً مريعة وتجارب موحعة ليخرج العرب من شرقة القبيلة الحرون، إلا أن بذور ذلك كله قد وُضعت بمعركة مؤتة ورسائل محمد لملوك العالم خارج جزيرة العرب، ولم تطرح تلك البذور شجرتها إلا بعد حروب الردة والتي بعدها نقل أبو بكر الصراع من داخل بلاد العرب إلى خارجها، كما يقول في ذلك طه حسين، لولا ذلك ما قدر للإسلام أن يعيش^(١) ولأكلت الموارد القليلة وجذب الصحراء الإنجازات المحمدية بعودة الصراع الدائم على موارد الرزق، وقد حُلّت هذه المشكلة المستعصية عبر الغنائم والثروات المنزوحة من بلاد الفتوحات الخصبة.

وعلى نفس النمط لغزوة مؤتة أرسل النبي عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلى، فلم رأى قوة عدوه، أرسل إلى يثرب يطلب المدد فبعث له النبي مدداً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح فاختلف هو وعمرو على إمارة الجيش، حتى رضخ في النهاية أبو عبيدة لإمارة عمرو. وحمل المسلمون على عدوهم فهزموا وأعجزوا هرباً في البلاد، ودوخ عمرو ما هناك، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، فكانوا ينحرون ويذبحون ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تقسم^(٢) أي أنها كانت غزوة دعوة وإثبات قوة وسيطرة أكثر منها غزوة للغنائم.

وقد أثرت هنا أن أذكر معظم السرايا في تتبعها الزمني كما ذكر، لالشيء إلا لأثبت حجم العمل العسكري الذي كان يقوم به

(١) أنظر طه حسين الفتنة الكبرى، دار المعارف.

(٢) عن الواقدي سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٥١٦، ٥١٧.

محمد بعد أن وطأت قدماه أرض المدينة، وهو عمل - إن قيس بجيوش العصر الحديث - مع النظر إلى الظروف التاريخية التي كان يعمل فيها هذا الجيش، لاعتبر هائلاً بكل المقاييس وكل الحسابات ومدهشاً من جانب هذا الرجل الذي ظل يدعوفي مكة بضع عشرة سنة ولم تتبعه إلا قلة، وبصبر شديد يواصل دعوته ولم يكن بجانبه فارس واحد حتى انفتحت له ثغرة يثرب، فكانت فرصة تاريخية التقطها، فأمدته بالنيران ليشعل بها بلاد العرب ولم تنطفئ يوماً أو لحظة واحدة.

وها قد أن الأوان ليقطف ثمرة ذلك الكفاح المتواصل بعد أقل من ثماني سنوات من الحرب الضروس تحكي كتب السيرة ما شاء لها أن تحكي عن أمر جلل أو أمر تافه، لكنها في غالبيتها تمدنا بزاد غير ممل، ومجموع من الحوادث نستطيع أن نغربلها أو نعيد أنظارنا فيما قيل حولها. وغالباً ما يبحث مؤيدو وجهة النظر القائلة بأن محمداً لم يكن يحارب إلا دفاعاً عن نفسه، ولا سيما القرآن يقول ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾، وينتقون من التاريخ أحداثاً قد تؤيد وجهة نظرهم، ويبحثون عن مبرر فردي لكل غزوة، وسبب كل غارة، فهذه السرية إنتقامية، وتلك لنقض عهد، وهذه لفض حلف، دون أن يعملوا النظر في ديمومة هذه الحرب من أول سرية حتى آخر سرية، ودون أن يبحثوا عن ذلك الخيط الذي يجمع كل هذه المعارك الصغيرة والكبيرة في سلسلة واحدة.

نعم يقول القرآن ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ وقال ﴿لا إكراه في الدين﴾ البقرة، لكنه قال أيضاً ﴿فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ وقال ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ التوبة ١٤، وقال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون

ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿التوبة ٩٢﴾، حقاً قال القرآن ﴿لأينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ الممتحنة، وقال ﴿إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ النحل.. لكنه أيضاً قال ﴿فقاتلوهم أو يسلّمون﴾ الفتح ١٦، وقال ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ الأنفال.

فالرسول يتحرك (بإستراتيجية) كانت قد تكونت عبر سنوات طويلة من الجدل والكفاح والمناورة والحرب، وفي تحركه هذا، لا بد من تكتيكه ووسائله أن تتناسب وأهدافه الكبرى، فإن كانت اللحظة تحتم المصالحة ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾، وإن كانت اللحظة تحتم الإنقضاض ﴿فلا تبهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ وهي تعني بأن شروط السلم أن يكونوا هم المنتصرين، وما عدا ذلك فتقطع الرقاب والإثخان في الأرض مطلوب وضروري.

وكان فتح مكة يحتاج مبرراً، قالوا إن قريشاً هي التي نقضت حلفها بوضع الحرب، وأوردوا سبباً تافهاً، وهو أن بني بكر حلفاء قريش قد وتبوا ليلاً على خزاعة بماء يقال له الوتير قريب من مكة وذلك طلباً لتأرقديم من خزاعة، وقيل إن قريشاً عاونتهم في القتال الذي اندلع حتى وصل الحرم نفسه، فأمر النبي الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي على قريش حتى ييغتهم في بلادهم^(١) لنصرة من في عهده من خزاعة.

(١) سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٥٢٧.

وبقراءتنا السابقة، نقول بأن فتح مكة لم يكن سوى الخطوة التالية لمحمد، وبالطبع لم يكن لينتظر عشر سنوات أخرى ليحتل مكة (سنوات صلح الحديبية)، ولم يكن لينتظر مبرراً لبياغت مكة بجيشه الضخم الذي قيل إنه وصل عشرة آلاف رجل، لا يمكن جمعهم بهذه السرعة وبشكل سري، إلا والأمر لا بد مدبر مسبقاً، للدرجة التي يمكن أن يكون هناك احتمال بإتارة حمية الثأر لدى بكر بشكل مامن الأشكال، أو حتى بمهاجمة بعض خزاعة ليلاً، فلا يعرفون من أين أتى الهجوم ولا بد أن نظرهم سيتجه مباشرة لبني بكر أعدائهم التقليديين وخاصة وأن محمداً في حلف معهم، وربما أتاحت تلك المصادفة الفرصة له لياخذها مبرراً لاحتلال مكة، فالفتح لم يكن عملية إنتقامية لبعض القتلى الوثنيين من خزاعة في وقعة تار تافهة لاقيمة لها في جو الجزيرة العربية ولم تكن تحتاج كل هذا الجيش وقبل كل شيء فإن خزاعة لم تكن كلها قد دخلت الإسلام ليتبنى محمد الدفاع عن مسلمها ومشركها وأيا كانت الأحلاف والمعاهدات فالأمر كان أكبر من تلك الواقعة التافهة بين بني بكر وخزاعة، وكان أكبر من معاهدة اتفق محمد عليها لاليتبعها عشر سنوات ولكن إتبعها لينقضها، وهي المعاهدة التي لم تعترف بسلطته أي بنبوته ولا بإلهه أي بدينه، رغم أنها كانت شكلاً من أشكال الرضوخ لمتطلبات الأمور، ثم إن فتح مكة يأتي تنويجاً لكل ماسبق من صراع، وإجباراً لقريش للإعتراف بسلطته وسيادته وسيادة إلهه الواحد على كل ألهة الكعبة والقبائل.

فكانت الوقعة إذن، مبرراً وقتياً حدث بالصدفة، أو خُلق خلقاً، وفي الحالتين كان يمكن خلق مئات المبررات أو حدوثها تلقائياً، فأمر الفتح كان قد حُسم وكان قد جُهِّز له منذ مدة وحانت ساعة التنفيذ الآن.

رُوي أن أباسفيان ذهب إلى يثرب وقد توقع شراً بعد واقعة

بني بكر مع خزاعة، أو ربما أخبر بتجهيز محمد للقتال، وقال لمحمد .
يا محمد إشدّد العقد وزدنا في المدة، فقال الرسول . ولذلك قدمت؟^{١٩}
هل كان من حدث قبلكم؟ فقال معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا
يوم الحديبية لانغير ولانبدل ثم أن محمداً يكتّم سر فتح مكة حتى
عن أزواجه وهو يقول بعد إعلام الناس (اللهم خذ العيون والأخبار
عن قريش حتى نبغتها في بلادها).^(١)

وقيل أن النبي خرج في رمضان وأفطر ولم يصم حتى انصرم
الشهر، وقيل إنه نزل (مر الظهران) وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا
يأتيهم خبر النبي ولا يدرون ما هو فاعل وقد خرجوا يتجسسون
الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، وبعث محمد بين
يديه عيوناً يقتصون وخزاعة لا تدع أحداً يمضي وراءها، فلما جاء أبو
سفيان وأصحابه أخذتهم خيل المسلمين وقام عمر يجا في عنقه،
فأجاره العباس بن عبد المطلب وأخذه للنبي،^(٢) حتى أعلن إسلامه،
فقال النبي (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم
ابن حزام فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد
فهو آمن).

عندما خرج أبو سفيان وأصحابه يلتقطون الأخبار، رأى
النيران فقال. مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، فقال بديل بن
ورقاء: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة
أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فكيف تحرك محمد بجيش كبير كهذا الجيش دون علم قريش،
ثم يفاجئهم في آخر لحظة بخيله ورجاله؟^{١٩} وهل عرفت قريش، لكنها

(١) عن ابن إسحق أنظر سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٥

(٢) عن الزهري وموسى بن عقبة نفس المرجع السابق. ص ٥٤٧.

لم تجد الوقت الكافي لمواجهته ولالحشد القبائل؟ أم أنها قد شلت تماماً ولم تستطع أن تمتلك رداً عسكرياً حاسماً، وقد عرفت أنها لا قبل لها بجيش محمد؟ فأرسلت أباسفیان لمحمد على أن يسلموه مكة دون قتال على أن يعفو عنهم ويقيهم شر القتل والأسر؟ وربما خرجت تلك الكتيبة القرشية دون علمها بهذا الاتفاق أو ضده وأثارته النخوة والعصبية؟^{١٩} أسئلة كثيرة لا نستطيع الإجابة عليها، لكننا نستطيع القول بأن محمداً لو كان قد نجح في إخفاء أمر تحرك جيش كان هذا حجمه، فإنها مهارة عسكرية فائقة يحسد عليها ولا سيما وأن قبائل عدة وخليطاً من الناس قد خرجوا مما قد يثير الفوضى وعدم الانسجام ويثير لاشك الإنتباه فتلتقطه العيون. فهل وزع محمد هذه الآلاف في قوافل وسرايا صغيرة تحركت من طرق وعرة غير مأهولة وكلها تنتهي قريباً في مكة في مَرَّ الظهران؟^{٢٠}

وعندما مرت القبائل الموالية لمحمد، كل برايتها، وكان معه عمه العباس وقد أعلن إسلامه قبل الفتح بقليل، فسأله عن كل قوم حتى جاء دور الأنصار والمهاجرين، فسأله من هؤلاء يا عباس؟ قال. هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. قال: قلت يا أباسفیان إنها النبوة. قال فَنِعْمَ إذن!! قال: قلت النجاء إلى قومك^(١) الآن قد حق لمحمد أن يفرح بملكه!!

عندما دخل محمد مكة، قال سعد بن عبادة الخزرجي لأبي سفیان - وهو يعبر عن عقد قديمة دفيئة بين يثرب وقريش - اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فطمأنه النبي قائلاً. كذب سعد، بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة يوم

(١) نفسه. ج ٢ ص ٥٥٠.

تكسى فيه الكعبة وأمر أحد المهاجرين فأخذ الراية من ابن عبادة بعد أن قال: ((مانأمن من أن يكون له في قريش صولة)).
عن ابن عباس أن النبي قال (إن الله حرم هذا البلد (مكة) يوم خلق السماوات والأرض، وإنه لا يحل لأحد من قبلي وإنما هي لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان).

وأصدر محمد قراراته الجديدة قائلاً في خطابه العام بعد الفتح (ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج فإني أمضيتهما لأهلها على ماكانت، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها وأولادها. يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وأدم من تراب).

وأعطى الحجابة مع السقاية (لعثمان بن طلحة). وقام فحطم الأصنام

ثم أرسل إلى القبائل سرايا تدعو إلى الإسلام، فها هو خالد ابن الوليد يذهب إلى بني جذيمة من كنانة، وأراد أٌحدهم القتال فردوا عليه قائلين: يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟! إن الناس قد أسلموا ووضع الحرب وأمن الناس، ونزعوا سلاحه، وقيل إن خالد بن الوليد أمر بتكتيفهم ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فقال النبي: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. وأعطاهم دية كبيرة لتهدئتهم.

وأرسل النبي خالد بن الوليد، فهدم العزى وكانت بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر، فخرّب البيت وأخذ ما كان فيه من الأموال. وخرج بنفسه على رأس جيش كبير ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من جيشه الذي فتح به مكة، وقيل إنهم كانوا أربعة

عشر ألفاً لأن جيش الفتح كان إثنين عشر ألفاً،^(١) واستخلف على مكة «عتاب بن أمية»، وذلك لغزوبني هوازن في حنين. وخرج مالك ابن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق المسلمين إليها، فأعدوا وتهينوا في مضايق الوادي وأخفائه، ولم يدرك النبي الفخ حتى ثارت الخيول في وجوههم فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد. وقال أبو سفيان متشفياً: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ كلد بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان بن أمية أخوه لأمه: فوالله لأن يملكني رجل من قريش أحب إلي من أن يملكني رجل من هوازن. وقال النبي يومئذ: من قتل كافراً قله سلبه وصمده وأتباعه من الصحابة وأقاربه وهو يحبسهم، ثم تراجعوا ليعيدوا تنظيم صفوفهم وراياتهم، وانقضوا يهاجمون من جديد، وتغير مصير المعركة فأخذوا يقتلون ويأسرون، وفر مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف هو وأناس من أشرف قومه

وأمر الرسول بالغنائم فجمعت الإبل والغنم والرقيق، وسيقت إلى «الجعرانة» فحبست هناك وقيل إنها ملأت الخيام والبيوت بمكة حتى انتهى محمد من حصار الطائف

وفرت فرقة من هوازن إلى أوطاس فلاحقهم الرسول بسرية من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري، وقيل إن دريد بن الصمة قتله رفيعة السلمي (ابن الدغنة) وهوراحل إليها، وقتلوه وسبوه، وكان المسلمون يخشون أن يطأوا نساءهم وأنواجهم أحياء فقال القرآن ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ فاستحلوا بالآية فروجهن.

واتجه محمد بنفسه إلى الطائف وكان محاربوا ثقيف وهوازن

(١) انظر سيرة ومغازي ابن إسحق، وسيرة ابن كثير ص ٦١٥ ج ٣

قد دخلوها وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال. ونزل محمد قريباً من الطائف فقتل ناس من أصحابه بالنبل، فحاصروهم بضعاً وعشرين ليلة وقال ابن هشام. سبع عشرة ليلة،^(١) وأمر النبي فقطع الأعناب فقالت لهم ثقيف: لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم. وكان قد أمر كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس كرمات وبعث منادياً ينادي: من خرج إلينا فهو حر، فخرج إليه عبدان فأعتقهما (حكي أن وفد الطائف لما جاء ليعن إسلامه سأل محمداً أن يرد عليهم رقيقهم الذين أتوه، فقال: لا ولكن ولاءهم لكم)، وقيل إن النبي نصب لهم المنجنيق ورماهم به، وذكر ابن إسحق أن نفرأ من الصحابة دخلوا تحت دبابة (ناقبة حصون) ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف، وأرسلت عليه سكك الحديد محماة، فخرجوا من تحتها ورمتهم ثقيف بالنبل. وتقدم أبو سفيان والمغيرة فناديا ثقيفاً بالأمان حتى يكلموهم فأمنوهم، فدعوا نساء من قريش وبني كنانة ليخرجن إليهم، وهما يخافان عليهن من السبي إذا فتح الحصن، فأبين. وكان من جيش المسلمين عيينة بن حصن زعيم غطفان عندما أذن محمد برحيل الجيش فقال مادحاً ثقيفاً. والله مجده كراما، فقال له رجل أتمدح المشركين وقد جئت تنصر محمدأ؟ فقال: وإني والله ماجئت لأقاتل ثقيفاً معكم ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطوها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً ذوو دهاء.

وإستشار النبي نوفل بن معاوية. يانوفل ماترى في المقام عليهم؟ قال: يارسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضررك.. فترك الحصن، لكن موازين القوى كانت قد جعلتهم

(١) انظر سيرة ابن هشام باب غزوة الطائف

يأتون في العام التالي مسلمين، فهم لا يمكن أن يستغنوا عن مكة ولو بشكلها الجديد. وعندما عاد الرسول إلى مكة قسم الغنائم وقال الواقدي: 'أصاب كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة'.^(١) ولم يعط الأنصار شيئاً رغم اشتراكهم في الحرب وكما ذكر سابقاً

سأل النبي عن مالك بن عوف زعيم هوازن قالوا: سر بالطائف مع تقيف، فقال: أخبروه إنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. فجاء من فوره وأعلن إسلامه، وإستعمله النبي على من أسلم من قومه وقبائل ثمالة وسلمة وفهم، بل بدأ يقاتل تقيفاً التي أمنتته ولا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم، فلماذا لا يأتون مسلمين في العام التالي؟! حقاً لقد فشل محمد أن يفك حصارهم لكنه نجح في أن يفرق بينهم ويضرب بعضهم ببعض، حتى كان له ما أراد

وبدأت سرايا محمد بعد الفتح تجوب جزيرة العرب، فبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعمرو ابن الجلندي من الأزدي وأخذت الجزيرة من مجوس بلدهما ومن حولهما من الأعراب وهدم ابن العاص سواعاً الذي كانت تعبده هذيل برهاط ولم يجد في خزانته شيئاً واتجهت السرايا إلى اليمن، فهذه سرية من مائة وخمسين فارساً تتجه إلى ذي الخلصة وهوبيت لختعم، وبجيلة، فيه نصب تعبد يقال لها الكعبة اليمانية، فأتاها جرير برجاله وحرقها في النار وكسرها. ففي مواجهة كعبة الحجاز كانت محاولات اليمن للسيطرة على بلاد العرب قديمة سواء بواسطة سكانها أنفسهم أو بواسطة الغزاة الأجانب من الأحباش أو الفرس، ولعل محاولات أبرهة فيما عرف بعام الفيل بهدم الكعبة الوثنية وإنشاء كنيسة ضخمة (كعبة

(١) عن الواقدي. أنظر سيرة ابن كثير ح ٣ ص ٦٧١

أخرى) في اليمن ليحج إليها الناس من سائر البلاد، كانت تدخل في نفس الإطار، لكنها رغم ذلك لم تطلع بذلك الدور الديني والتجاري لأن الحياة الاقتصادية فيها كانت تعتمد أساساً على الإستقرار الزراعي ، ثم إن السيطرة اليهودية حيناً والمسيحية حيناً آخر والصراع بين الفرس والروم على اليمن باعتبارها تقع على الممرات المائية التجارية الموصلة إلى أفريقيا وبلاد الهند، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي في أقصى جنوب شبه الجزيرة، فجعلها كل هذا ليست مركزاً للحياة التجارية والدينية، بل إنقادت هي إلى مكة التي قامت بهذا الدور باعتبارها كانت في مركز الجزيرة العربية وأسهلها طرقاً وأقدمها كعبة وأكثرها إستقراراً.

ولذا عندما آل الأمر إلى محمد في مكة، فلم لا يكون لها أيضاً نبي مثل بلاد الحجاز؟ تقسم الأرض بينهما فكتب مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة إلى النبي قائلاً: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوم يعتدون. فرد عليه النبي قائلاً (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين..).^(١)

وهكذا كان التمرد قائماً على السلطة في مكة وازداد عنفوانه بسيطرة محمد على مقاليد الأمور، لكن الموت لم يمهله لينتهي من أقوى حركة سياسية ودينية مضادة، وعادة ما يضعها المؤرخون في حركات الردة أيام أبي بكر ولكن سيادة مسيلمة في اليمامة وبلاد اليمن كانت قد تنامت أيام النبي نفسه، ولم تكن السلطة الإسلامية

(١) انظر صحيح البخاري وسيرة ابن كثير باب الوعود

الجديدة قد سيطرت على كل بلاد العرب، ولم يكن الدين الإسلامي قد تمكن بعد من قلوب قبائلها ونفوسهم، ولم يحسم أمرها إلا بعد أن تطاحت الجيوش تطاحناً رهيباً في موقعة اليمامة الشهيرة والتي أودت بحياة معظم حفظة القرآن، وكانت سبباً من أسباب جمعه أيام أبي بكر، ومن كثرة القتلى من الجانبين أطلق عليها حديقة الموت. ويشير الى وضع العرب هذا طه حسين قائلاً (.. فالصراع إذن بين الحياة الجاهلية والحياة الإسلامية قد انقضى وانقطع في عصر معاوية، بل سأقول شيئاً ربما تنكرونه وهو أنه لا أدري هل تم حقيقة إنتصار الإسلام في جميع بلاد العرب على الحياة الجاهلية؟ وهل استطاع الإسلام أن يحول عقلية العرب في شبه الجزيرة إلى عقلية إسلامية خالصة؟! وهذا شيء أشك فيه، وأعتقد أن الإسلام غير كثيراً من الأشياء في جزيرة العرب ولكنه كذلك لم يصل إلى قلوب الكثرة من قلوب العرب ويدلنا على ذلك قوله تعالى ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ فإن هذه الآية لم تصدق على الأعراب الذين عاصروا النبي فقط، بل على الذين استمروا أيام الراشدين والأمويين والعباسيين).^(١)

ونعود مرة ثانية لنقول بأن حركة الفتوحات لم تبدأ أيام الخلفاء الراشدين، بل إن محمداً نفسه كان قد وضع لبنتها بغزوة مؤتة ورسائله للملوك والقيصرة، ثم بأكبر غزوة في تاريخ السلطة الإسلامية الجديدة وهي غزوة تبوك وقام بأكبر تعبئة في حياته وقد ازدادت امكانياته كثيراً عن قطع طريق أو غارة أو سرية أو حتى عن إمكانيات فتح مكة، وإنما تجاوز تلك الصراعات الأولية إلى شكل صراع (دولة) لدولة. حقاً لم تكن الدولة الإسلامية قد انتهت ملامحها

(١) طه حسين، تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ٩، ١٠

بعد. لكن السلطة السياسية كانت قد آلت إلى محمد بتعبيرها (الأيدولوجي) وهو الإسلام، ونواة جيش كانت قد وضعت عبر محاربين ذوي تجارب طويلة، أصبحوا متخصصين في قيادة الألوية والسرايا ويخرجون في كل معركة ويجهزون لكل حرب، وتشريعات إقتصادية إزداد وصوحها واحتوتها مؤسسات ذات طابع قانوني أو حباثي بعد الفتوحات الكبرى

نعم، لم تكن المؤسسات الإسلامية واضحة كل الوضوح كما في مؤسسات الدولة ذات التاريخ الطويل ولكنها اختلطت واندمجت ثم تطورت وافصلت فيما بعد لتأخذ شكلها الأنقى بعد معاشرتها لحضارات جديدة عليها، وشعوب مختلفة فاستوعبت التغيرات، واستوعبتها تلك التغيرات.

وضعت غزوة تبوك وبشكل كبير نظام الجزية في الميزان العملي، فجيش قوامه ثلاثون ألفاً (أنظر تنامي حجم الجيش المحمدي تدريجياً وبشكل متسلسل من سرية بعشرة مثلاً إلى ثلاثين ألفاً) استطاع أن ينتزع من أهل «أيلة وجرباء وأذرح» الجزية وكانوا نصارى، وتعاهد معهم على أن لهم أمانة منه ومن جيشه في البر والبحر (سفنهم وسيارتهم) ولهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول حاله دون نفسه، وإنما طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر... وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم منهم...^(١)

(١) أنظر سيرة ابن كثير ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠، وسيرة ابن هشام وابن إسحق عن غزوة تبوك

وأرسل ابن الوليد إلي أكيدر دومة من بني كعدة وكانوا نصاري وصالحه على الجزية وهم عائدون من تبوك. لم يكن محمد لينتظر حتى يعود، لم لا يكسب الوقت والأموال والأتباع ويفرض سلطانه على من لم يعترف به بعد^٩! واتسعت المعاهدات وتغيرت لهجتها وحدّتها باتساع رقعتها، وتغيرت شروطها بانتصار المسلمين على أصحاب البلاد الأصلية في الشام أو في مصر أو في العراق وفارس.

ويشير د. علي عبد الرازق إلى طبيعة الدولة الجديدة قائلاً (كانت دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عيها. أجل، ولعلها كانت في الواقع ذات أثر كبير في أمر تلك الدعوة، وكان لها عمل غير منكور في تحول الإسلام وتطوره، ولكنها على ذلك لا تخرج عن أن تكون دولة عربية أيدت سلطان العرب، وروجت مصالح العرب ومكنت لهم في أقطار الأرض، فاستعمروها استعماراً، وإستغلوا خيرها إستغلالاً، شأن الأمم القوية التي تتمكن من الفتح والإستعمار).^(١)

ونعود فنقول أن المجهودات المحمدية توجت بعد فتح مكة وغزواته شرقاً وغرباً وجنوباً، بالوفود من كل بلاد العرب يأتون ليثرب ليعلموا ولاهم للنظام الجديد وليحصلوا على ما يريدون من عهود ومواثيق. وعادت مكة من جديد العاصمة الدينية لبلاد العرب ولكن تحت ظل العاصمة السياسية يثرب وفي ظل راية إله واحد، وحلت لغة الوطنية مكان القبلية، والقومية مكان العصبية، ولكن هل تخلص تماماً من تلك الروح القبلية وتلك العصبية العربية في مواجهة العالم الخارجي؟^{١٩}

(١) انظر كتاب علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٥.

لانعقد أن أمراً كهذا تحسمه سنوات قليلة، بقدر ما تحسمه
قرون من التطورات والتلاحقات وتغيرات الأفكار ولكن العصبية
العربية حملت طابعاً وطنياً، والروح الوطنية صبغت بالصبغة القبلية.
كيف؟!

لنجيب على ذلك، فلنقرأ الفصل القادم.

(٧) إشارة حول الدولة الإسلامية

بانتصار محمد وفتح مكة، تراجع الاتجاه القبلي خطوة للخلف، لكنه كان يتحفظ للإنقضاى (وكانت فترة ترقب لزعماء هذا الإتجاه حيث سقطت رموزهم فقط، أبوسفیان، أبوجهل، عتبة بن ربيعة، في الوقت الذي أتيح للجبل الثاني منهم الدخول مبكراً إلى قلب الأحداث وشغل أدوار هامة على المستوى العسكري «يزيد بن أبي سفيان» أو الإداري «معاوية»^(١) وخاصة بعد تولي البيت الأموي ممثلاً في عثمان بن عفان أمر الخلافة

لكن جذور هذا الوضع كانت قد وضحت في حياة الرسول نفسه، وذلك بإعادة الإعتبار للبيت الأموي أثناء فتح مكة وإن كان بشكل رمزي، إلا أن ذلك كان يعني أن هؤلاء الذين حاربوا محمداً وقادوا الصراع ضده حتى آخر لحظة، سقط تاريخهم العدائي وحن لهم أن يندمجوا في الدولة الجديدة بإمكانياتهم الإقتصادية القديمة والتي لم تمس، والتاريخية الغارقة في جذور السيطرة على جزيرة العرب.

بل إن ذلك الإتجاه نفسه كان قد انزع في القيادة ليس على مستوى القرار الأعلى ولكن على مستوى القرارات التحتية والتي

(١) إبراهيم بيضون. تكون الإتجاهات السياسية في الإسلام الأول ص ٢٢٨

تمخضت فيما بعد عن السيطرة على الخلافة نفسها، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» أسماء بعضها من بني أمية وبعضها من أسر أرستقراطية قرشية أخرى وهو بذلك يلمح إلى اعتماد كامل في إدارة الدولة الإسلامية الجديدة، على الأكابر دون غيرهم معتبراً ذلك تمهيداً أفاد الأمويين للاستيلاء كممثلين للارستقراطية العربية على الخلافة،^(١) ويقول بأنه لاختلاف بين الرواة وأصحاب التواريخ أن النبي توفي و«عتاب بن أسيد» على مكة، وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبوسفيان بن حرب على نجران، وأبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وسعيد بن القشيب الأزدي حليف بني أمية على جرش ونحوها، والمهاجر بن أمية المخزومي على كندة، والصرف وعمرو بن العاص على عمان، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، فإن كان النبي أسس هذا الأساس وأظهر أمرهم لجميع الناس، فكيف لايقوى ظنهم ولاينبسط رجائهم ولا يمتد في الولاية أمهم؟^(٢)

ولعل كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، ليعبر أصدق تعبير عن ذلك وهو يقول (إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم، فأكرم قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف العدل أن ينصف في الحكم وفي القسم).^(٣)

بل إن سيادة العصبية القرشية هو الذي أبعد الأنصار عن كل موقع أساسي لاصدار القرار وقد توج ذلك بالصراع على السلطة،

(١) انظر هادي العلوي نصوص منسية من التراث مجلة دراسات عربية ص ٦٧ مايو ١٩٨٦، عن أبي حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر تاريخ الطبري، ج ٣/ ٢٧٢

الذي احتدم في سقيفة بني ساعدة، وكما يقول د بيضون (فقد أثبت المهاجرون أنهم القوة المعنوية والمادية المتفوقة في الدولة الصاعدة دون إغفال ما كان لموقعهم «التجاري القديم» وارتبط بالنفوذ والزعامة في الحجاز فضلاً عن موقعهم الإسلامي الريادي من تأثير على المعادلة المستجدة والقدرة على إمساكها بإحكام شديد.. وكان من الطبيعي أن يتعاطف الأنصار مع الاتجاه غير المنتصر في السقيفة الذي تزعمه علي بن أبي طالب بصورة طبيعية، فهو على الرغم من انتماؤه لمجموعة المهاجرين التي حسمت قرشية الخلافة، فقد بدا واضحاً أن ثمة إتجاه يقوده علي ويلتزم بالدفاع عنه وهو الإتجاه الإسلامي الذي كان من أبرز تطلعاته إستمرار الصيغة - النموذج التي حققها النبي في المدينة والمحافظة على موروثها السياسي والاجتماعي.... وبسقوط الإتجاه الوسطي كسب معركة الخلافة في السقيفة، بإعادة الإتجاه القبلي «المهزوم» وتكوين نفسه مجدداً وبروزه قوياً في أعقاب اغتيال عمر بن الخطاب واختيار خليفة له، مما أدى إلى ذلك الفرز السياسي الواضح الذي كان عمر والاتجاه الوسطي من ضحاياه الكبار. - وإذا إنتقلنا (بعد ذلك) إلى الفتوح الإسلامية الأموية سنجد أمامنا - علي الرغم من الانبهار ببعض منجزاتها (الأندلس على سبيل المثال) - أعمالاً توسعية أكثر مما تتوخى السيطرة والفخامة وشتى المظاهر الإمبراطورية وكل مرافق هذا الامتداد الأفقي للفتوحات الأموية المصحوبة بضمور الدور الإسلامي إلى حد كبير).^(١)

وهنا ينفجر سؤال قديم جديد . كيف استطاع العرب وهم أقل حضارة وتقدماً أن يغزوا ويحتلوا أجزاء ضخمة من أكبر

(١) انظر إبراهيم بيضون، تكونُ الإتجاهات السياسية ص ٣٢٧

إمبراطوريتين في ذلك العصر، ولهما تاريخ حضاري كبير وأكثر
إمكانيات من جميع النواحي العسكرية والاقتصادية والثقافية؟
فنقرأ تفسيرات أحادية الجانب غالباً، فالتفسير الديني يسرع
في وضع العقيدة الإسلامية القائمة على مبدأ الجهاد والرغبة في
الموت عن الحياة، مهملاً العوامل الأخرى والتي قد تكون أكثر
أهمية، ويستتبع تلك الإجابة سؤال عن تلك الأمبراطورية التي قادها
القتار وهم يجتاحون العالم شرقاً وغرباً من الصين وحتى مصر،
فيدمروا ويحرقوا في طريقهم تراث الشعوب الثقافي والحضاري؟
فأي عقيدة تلك التي حركت الجحافل التترية لاجتياح العالم القديم؟
تم إن العقيدة الإسلامية كانت حديثة النشأة وكانت تحتاج
الوقت الطويل لتتمكن من نفوس العرب أولئك الذين قال عنهم القرآن
أنهم أسلموا ولم يؤمنوا، بل إن الأعراب في شبه الجزيرة إتخذوا
موقفاً سلبياً من حركة الفتوح في أيامها الأولى. بالإضافة الى ذلك،
فإن اتساع حركة الفتوح قد تم على أيدي بني أمية والذين إتخذوا
من الإسلام مظاهره وإسمه أكثر من تمكنه من قلوبهم وسلوك قادتهم
قبل الإسلام وبعده ليدل على ذلك أصدق دليل، ولعل قول طه حسين
(هم لم يظهروا على العالم إلا بالإسلام، فهم محتاجون إلى أن
يعتروا بهذا الإسلام ويرضوه ويجدوا في اتصالهم به ما يضمن لهم
هذا الظهور وهذا السلطان الذي يحرصون عليه، وهم في الوقت
نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع، فهم مضطرون إلى أن
يراعوا هذه العصبية ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم
ودينهم)،^(١) لعل هذا القول يؤكد ما ذهبنا إليه. وهنا يهمل أصحاب
التفسير الديني العناصر الأخرى والتي يمكن أن يكون لها دور حاسم

(١) طه حسين. في الأدب الجاهلي ص ١١٨

في ذلك الانسجام والتماسك الذي شمل الجيش الإسلامي رغم ماينخر تحت السطح من خلافات قديمة وجديدة، ذلك التماسك الذي أعطاه الأصل العربي لذلك الجيش الأول والذي وقفت على عاتقه حركة الفتوح، فالعربي خرج في مواجهة العالم الخارجي وهو لا يحمل إلا انتماء لجزيرة العرب وفكراً حديث النشأة، وفي مواجهة الإختلاف والتناقض خارج عالمه كان يعود إلى أصوله فيتوحد بها، ويرى فيها القوة والمنعة والأصل، ولعل السيادة العربية إستمرت فترة طويلة شملت أغلب الفتوحات الإسلامية، قبل أن تدخل عناصر أخرى أجنبية في قيادة عملية الغزو والتوسع سواء من فارس أو غرب أفريقيا، لكن دورها رغم ذلك في اتخاذ القرار كان هامشياً. ثم إن طاعة العربي لسادة قبائمه فقط عوّدت عندما انتقل من الحالة القبلية للحالة القومية على الطاعة للسادة الجدد وهم يحملون تراثهم ودينهم الجديد على أكتافهم.

ويرى البعض (أن العامل الإقتصادي كان المحرك الأقوى لدوافع الفتوحات عند العرب المسلمين وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار هذه الأخيرة وكأنها إحدى الهجرات السامية المتأخرة التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجذباء.... فالخطبة المنسوبة إلى خالد بن الوليد أمام جنوده قبيل إحدى المعارك ضد الفرس في العراق (ولولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثقل عما أنتم فيه).^(١) ويقول جولدتسير (لم يكن هذا الفتح موجهاً نحو المتل الأعلى وحده لأن كنوز المدائن ودمشق والإسكندرية لم تسمح طبيعتها بإيجاد ميول للزهد والتقشف).^(٢)

(١) أنظر إبراهيم بيصون نفس المرجع ص ٣٦ وما بعدها

(2) Goldziher : Le dogme et la loi de LiSLAM P123

يقول البلاذري في فتوح البلدان واعياً بهذا العامل الإقتصادي - وعياً دقيقاً أم لا - بأن أبابكر قد دعا للجهاد (أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم... فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل صوب..^(١))

ورغم أهمية العامل الإقتصادي والعامل الديني ، إلا أن هناك عاملاً لا يقل أهمية عنهما وخاصة في منظوره التاريخي حول نواة ذلك الجيش التي تكونت عبر المعارك المتواصلة التي لم تهدأ منذ بدأ محمد صراعه حتى وفاته كان القتال قد صنع هذه النواة وجذر الصراع حولها، فانخلقت روح من التماسك والانسجام التاريخي والذي لم يأت بقرار، وإنما أتى من خلال كفاح دموي مرير. فالجيش الكبير الذي خرج للفتوحات كان معظم قادته صغاراً وكباراً قد دخلوا مئات المعارك الصغيرة والكبيرة، وعُمّدوا بالدم والجروح وهم ينتزعون شرعيتهم وسلطتهم بدءاً بالهجرة وانتهاءً بفتح مكة، وانطلق هذا الجيش وقد امتدت يده إلى اليمن وأطراف الشام والعراق، فأحرز الانتصار تلو الانتصار، وزرعت تلك الانتصارات داخله الثقة بقدرته، فدعمت تماسكه وعجنت ذلك الخليط القبلي بوحدة واحدة، فاختلطت العصبية القبلية بالعصبية القومية العربية، بالدين. وأتاح هذا التماسك لقوة أقل تقدماً لأن تسحق قوى أكثر تقدماً، لكنها (الأخيرة) كانت قد تفككت بفعل صراعاتها الداخلية، فالصراع الدائم بين الروم والفرس، والصراع على السلطة داخل كل إمبراطورية على حدة، والصراع الشعبي مع السلطة داخل الإمبراطوريتين، فأرخصى هذا قبضتيهما - بشكل ما - عن شعوب

(١) انظر البلاذري، فتوح البلدان. تحقيق محمد رضوان

البلدان الراضحة تحت احتلالهما، وضاعف من هذا إحساس الإمبراطوريتين بالأمن في مواجهة عالم ضعيف حولهما، فأتاح ذلك لتلك القوة الأقل إمكانات وأقل تحضراً ولكنها أكثر تماسكاً وطاعة وانسجاماً وأكثر اندفاعاً أيضاً بحكم العوامل الأكثر سخونة سواء اقتصادية أو دينية والتي هدأت بمرور الزمن، فانهار ذلك التماسك بعد قرون وتفككت تلك القوة وسقطت تحت أقدام الغزاة من كل حذب وصوب. فنقول أتاح ذلك لها أن تقتلع النمر البيزنطي العجوز، وتخنق دولة الفرس الغارقة في مشاكلها.

ومن عوامل ذلك التماسك، وضوح الهدف ودقته أثناء الغزو فذلك العربي الذي اعتاد قتال الآخرين وكان وهو يعتدي يفخر بإعتدائه، وكان وهو يغزو الآخرين يعتز بذلك الغزو بدءاً بمستواه القبلي، وانغrust داخله قيم البطولة والتضحية، بل ونستطيع القول بأن (الإعتداء) - وإن حمل أسماء أخرى أكثر وجاهة - غدا يمثل الهوية والقوة والإحترام وكان مصدراً للمحافظة على الحياة في مواجهة جذب الصحراء، ولذا لم يكن الأمر غريباً على هذا العربي، وهو يهاجم الأمنين خارج حدوده، فذلك أمر تاريخي قديم انزوع في أعماق أعمقه قانون حفظ النوع. فإن كان الخارج للمعركة خارجاً من أجل دين أو غنيمة فإنهما قد اندمجا واختلطا للدرجة التي لا يمكن فصلهما فصلاً ميكانيكياً، لأن العربي كان غازياً للعالم الخارجي وهو لا يحمل صفته كعربي فقط، وإنما يحمل راية الإسلام أيضاً، وباسم هذه الراية يكتسب شرعية الأسر والغنم أو الجزية والخراج على أقل تقدير.

ومن أسباب تماسك الجيش الإسلامي الأول هو وزن الهيكل العشائري فيه آنذاك، فهذا الوزن كان يعكس ركود ما يسمى بالصراع الطبقي. فالوحدة الأساسية في جزيرة العرب كانت هي العشيرة

والتي كانت تتجمع حول المياه والآبار ومناطق الرعي وكانت غالباً تشترك في هذه المصادر، مما جعل التمايزات الطبقيّة أقل حدة بشكل عام،^(١) ويضاف إلى ذلك تلك العزلة الجغرافية الصحراوية والتي جعلت كل عشيرة أو قبيلة تمثل وحدة إقتصادية مستقلة عن الأخرى فلا ترى الآخرين إلا كغرباء عنها، بينما كانت تلك التمايزات الطبقيّة في دولتي الفرس والروم قد وصلت إلى حد إثارة الثورات والحروب الأهلية الضارية والتي كانت تنخر في بنية تماسكها نخرأً واضحاً، من ثورة أو تمرد، ولعل مقتل الخليفة عثمان بن عفان كان أحد التعبيرات البيّنة عن ذلك التمايز.

وقد تطور الجيش الإسلامي هذا تدريجياً فبعد أن كان يشمل قادة وأمراء من كل العشائر في شبه الجزيرة، بحكم تطور الصراع، غداً بعد فترة ليست طويلة يخضع لنفس الإعتبارات التي خضعت لها السلطة السياسية، فكما أصبحت الخلافة وراثية في بني أمية

(١) يقول أحمد صادق سعد في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج ص ٦٠، ٦٧ (..فيعتقد أن جانباً كبيراً من حديثنا يمكن أن ينطبق أيضاً على منطق النمط الآسيوي ومركباته لدى شعوب البراري المنتجة في الماضي في المناطق التي ليس فيها أنهار . ويمكن أن يقال مع ذلك أن الانتاج دوريّة سنوية متلما لفيضان النيل، ولكن أليست المواسم المناخية في هذه الحالة - ظاهرة عامة على الكون كله!؟ حقا كون المنتجات الأساسية للشعوب الرعوية عبارة عن منقولات (القطعان) يجعلها أكثر عرصة للمؤثرات السلعية عن المشتركات الفلاحية من بعض السواحي. ولكن تمة عوامل أخرى كانت تعمل على إبقاء التسوية المشتركة حيث لدى (الرعاة) ومنها إعتبار أراضي المراعي ملكاً للقبيلة كلها وقروض التضامن القبلي بين الأسر والعشائر وقواعد توزيع العنائم - وكانت جزءاً لا يتجزأ من وسائل المعاش لديهم، وغيرها من مناهج النشاط المراعية للتقاليد وفوق هذا وذاك فهناك معيشة البدو وهي أدنى مستوى عموماً من معيشة الفلاحين الأمر الذي يفرض حداً عالياً من المشتركة بينهم) يستثنى من ذلك مكة نظراً للدور الخاص تجارياً ودينيّاً لكن ذلك الحديث يمكن أن ينطبق بشكل عام على أرض الحجاز.

وبعدها الخلافة العباسية كان أقارب الخليفة وقادة الجيش يأخذون مواقعهم في المقدمة. لكن تداخل الشعوب الأخرى بأغلبية سكانية كبيرة، واتساع الدولة أتاح لقادة «بيروقراطيين» غير عرب وغرباء عن قرابة الخليفة أن يتبوأوا مواقعهم. وبحكم توسع بيت المال وموظفيه والحروب المستمرة كانت الإدارة والديوان ينموان بجانب تنامي مهمات ذلك الجيش ومتطلباته ونتائج حروبه، بل وتركت النظم البيزنطية التي كان يعمل بها في بلاد الفتوحات على ما هي عليه، عندما بدت التشريعات العربية غير كافية لحل المشاكل الجديدة، واتسع باب الإجتهد وانفتح على مصراعيه ليواكب ذلك التطور الفجائي بحكم القفزات العسكرية التي حققها الفتح الإسلامي.

ونعود مرة أخرى لنقول بأن الفصل بين العوامل لا بد وأن يخل بموضوعية أي بحث، فالتفسير الديني يفرق في الصوفية، والتفسير الإقتصادي يفرق في أحاديثه فيبدو أعزلاً من قوته ومنطقه.

وهكذا (جرت الفتوح في لحظة خاصة من التاريخ حيث التطورات لاتخضع دائماً لقوانين الزمن، وما يكون بديهياً في عصر ما، قد لا يكون كذلك في عصر آخر، فالظروف المتزامنة، بمناخها السياسي العام وعواملها النفسية المختلفة تساهم بدور مؤثر أو مساعد في تحقيق هذا الحدث أو ذاك ومن الطبيعي أن تخلق حركة الفتوح - وهي ظاهرة متميزة في التاريخ - وراءها عاصفة من الجدل نتيجة السرعة المذهلة التي تم فيها للعرب المسلمين تحطيم إمبراطورية عظمى وتحجيم أخرى في نطاق الإمكانات العسكرية المتواضعة المتوفرة لهم في ذلك الحين).^(١)

ولتكون الدولة المركزية في شبه الجزيرة العربية واتساعها

(١) ابراهيم بيضون، تكون الإتجاهات ص ٣٨ - ٩٣

فيما بعد لتشتمل البلاد المحاورة والبعيدة، كان من الضروري السيطرة على القبائل البدوية والمجموعات المتخلفة حضارياً، وتلك التي لم تكن تعترف للعالم إلا بحدودها هي ولا ترسخ إلا لقانونها الخاص، وكان يجمع كل قبيلة أو عشيرة مشترك إقتصادي ينظم استغلال المياه وعملية الرعي وتوزيع التروات أو نواتج الغارات، (وبالتالي فالقبيلة التي تستولي عليها أخرى وتخضعها تصبح دون ملكية وجزءاً من الشروط غير العضوية لإعادة الإنتاج لدى القبيلة الغانمة، تلك الشروط التي يعتبرها هذا المشترك ملكاً له وعليه تكون العبودية والقنانة في بساطة تطورات الملكية المؤسسة على القبائلية، وهما تغيران بالضرورة أشكالها جميعاً (الملكية). وفي شكل وحدة الإنتاج المعتمدة على الذات مثل الصناعة اليدوية أو الزراعة، لا يمثل الفتح أو الغزو الشرط الجوهري الذي يكون عليه حينما تسود الزراعة مع ملكية الأرض سيادة دون منازع. وفي هذا الشكل لا يصبح الفرد مالكاً أبداً بل حائزاً فقط، فهو أيضاً في الأساس العميق ملك وعبد لذلك الذي يجسد وحدة التجمع..^(١) كما سيتضح هذا بعد ذلك.

وكانت غارات ذلك الجيش الإسلامي الأول غير قادرة على احتلال دائم للأراضي التي تغزوها، عدا بعض النماذج المحدودة في أراضي اليهود في بني قريظة وفدك ووادي القرى، بل إن بعض تلك البلاد كان أهلها يزرعون أو ينتجون ثم يرسلون بخراج الأرض أو بالجزية المتفق عليها إلى السلطة الجديدة مثل خيبر وبعض بلاد الشام كما ذكرنا من قبل في حياة النبي وقال النبي بعد فتح مكة (إن

(١) انظر الأشكال الاقتصادية قبل الرأسمالية السخة الإنجليزية ص ٩١ - ٩٢ ماركس.

كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين إلا سداية البيت وسقاية الحاج..).

وكانت المصلحة العامة تنمو في جانب المصلحة الخاصة، فبالغات لم تكن قادرة على إشباع الحاجات الخاصة للمسلمين الأوائل، وفي إتساعها بدأ يتكون فائض كبير كان يستخدم في الأعمال العامة وتجهيز الجيش أو القتال، لتعاد الدورة بشكل أوسع لتزداد الملكية الفردية ومعها يزداد الفائض وتتطور الملكية العامة وهكذا دواليك

ونستطيع أن نعد المصادر الأساسية للتراكمات والتي كانت تتنامى مع السيطرة الكاملة على كل القبائل العربية فتكون بذلك الحياة الإقتصادية لتلك الدولة الآخذة في التشكل.

فالمصدر الأول كان يعتمد أساساً على الغارات والغزوات وإخضاع القبائل والسيطرة على مخازن الحبوب والأراضي والمراعي والمنازل وقطعان المواشي الكبيرة والصغيرة (فمثلاً كانت تؤخذ ثمار الطبيعة عنوة عبر القنص والصيد والإلتقاط) والرعي والزراعة المحدودة) أصبحت تحتل الخيرات التي أنتجها المهزوم والخاضع كحق ناتج عن العنف وهو حق الحرب. ومثلما كان يمارس القنص أو الرعي أو الجمع في نفس المنطقة مجدداً مع حلول الموسم السنوى لمروور القطعان البرية أو (لظهور الحشائش) مثلما أصبحت تفرض الجزية على الأرض المزروعة).^(١)

وقد ازداد هذا المصدر بشكل واسع عبر عملية الفتوحات لبلاد الأنهر من خلال الجزية المفروضة على الرؤوس من أهل الكتاب والعجم والمجوس، وكانت المسائل إجتهدية، ففرض عمر على أهل

(١) انظر، أحمد صادق سعد، حول النمط الآسيوي ص ٥٩.

الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق (الفضة) أربعين درهماً بالإضافة إلى أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام وقال (الشافعي) أقله محدود وهو دينار وأكثره غير محدد وبحسب ما يصالحون عليه، وقال قوم لا توقيف في ذلك وهو متروك إلى اجتهاد الإمام،^(١) كما قال عمرو بن العاص لصاحب اخنا في مصر رداً على سؤاله حول الجزية (أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها ١٩) فرد قائلاً. (وهو يشير إلى ركن الكنيسة) لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزنة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خُف عنا خُف عنكم.^(٢)

(غير أن التوازن الناتج عن الصراع الطبقي كان يجبر الهيئة الحاكمة على الالتزام بجانب الاعتدال في تحديد حجم الجزية، وذلك لأنه إذا زاد عن مستوى ما بحيث تصبح المعيشة غير محتملة لدى المنتجين، لتعرضت الإمكانات الضريبية لخطر النقصان، بل الإنعدام).^(٣)

(قال يحيى: ونحن نقول الجزية جزيتان، جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية، يؤخذ بها أهل القرية، فمن هلك من أهل القرية التي عليها جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال، فإننا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع إلى قريته في جملة ما عليهم من الجزية، ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ولم يرث إرثاً فإن أرضه للمسلمين عامة).^(٤)

(١) انظر الوليد بن رشد، في بداية المجتهد ونهاية المقتصد ص ٢٩٣، ٢٩٤

(٢) إس عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧، المقرئ، المواعظ والإعتبار ج ١ ص ٧٧

(٣) أحمد صادق سعد، النمط الآسيوي، ص ٧٢.

(٤) إس عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨، ص ٢٠٩

(ويقول عبد الملك بن سلمة . أن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فُتحت عنوة وأن الجزية إنما هي على القرى، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم، وإن موات من مات منهم لا يوضع عنهم من الجزية شيئاً).^(١)

وكانت هناك عدة أنواع من الضرائب (فالجزية وكانت تدفع نقداً وكانت ضريبة مالية صرفة، ضريبة الطعام وهي ضريبة عينية تؤدي قمحاً وشعيراً ويمكن إستبدالها بمحاصيل أخرى حسب حاجة الدولة كالعسل والخل والزيت والنسيج والجلود . وكانت ضريبة الرؤوس الملزمين بدفع الضرائب المطلوبة منهم بإعتبارهم من أهالي الجهة الأصلية (إذا سمح لهم بتغيير محال إقامتهم)، وكان لايسمح لهؤلاء الأشخاص بالانتقال من ناحية إلى أخرى إلا بإذن خاص ولمدة محدودة... وكانت الجزية مقدرة جملة على أهل القرية وعليهم أدائها جملة بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت).^(٢)

واحتفظ العرب بالنظم الإدارية البيزنطية فلم يغيروا فيه تغييراً كبيراً، فعلى سبيل المثال كانت مصر - أيام الرومان - مقسمة إدارياً إلى مصر العليا والسفلى، وهذان القسمان كانا مقسمين إلى أقسام وكور، وكان هناك (جسطال) أي الموظف المشرف على مالية الكورة، أي مندوب ديوان الخراج والأموال. أما (موازيت) فمعناه رؤساء أو مشايخ القرى. وظل نفس النظام معمولاً به أيام العرب، فكُلِّف صاحب الكورة بالإتصال بالوالي أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التي تدخل في دائرة هذه الكورة،

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨، ص ٢٠٩
(٢) أحمد أمين صالح، النظم الإقتصادية في مصر والشام في صدر الإسلام ص ١٤٤ - ١٤٨.

ويشرف على تقدير الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة. وتضيف (سيدة كاشف). والظاهر أن العرب وجدوا في مصر عند الفتح نظاماً زراعياً ومالياً لم يستطيعوا تركه تماماً، وكان هذا النظام يبعدهم إلى حد كبير عن الإتصال بالفلاحين دافعي الضرائب المباشرة. وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جداً وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص، وقد كان فلاحو القرية متضامنين في الضرائب التي تفرض عليهم كما كان لا يجوز نقل المحاصيل والمنقولات من مكان لآخر إلا بتصريح. ونرجح أن العمال الذين كانوا يكفون بالعناية بالترع والجسور وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريقة السخرة كما كان الحال قبل الفتح العربي^(١).

وعندما استولى العرب في بداية الفتوحات على الأراضي وُزعت كمغانم للجنود الذين كانوا بدوا ولم تكن لهم أدنى علاقة بالزراعة، فتدهورت إنتاجيتها تماماً، مما اضطرت الخليفة عمر بن الخطاب أن يعدل عن ذلك ويعيدها للسكان الأصليين على أن يدفعوا خراجها كما فعل النبي مع أهل خيبر، لكن ذلك لم يمنع بعض العرب من الإستقرار في الأراضي والعمل في الزراعة. وقد كان نظام القطائع معروفاً بأن يهب الإمام أو الأمير قطعاً من الأرض لمن يرى من أقربائه أو قادة الجيش أو المقربين، ليعمرها وينتفع بها أو يجعلها مزدراعاً ينتفع بما يحصل من غلتها ولاخراج عليه فيها وربما جعل على مزدراعها خراجاً مثل قطائع المنصور وولده بعده ببغداد في

(١) انظر، سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام ص ٢٦٧.

القطائع ومن ذلك أيضاً قطيعة الربيع وقطيعة أم جعفر. ويقول ياقوت الحموي في معجمه (وأما القطيعة الأخرى فهي أن يُقَطَّع السلطان مايشاء من قواده وغيرهم القرى والنواحي، ويقطع عليهم عنها شيئاً معلوماً يؤدونه في كل عام - قلٌّ أو كَثُرَ - توفر محصولها أو نذر لآمدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك).^(١)

(وعادت أراضي البلاد المفتوحة إلى التبعية للدولة ولكن الملكية الخاصة لم تختف تماماً وذلك بسبب أن بعض أفراد الصفاة العربية وضعوا أيديهم على حيازات كبيرة، وخاصة وأن الإصلاحات التي أدخلها العباسيون الأوائل أدت إلى تفكيك المشترك القروي في فترة تحول عرب كثيرون إلى الاستقرار الزراعي).^(٢)

وكان من الممكن أن يستأجر المسلم أرضاً خراجية، وعلى صاحب الأرض الخراج المفروض عليه، وعلى المسلم أن يزكي أرضه إذا بلغ ما يخرج منها (خمسة أوسق)، ويرى سفيان أن أجور الخراج على السلطان وأجور العشر على أهل الأرض، وقال مالك: وإذا كانت أرض من أرض الخراج لعبد أو كاتب أو امرأة، عليها الخراج وما بقي من الغلة العشر، وأراضي العشر هي الأرضون التي أسلم عليها أهلها وهي في أيديهم مثل اليمن والمدينة والطائف فإن الذي يجب على هؤلاء العشر، وقد أدخل بعض الفقهاء في هذا القسم أرض العرب الذين لم يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وكان بين من أسلم طوعاً ومن أسلم كرهاً فرق النبي بينه بالفعل وذاك أنه جعل لأهل الطائف المسلمين مما لم يجعل لغيرهم. حرم واديهم وأن لا تغير طوائفهم ولا يؤمر عليهم إلا منهم، وأخذ من دومة الجندل بعض أموالهم واستثنى عليهم الحصن ونزع الحلقة (السلاح والخيل) لأنهم

(١) معجم البلدان، لياقوت الحموي ج ١، ص ٤٢ وما بعدها

(٢) أنظر، أحمد صادق سعد، في ضوء النمط الآسيوي

جاءوا راغبين في الإسلام، لكن أبا بكر في حروب الردة نزع منهم الكراع والحلقة، نتيجة تغير الظروف السياسية والأمنية.

والصدقة هي زكاة أموال المسلمين من الذهب والورق والإبل والغنم والبقر والحب والتمر لاحق لأحد من الناس فيها سواهم، وأما مال الفياء، فما اجتبي من أموال أهل الذمة من جزية رؤوسهم التي حققت بها دماؤهم وحرمت أموالهم بما صولحوا عليه من جزية، ومنه خراج الأرضين التي افتتحت عنوة ثم أقرها الإمام بأيدي أهل الذمة عن قسط يوفونه كل عام، ومنه وظيفة أرض الصلح التي منعها أهلها حتى صولحوا على خراج مسمى، ومنه ما يأخذه العاشر من أموال أهل الذمة التي يملكون بها عليه في تجارتهم، ومنه ما يؤخذ من أهل الحرب إذا دخلوا بلاد الإسلام للتجارات، فكل هذا من الفياء وهذا الذي يعم المسلمين غنيهم وفقيرهم، فيكون في أعطية المقاتلة وأرزاق الذرية^(١).

وقد افتتحت أرض السواد في العراق أيام عمر بن الخطاب، وكاثت خصبة الأرض، وكانت تعطي الخراج للملك الفارسي قباد بن فيروز. وبعد الفتح الإسلامي حتم عمر الجزية على ستمائة ألف إنسان وجعلها طبقات، الطبقة العالية ثمانية وأربعون درهماً والوسطى أربعة وعشرون درهماً والسفلى اثنا عشر درهماً، فجبى السواد مائة ألف الف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم (أي مائة وثمانية وعشرون مليوناً من الدراهم فضة) بل إن عمر بن عبد العزيز (رغم ما روي عن سلوكه من روايات في عدالته) قال: لعن الله الحجاج، فإن عمر بن الخطاب جبى العراق بالعدل والنصفة مائة وثمانية وعشرون ألف ألف درهم وجباه زياد (١٢٥ مليوناً) وجباه ابنه

(١) انظر، معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ١ ص ٤٢ وما بعدها.

عبيد الله أكثر (ب عشرة ملايين)، تم جباه الحجاج مع عسفه وجبروته ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، وأسلف للفلاحين للعمارة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم فحصل له (١٦ مليوناً)، تم أضاف وهأنذا قد رجع إلي على خرابه فجبيته مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم بالعدل والنصفه، وإن عشت له لأزيدن على جباية عمر بن الخطاب. (١)

وقال عبد الرحمن بن سليمان: مال السواد ألف ألف ألف درهم (مليار) فما نقص مما في يد السلطان منه فهو في يد الرعية، وما نقص من يد الرعية فهو في بيت مال السلطان. وقالوا. ليس لأهل السواد عهد. إلا الحيرة وألبس وبانقيا، فلذلك لا يصح بيع أرض السواد دون الجبل لأنها في للمسلمين عامة إلا أراضي بني صلوبا وأرض الحيرة، وقيل: أراد عمر قسمة السواد بين المسلمين فأمر أن يحصوا فوجدوا الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين فشاوور أصحابه فقال علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين وقال لسعد بن أبي وقاص بعد فتحها عنوة: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس قد سألك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم، وإن أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه العسكر بخيلهم وركابهم من مال وكراع فاقسمه بينهم بعد الخمس، واترك الأنهار والأرض بحالها ليكون ذلك في عطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يبق لمن بعدهم شيء. وقالوا: إن أرض السواد لا تباع ولا تشتري لأنها فتحت عنوة، ولم تقسم فهي في عامة للمسلمين. (٢) أي أن الأرض رغم عدم تقسيمها وتركها للفلاحين

(١) نفسه ج ٣ ص ٢٧٢.

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٢ وما بعدها. باب السواد، وقد قال سعيد بن العاص الأموي (السواد كله لقرش فما نشاء قطعته، وهذا عندما رفض الكوفيون ولايته عليهم =

الأصليين أصحاب البلاد، إلا أنهم لم يكونوا حائزين لها لا يستطيعون بيعها أو شراءها أو التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، لأنها عطيات للمسلمين عامة (ملكية عامة)،^(١) وهذا لأنهم حاربوا دفاعاً عنها. ولم يسلموها صلحاً. وقال أبو حازم القاضي: جبي عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب إثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليوناً)،^(٢) فصرفه عثمان بن عفان وقلدها عبد الله بن أبي سرح فجباها أربعة عشر مليوناً، فقال عثمان لعمر: يا أبا عبد الله أعلمت أن اللقحة بعدك درت ؟ ! فقال : نعم ولكنها أجاجت أولادها ، وقال أبو حازم : إن هذا الذي رفعه عمرو بن العاص وإبن أبي سرح إنما كان عن الجمام خاصة دون الخراج وغيره^(٣) .

وقد أردنا كل هذه النصوص السابقة للشيء إلا لنؤكد إلى أي مدى كان قانون الحرب يدمر مصدراً هائلاً من الأموال على بيت المال، سواء على مستوى الديوان في كل بلد على حدة أو على مستوى عاصمة الأباطورية الإسلامية في المدينة، ثم في الشام أو في العراق فيما بعد. ونلاحظ أن البلاد تقسم إلى بلاد فتحت عنوة وأخرى صلحاً عنوة، أي بسبب مقاومة أهلها أو بعض القوات البيزنطية أو الفارسية المصاحبة لهم. وصلحها هي تلك البلاد التي احتلت دون مقاومة أهلها، فيشترطون على أنفسهم الشروط الوارد ذكرها من قبل.

وبسبب هذا المصدر تكونت طبقة ثرية عربية تبدأ من أدنى

= وخرج إليه الاشر النخعي بقوة مسلحة وبعده من دخول المدينة ورد عليه. اتجعل من مراكز رماحنا وما اءاء الله علينا نستأ لك ولقومك^{١٥} والله لو راه أحد لقرع قرعاً يتأصص منه مرضخ عثمان بن عفان وعين أبا موسى الاشعري اليميني بدلاً منه (انظر ابراهيم بيصون تكون الإتجاهات. ص ١٠٥).

١) ، ٢) ، ٣) أنظر معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٢، ح ٥ ص ١٢٢ باب مصر

المستويات في القرى وترتفع إلى قادة الجيوش والأمرء لتصل في النهاية إلى بعض الخلفاء والصحابة، ولندع نصاً للمسعودي يتكلم بنفسه عن هذا الأمر كمثال واحد من الأمثلة الكثيرة المعروفة فناهيك عن الأمور الخفية، يقول:

إن عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار (ذهباً) وألف ألف درهم (مليوناً) وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار. وامتلك الزبير في أيام عثمان (دارة) بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت (٣٠٢هـ) تنزلها التجار وأرباب الأموال، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة، والإسكندرية، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وألفاً فرس وألف عبد وأمة... وكذلك طلحة ابتنى داراً بالكوفة المشهورة به في هذا الوقت، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار.. أما عبد الرحمن بن عوف ابتنى دارة ووسعها، وكان على مربضه مائة فرس، وله ألف بعير وعشر آلاف شاة من الغنم.. وابتنى سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات..^(١)

ورغم ما تثيره الأرقام من شك، وخاصة وأنها كلها مرتبطة بالأرقام عشرة وخمسين ومائة وألف، مما لا يمكن معه اعتبارها إحصائيات دقيقة - فهذا العصر لم يتطور فيه علم الإحصاء - إلا أن ذلك يعكس إلى أي مدى وصلت ثروات هؤلاء الأمرء، ودون ذكر أرقام فإن معظم هذه الثروات جاءت عبر الحروب كفيء أو جزية أو خراج أو جاءت عبر صدقة أو عشور أو تجارة، وصبت كلها في عاصمة الدولة

(١) المسعودي، مروج الذهب ح ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣، محمد عمارة مسلمون توارس ٢٢ - ٣٥.

الإسلامية بشكل أو بآخر، ولا بد أن جزءاً كبيراً قد صُتَّ في جيوب القادة والأمراء وغيرهم المرتبطين بهم، مما كان له أثره فيما بعد على شكل الصراعات داخل الدولة الإسلامية حيث بدأت التمايزات الطبقيّة تأخذ مظاهرها الأكثر حدة مع تطور الفتوحات واتساع رقعتها، ولا يعني هنا أن عثمان بن عفان قد قتل وهو يقرأ القرآن، وإنما يعنينا كيف عادت العشائرية الأموية لتسيطر سياسياً واقتصادياً على مقدرات الأمور ثانية، بل ولتسيطر مع حلفائها من أغنياء الصحابة الأحياء حينذاك على حصة لا بأس بها من عائدات الحروب.

وهكذا أتاحت التراكمات السياسية والعسكرية تراكماً إقتصادياً ذا شأن كبير، وكان ضرورة لا بد منها للإبقاء على هذه الدولة الحديثة النشأة، بل واستمراريتها وانتقالتها خطوة أعلى إلى طور الحضارة ذات الدولة المركزية وبدلاً من أن تكون الغنيمة أمراً متقطعاً في أيام الرسول الأولى، تطورت بصراعه وتنامت مع نشأة الدولة لتصبح أمراً ثابتاً لتتحول إلى نوع من الضريبة أو الجزية.

وبالطبع، إعتد هذا المصدر على مجهود السكان والبشر والفلاحين من زراعة أو صناعة يدوية أو رعي أو خلافه وتم ذكره سابقاً.

المصدر الثاني وكان قد انتعش باكتشاف طرق جديدة وبلاد جديدة وموارد جديدة، وهو التجارة سواء تجارة المقايضة أو التجارة بالأموال، وتحت حماية الجيوش المنتصرة وفي ظل سيطرتها التامة على الأسواق وأخذ الضرائب والمكوث والعوائد ورسوم المرور. وكان التجار يقومون بدور بارز في نقل وتوصيل المنتجات التي تجمع وفاء للجزية إلى العاصمة الحاكمة مثلما كان يحدث بالنسبة لخراج مصر أيام عمر بن الخطاب، أو يشترون جزءاً منها ويتاجرون فيها لحسابهم، ومع تطور القوى الإنتاجية جاء جزء من الناتج المحلي

(البلاد المفتوحة) مادة للتجارة الداخلية المباشرة ومصدراً للعملة اللازمة لسداد جانب من الخراج نقداً^(١) واستخدم العمال فيما بعد لحفر الترع والمصارف كحفر خليج أمير المؤمنين أيام عمرو بن العاص في مصر، وتم استخدامهم أيضاً في مناجم الحديد والنحاس والذهب.

وظلت دورة المال تلك في النمو أو التراجع حيناً، لكنها لم تتحول إلى رأسمال أبداً حتى العصر الحديث، فالوجود المحض للثروة النقدية، بل وحتى انتزاعها لنوع من مركز الهيمنة ليس كافياً لكي ينتج رأسمالاً، فلو كانت كذلك لكانت روما القديمة وبيزنطة قد ختمتا تاريخهما بالعمل الحر ورأس المال، بل لكانت دخلتا تاريخاً جديداً، فهناك كان نمو علاقات الملكية القديمة مرتبطاً بنمو الثروة النقدية والتجارة ومع ذلك فإن نتيجة هذا الوضع لم تكن الصناعة هي المسيطرة، ولكن ظل الريف مسيطراً على المدينة^(٢) فالرأسمالية تحتاج دائماً أن تكون قوة العمل وأدوات العمل سلعة، الأمر الذي لم يحدث لعدة قرون من الزمن، وذلك لأن التجمعات الاقتصادية ظلت مكتفية وقائمة كأساس للهيكل الاجتماعي الإقتصادي، رغم مامرّ عليها من سادة وقادة سياسيين كانوا يتغيرون دائماً، ولكنها ظلت تعيش أكثر من ألف ومائتي سنة في نفس الدائرة المفرغة حتى نقل الإستعمار الحديث أشكاله لكل بقاع الأرض.

ورغم اعتراف الإسلام بالرق وتنظيمه، وتحديد العلاقة ما بين السادة والعبيد، ورغم وجود العبيد سواء قبل الإسلام أو بعده وربما بالفتوحات قد ازدادت أعدادهم بشكل كبير وكما ذكر من قبل، عن

(١) أحمد صادق سعد، في ضوء النمط الآسيوي ص ٩٨

(٢) أنظر، ماركس. التكوينات الاقتصادية قبل الرأسمالية النص الإنجليزي ص ١١٠

بعض الصحابة الذين يملكون آلاف العبيد والإماء، بل وذكر للرسول نفسه - وفي كتب السيرة - عدد كبير من العبيد والإماء وقد ذكر الإمام ابن كثير^(١) عن ابن عساكر (في باب ذكر عبيده عليه السلام وإمائته) أكثر من أربعين عبداً وأكثر من عشرين أمة أو جارية كن له ولنسائه ورغم وجود تجارة للعبيد بيعاً وشراءً سواء أيام النبي أو بعده، فإننا لانستطيع أن نعتبر أن الدولة الإسلامية قد مرت بما يسمى في الإقتصاد السياسي بمرحلة (العبودية) كنمط رئيسي من أنماط الإنتاج السائدة، وحيث يعتمد على العبيد أساساً في العمل الشاق وفي صنع التراكم الإقتصادي عبر هذا العمل وعبر بيعهم وشراهم فهذه المرحلة مرت بها أوروبا، وازدهرت بعد أن غزت القبائل الجرمانية الإمبراطورية الرومانية، فاستخدم العبيد لإنتاج الفائض الذي يوجه بعد ذلك للتداول ولشراء عبيد جدد، بينما لم نجد هذا الأمر واضحاً في الدولة الإسلامية، حيث كان العمل والفائض يقوم به أناس «أحرار» يدفعون الجزية والخراج أو الصدقة أو العشور، ذلك الفائض الذي يوظف إما في الملكية العامة وإعداد الجيوش أو في الهبات والتجارة، وكان دور العبيد هامشياً في العملية الإقتصادية حيث يقومون بأعمال الخدمة في المنازل والقصور أو للتسرية عن السادة وأحياناً يستخدمون في أعمال السخرة أو يباعون ويشترون، إلا أن هذا لم يتحول أبداً إلى نمط أساسي لخلق الفائض الإقتصادي والذي يعاد توظيفه بشراء عبيد جدد يضافون إلى الجيش القديم فينتجون فائضاً جديداً وهكذا.

وبالمقارنة بالعبودية في اليونان وروما، تعتبر العبودية في الدولة الإسلامية ضئيلة الدور، محدودة التأثير، وظلت هكذا هامشية

(١) سيرة ابن كثير ج ٤ ص ٦١٦.

أواخر القرن الماضي حتى ألغيت ^(١) وربما لهذا الدور الهامشي في الحياة الإقتصادية إختلفت حالتهم بشكل أو بآخر عن عبيد روما أو بيزنطة فمنحوا بعض الحقوق وعوملوا معاملة مختلفة لحد ما (فنظام الرق في الإسلام لا يختلف كثيراً عنه في بداية العصر المسيحي، لكنه ليس بالضبط كما هو في القانون الروماني موضوعاً طبقاً للإرادة المطلقة للسيد، فقد كان للعبد حق الزواج والذي اختلف في إجراءاته طبقاً للمذاهب الشرعية، ولكن لم يكن للأمة نفس الحق إلا بأمر سيدها وبالمبلغ الذي يريد، وإن كان لها الحق في عدم الانفصال عن طفلها. وفي العصور الإسلامية اللاحقة كما في العصر العباسي كان بعض الأمراء أبناء لجوار. وأما النساء (الإماء) فكان غالباً يربين بعناية خاصة بسبب دورهن في نظام التسري السائد حتى وقت قريب أو لتصبحن مغنيات أو راقصات في الاحتفالات. وإذا كان العبد المسلم متعلماً فهو يستطيع أن يصبح مفتياً خاصاً ولكنه غير رسمي فيستطيع أن يقود الصلاة غير صلاة الجمعة، ويمكن أن يشترط السيد تحريراً لبعض عبيده في وصيته أو بالمكاتبة، وهناك أيضاً نظام التحرير الجزئي إذا كان السعر المشروط لإعادة الشراء والذي يمكن أن يشارك فيه العبد بنفسه غير كاف وكان هناك أيضاً العبيد العموميون وهؤلاء يمتلكهم عدة أسياد في نفس الوقت). ^(٢) وبجانب تلك العبودية القانونية في الدولة الإسلامية أطلق البعض ^(٣) على هؤلاء السكان الذين يعملون من أجل الدولة وكان عليهم سداد الضريبة أو الجزية أو الخراج والقيام بالسخرة خدمة للأشغال

(١) ألغي الرق في المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٤ فقط بقرار من الملك فيصل

(أنظر د. إبراهيم سعد الدين، النظام الإقتصادي العربي الحديث ص ١٦١)

(2) LOUIS GARDET: Les Hommes de L'ISLAM . P 104- 111.

(٣) أنظر، صادق سعد ص ٩٢

العامة وبعض الأبنية التي تقيمها السلطة المركزية. الخ. (العبودية المعممة)، وهي تلك العلاقة الناشئة بين التجمع الإقتصادي الأدنى (المشترك القروى) وبين الدولة (المشترك الأعلى) وهي علاقة تبعية دائمة يفرض فيها العمل والضريبة ثم جزية الرؤوس وعدم مغادرة الأرض إلاّ بتصريح وكل ذلك من أجل ملء الخزينة العامة وكان هذا هو النمط الإقتصادي والإجتماعي السائد في ظل الدولة الإسلامية. فهل يمكن وضع تلك الدولة الإسلامية تحت ما يسمى (النمط الآسيوي للإنتاج)؟ ربما. لكن الموضوع يحتاج لبحث آخر. ونكتفي هنا بتلك الإشارات والتي نرجو ألا تكون قد خرجت عن موضوع بحثنا.

خاتمة

التقديس عاهة مضرّة بالنقد، وتؤدي بالمؤرخين إلى الخوف حيناً وعدم التعمق حيناً آخر، وهو يضيف على الأشياء هالة وهمية لاستحقاقها، وينزع من بعض الأشياء حقاً تستحقه.

وهذا ما حاولنا أن نضعه جانباً ونحن نكتب بحثنا لكي لانسقط في مستنقع العواطف القديمة. وفي عملية البحث نقرأ في كتب السيرة الإسلامية، فنكتشف ذلك الحجم الكبير من العمل العسكري في مسيرة القوة المحمدية وخاصة بعد الهجرة، وما جاوره من أحداث لا يتعدى أن يكون تابعاً له بشكل أو بآخر، ومن هنا يمكن اعتبار أي كتاب يتحدث في المغازي والحروب النبوية هو كتاب يشمل التاريخ الإسلامي في أساسه. فحق الحرب هو حق الدين، وهو حق المغنم، وهو حق السيادة، وهو حق التاريخ القديم الذي فرضته حالة الصراع على موارد الرزق في الصحراء العربية.

وبدون الهجرة النبوية إلى يثرب، كان يمكن أن نتخيل مصيراً آخر للإسلام ولجزيرة العرب وما حولها، فلقد ظل محمد في مكة أكثر من ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إليه ويجادلهم، لكن الدعوة والجدل بقوة الحجة فقط، لا يكفي دائماً لتحريك جموع كبيرة، والسيطرة على خلافات وتناقضات مستفحلة، كانت تحتاج لحسم، والحسم يحتاج

شروطاً خاصة بطبيعة تلك التناقضات، وأهمها حق (الإعتداء) ذلك الذي اكتسب شرعيته وتحول إلى مفخرة لكل عربي وتأصل داخله بحكم الحروب القبلية المستعرة منذ (وُجد) الناس على أرض هذه الصحراء.

ربما أدرك محمد هذا قبل أن يبدأ غزواته، وربما أدركه خلال مسيرة الصراع بحكم أهمية نتائجه على مستوى تنامي قوته، فانطلق فيه لايلوي على شيء، يضرب ويضرب، ولا يرتاح إلا ليضرب. تدفعه الحاجة دفعاً للاستمرار في الحروب وهي حاجة إقتصادية وحاجة إستراتيجية تميزت عبر احتدام صراعه داخل جزيرة العرب.

ونستطيع أن نقول - وبلا مبالغة - أن حياة النبي منذ الهجرة حتى وفاته، هي حياة قائد عسكري منغمس في المعارك. قائد لاينام إلا وفي حضنه السيف ولا يصحو إلا شاهراً إياه.

قد ينزعج البعض من هذا الكلام صائحين بأن الدين انتشر بالإقناع ولم ينتشر بالسيف، وكأن السيف عيب، وكأن القوة وباء، وكأن من أدرك أهمية ذلك قد إنزلق إلى أرض الواقع وذلك جريمة - من المؤكد جريمة - في ذهن الذين يريدون تقديس كل شيء.

وليست كل قوة ولا أي قوة قادرة على الإنتصار وحسم التناقضات لصالحها، وأيا كانت إمكانياتها، فهناك لحظات تبدو فيها هذه القوة (دون كيشوتية) تضرب دون هدف محدد وربما بتأثير عكسي. وهناك لحظات تضرب - وربما بأقل قوة - فتقوض وتهدم وتغير مصائر. هذه اللحظات الفعالة من التاريخ أو مايمكن قوله - مجازاً - الفرص التاريخية التي لا تتكرر إلا قليلاً، وإن تكررت ربما يكون التاريخ قد تجاوزها بحل آخر أو تهدئة جديدة للتناقضات القديمة.

والفرصة التاريخية، ليست يوماً وليست شهراً ولا عاماً ولا ربحاً من الزمن، وإنما هي الاختلال الواضح للقوى الحية بتناقضاتها، أو بمعنى آخر، أزمة حادة يعانيتها القديم ويخترق بها فلا تتنفس إلا بجديد أو عبر مسار جانبية تضعها الأحداث لتصرف ذلك الضغط. وقد تظل الأزمة قائمة أياماً وسنين وربما عشرات السنين، وداخل هذه الأزمة تعلو لحظة فعالة يمكن أن تحكم مصيرها كله.

وهكذا جاء محمد والأزمة ممسكة بشبه جزيرة العرب، والتناقضات تحكم حياة الناس بدءاً بمركزها في مكة، وانتهاء بالقبائل المنعزلة في واحاتها وحول مراعيها في أطرافها لكن الفرصة التاريخية لم تأت إلا بعد الهجرة، واللحظة الفعالة للانقراض بدأت بسرايا قطع الطرق التجارية ومهاجمة القبائل وهي منعزلة، ففاجأها، وأصابها واحدة واحدة وهو ينفرد بها، دون مقاومة جيش ولا بوليس ولا دولة ولا سجن ولا حكومة وتوجت بفتح مكة، فحسمت تناقضات قديمة آتية بتناقضات مابعد النصر والتي لم يواجهها محمد فقط، بل واجهها بعده قادة الدولة الإسلامية التي تشكلت وأخذت في الاتساع يوماً بعد يوم، ومع اتساعها إتسعت المشاكل، وانضافت إليها تناقضات جديدة لم تعرفها شبه الجزيرة ولا عرفت في يوم من الأيام.

وقد بدأنا بما يمس موضوعنا من التاريخ، وما يمس التاريخ من شخص محمد كقائد لهذه المسيرة، وانطلقنا معه في سراياه وغزواته، محاولين قدر الإمكان أن نتلمس جذور القوة وعوامل النصر الموضوعية، وبعض العترات حتى بداية تشكل الدولة الجديدة، مشيرين إلى بعض السمات الخاصة لطبيعة هذه الدولة وأسباب

اتساعها السريع.

فنكون بذلك قد حددنا جذور نجاح المشروع الإسلامي، وهو ما أطلقنا عليه (جذور القوة الإسلامية). فلعلنا نكون قد أضأنا بعد الفجوات المظلمة في تاريخنا دون الغرق في المطلق والمعمم، أو دون الضياع في متاهات الاحتمالات والترجيحات.

المراجع العربية

- القرآن الكريم.
- ابراهيم العدوي. تاريخ العالم الإسلامي. دار الإتحاد العربي للطباعة القاهرة ١٩٨٣م
- ابراهيم بن حسن التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب. الدار العربية للكتاب. بيروت ١٩٨٥م.
- ابراهيم بيضون. تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول دار إقرأ بيروت ١٩٨٦م.
- ابراهيم سعد الدين. النظام الاجتماعي العربي الجديد. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٢م.
- ابن الأثير. (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم - ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت ١٩٧٩م
- ابن إسحق (محمد بن المطلبي - ١٥١هـ). كتاب السيرة والمغازي تحقيق سهيل زكار. دار الفكر بيروت ١٩٧٨م
- ابن خلدون. (أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد - ٨٠٨هـ) «جزءان» المقدمة. لجنة البيان العربي. القاهرة ١٩٥٨م.
- ابن رشد (الوليد) بداية المجتهد ونهاية المقتصد دار الفكر للطباعة والنشر. (دون تاريخ).
- ابن سعد (أبو عبد الله محمد - ٢٣٠هـ). (ابن سعد البصري الزهري)

- الطبقات الكبرى. دار صادر. بيروت (دون تاريخ).
- غزوات الرسول وسراياه. دار بيروت ١٩٨١م.
- ابن سيد الناس (فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس الشافعي الأتسبيلي - ٦٥١هـ).
- عيون الأترفي فنون المغازي والشمائل والسير. الباب الحلي. القاهرة (دون تاريخ).
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري - ٢١٤هـ). فتوح مصر والمغرب. لجنة البيان العربي. القاهرة ١٩٦١م.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء الحافظ إسماعيل ٧٠١ - ٧٧٤هـ).
- تفسير القرآن العظيم. كتاب الشعب. القاهرة ١٩٧١م.
- السيرة النبوية (٤ج) تحقيق مصطفى عبد الواحد. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٢م.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك - ٢١٣ أو ٢١٨هـ). السيرة النبوية. مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٧١م.
- أبو حيان التوحيدي (- ٣٥٦هـ). الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. مكتبة الحياة. بيروت (دون تاريخ).
- أحمد صادق سعد. في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج. نشأة التكوين المصري وتطوره. دار الحداثة. بيروت ١٩٨١م.
- أحمد أمين. فجر الإسلام. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥م.
- أحمد أمين صالح. النظم الإقتصادية في مصر والشام في صدر الإسلام. مكتبة سيد رافت. القاهرة ١٩٧١م.

- أدونيس (علي أحمد سعيد). الثابت والمتحول (ج ٣) تأصيل الأصول ج ٢. دار العودة بيروت ط ٣ ١٩٨٢ م
- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل - ٢٥٦هـ) الصحيح. مطبعة مصطفى الحلبي. القاهرة ١٣٤٥ هـ.
- البلاذري (أبو جعفر أحمد - ٢٧٦هـ). فتوح البلدان. تحقيق محمد رضوان. المكتبة التجارية الكبرى (دون تاريخ).
- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن موسى الخسروجري. صاحب التصانيف من خراسان. ٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) السنن الكبرى والصغرى.
- السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن - ٩١١ هـ).
- تفسير وبيان أسباب النزول للقرآن الكريم. أعده محمد حسن الحمصي. دار الرشيد. مؤسسة الإيمان. بيروت (دون تاريخ).
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. بيروت (دون تاريخ).
- المزهري في علوم اللغة. القاهرة ١٩٧٨ م.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير - ٣١٠ هـ).
- تاريخ الأمم والملوك (ج ١٠) دار المعارف المصرية. القاهرة (١٩٦٧ - ١٩٦٩ م).
- جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت ط ٢. ١٩٧٢ م.
- العقاد (عباس محمود). العبقريات الإسلامية دار المعارف المصرية.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين - ٣٤٦ هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر (ج ٤) تحقيق يوسف أسعد داغر دار الأندلس. بيروت ١٩٧٣ م
- المقرئزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي - ٥٤٨ هـ).

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. مطبعة بولاق. القاهرة ١٩٧٠م.
- الواقدي (محمد بن عمر بن واقد - ٢٠٧هـ). كتاب المغازي تحقيق مارسون جونس (ج٣). عالم الكتب بيروت (دون تاريخ)
- جواد علي. تاريخ العرب في الإسلام. مكتبة النهضة العربية. بغداد ط١، دار الحداثة بيروت ١٩٨٣م.
- خالد محمد خالد. رجال حول الرسول. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٨٤م.
- ريشنباخ. نشأة الفلسفة العلمية. ترجمة د فؤاد زكريا. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٧م.
- سيدة إسماعيل كاشف. مصر في فجر الإسلام. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٤٧م.
- صوفي أبو طالب. تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٨٦م.
- طه حسين. في الأدب الجاهلي ج ٥. دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م. بيروت.
- من تاريخ الأدب العربي ج ٢. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧١م.
- الفتنة الكبرى. دار المعارف المصرية. القاهرة ١٩٧٣م.
- علي عبد الرازق. الإسلام وأصول الحكم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٢م.
- عمر شريف. نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية. دار الشباب للطباعة. القاهرة ١٩٨٧م.
- محمد عمارة. مسلمون ثوار. القاهرة. روزا اليوسف. ١٩٧٦م.
- محمد ماهر حمادة. الوثائق الإدارية والسياسية في العصر

- الأموي. دار النفائس. بيروت ١٩٨٥م.
- مسلم (أبو الحسين بن إسماعيل - ٢٦١هـ) الصحيح. دار الكتب العلمية. بيروت (دون تاريخ).
- ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي. القاهرة ١٩٥٦م.
- هادي العلوي. نصوص منسية من التراث. مجلة دراسات عربية. مايو ١٩٨٦م دار الطليعة. بيروت.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله الرومي - ٩٢٦هـ).
- معجم البلدان (٥ج). دار صادر وبيروت. بيروت ١٩٧٩م.

المراجع الأجنبية

1. CARUS : IL PROBLEMO SCIENTIFICO DEL DIRINT-
TO MUSULMANO IN. RIVISTA ITALIANO PER LE
SCIENZE GIURIDICHEC P. 147.
2. GOLDZIER: IN BYZANTIENISCHE, ZEITSCHRIFT
1893 P.317-325.
3. GOLDZIER: LE DOGMA ET LA LOI DE L'ISLAM
TRADUCTION DE FEBIC ARIN-PARIS 1920.
4. JAMES C.O.: CHRISTIAN MYTH AND RITUAL P.Vi
AFTER HOOKI, S.H. 1963 " MIDDLE EASTERN
MYTHOLOGY - TRANSLATED TO ARABIC BY
SOBHI HADIDI DAR IL-HEWAR SYRIA 1983
5. LOUIS GARDET: 1984: LES HOMMES DE L'ISLAM
ED. COMPLEXE : BRUXELLE.
6. MARX .K.: PRECAPITALIST ECONOMIC FORMA-
TIONS PROGRESS - EDITION . MOSCOU 1978.

الفهرس

| | |
|-----|-------------------------------|
| ٧ | مدخل |
| ٢٢ | ١ - نظرة في التاريخ |
| ٦٠ | ٢ - التنظيم المحمدي الجديد |
| ٨١ | ٣ - فك الحصار |
| ١٢٠ | ٤ - عشرة أهد |
| ١٤٣ | ٥ - يكون أولا يكون |
| ١٦٠ | ٦ - الحصار |
| ١٨٩ | ٧ - إشارة حول الدول الإسلامية |
| ٢١٣ | خاتمة |

للمؤلف

روايات

- ١- نفاية الوجودية ١٩٧٠.
- ٢- البوابة ١٩٧٥
- ٣- الزمن المر ١٩٨٥.
- ٤- أدماوي ١٩٨٧.
- ٥- رغبة الجن (قصص قصيرة) ١٩٨٠.

مسرحيات

- ١- البديوم ١٩٨٣.
 - ٢- لعبة الدكاتور ١٩٨٥
 - ٣- المحاكمة ١٩٨٦
 - ٤- زغلول البهلول ١٩٨٦
- تحت الطبع بعنوان (جنون اللعبة).

دراسات

- ١- حرب أكتوبر والصراع العربي الإسرائيلي ١٩٧٨ نال بها المؤلف الجائزة الثالثة على مستوى ضباط الجيش المصري، أثناء تأديته للخدمة العسكرية.
- ٢- تخدير مرضى قصور الدورة التاجية ١٩٨١ (باللغة الإنجليزية). حصل بها المؤلف على درجة الماجستير. جامعة القاهرة.
- ٣- الإبر الصينية بين العلم والفلسفة. ١٩٨٦ (تحت الطبع)
- ٤- وهم القداسة. قراءة جديدة في النصوص القديمة. ١٩٨٦.

٣٠٠٠/٨٨/١٠٧٦

هذا الكتاب

يوجه هذا الكتاب الضوء نحو بعض الاركان المظلمة فيما يخص موضوع الدعوة الاسلامية ، ويحاول استكشاف الموضوعي من غير الموضوعي في مسيرة القوة الاسلامية .

والقوة التي يتعرض لها الكتاب ليست القوة العسكرية وحدها ، رغم اهميتها القصوى . وانما ما يمكن أن تشمله من عناصر عسكرية ومعنوية وتاريخية وجغرافية وبشرية .

ركز الكتاب على الفترة الحمديدية باعتبارها اهم فترة في التاريخ الاسلامي ، وسبباً للانتصار الحادث فيما بعد ، او باعتبارها الخط الفاصل بين عصرين وعالمين ، ولو اشار لبعض حوادث التاريخ بعد محمد ، انما اشار اليها في تماسها بما قبلها وفي اطار الفكرة الرئيسية للكتاب .